الدكتور صالح حمارنة

الناس والأرض

دراسات في تاريخ جنوب بلاد الشام

في القرون الثلاثة الهجرية الأولى

* المؤلف : د . صالح حمارنــة
* الكتاب : (الناس والارض)
* الناشر : دار الينابيع للنشر والتوزيـــع
هاتف / ٦٤٧٢٩٧ ص . ب / ٩٢٦٠٥٨
عمان — الاردن

٩٥٦,٩٣
صال صالح حمارنــة
الانسان والارض : دراسات في تاريخ جنوب
بلاد الشام / صالح حمارنة ـعمان:
دار الينابيع ١٩٩١
(٢٩٢) ص
ر . ١ (٢٣٠ / ٥ / ١٩٩١)

١ ـ بلاد الشام ـ تاريخ ١ ـ العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية ومركز الوثائق
(٢٣٠ / ٥ / ١٩٩١)

اهداءات ١٩٩٧
السفير/ هاني رياض علي
السفارة المصرية بالأردن

كلمة لا بد منها

يحتاج المؤرّخ الى جانب غزير علمه وعظيم موهبته ، الى نظرة علمية جدلية ثاقبة ليخرق أسداف الماضي المثقل بالضباب ، والمحاط بنوع من القداسة التي لا تمس ، والذي جرت قراءته على نحو محدد ولا يزال يقرأ حتى الآن بمثل تلك الروح ، فلا يستطيع المؤرخ التقليدي أن يضيف الى سابقيه شيئاً يذكر ، ويبقى يدور في حلقة مفرغة من النظر في بعض جوانب الحياة السياسية أو قل الأحداثية التي عاشها العرب منذ فجر تاريخهم وحتى وقتهم الراهن .

ويشكّل المؤرخون الجادون الذين يتناولون الأحداث التاريخية من منظار علمي ، ويدرسون جميع التحولات من منطلقات جدلية ، ومقاربات منهجية تجمع شتى الإشكالات قلة لا تكاد تذكر ، ومن بين هؤلاء المؤرخين الذين يجمعون ما بين النظرة التحليلية وجمع المادة التسجيلية ، وإضفاء لمسة جدلية على ذلك ، الأستاذ الدكتور صالح الحمارنه ، الذي كرّس جهوده ومنذ فترة طويلة لإزالة الغموض عن بعض الأحداث والإشكاليات التي واجهت المجتمع العربي ، ولا سيما بلاد الشام في العصور الوسطى ، والتي ما يزال يكتنفها الغموض أو النسيان .

وقد رأت (دار الينابيع) أن تبدأ مشروعها الثقافي بإصدار بعض الكتب الأكاديمية التي تزخر بالروح العلمية ، وتحاول أن تبرزها الى عالم الوجود ليستفيد منها أكبر عدد من القرّاء والدارسين حيث توجهت الى الدكتور الحمارنه ، وطلبت منه أن يوافيها ببعض الدراسات التي سبق نشرها في أوقات متباعدة ، وفي موضوعات تمس تاريخ المنطقة / منطقة بلاد الشام وعلى الخصوص جنوب بلاد الشام . وقد استجاب الدكتور مشكوراً لمبادرة الدار التي سارعت الى طباعة هذه الدراسات ، ولم تحاول لا هي ولا صاحبها ، أن تعيد النظر فيها ، فجاءت كما ولدت أول مرة ، فيها بعض التكرار لبعض المعلومات وبعض الأفكار ، وذلك لإن المؤلف لم يكن عند كتابتها يزمع إصدار كتاب محدد ، وإنما كان يتناول هذه القضايا المطروحة إنطلاقاً من أهميتها أو بعدها خصيصاً لمناسبة محددة أو ندوة معيّنة .

وهكذا ، فإننا سنجد أن هذه المقالات التي نشرت في مجلاّت متخصصة وعلى امتداد فترات طويلة تحتوي على معلومات وآفاق متنوعة لم يتح لها أن ترى النور في كتاب موحّد من قبل ، وقد سبقها الى الظهور في كتب مستقلة بعض الدراسات المهمة في هذا الحقل مثل أعمال دائرة الآثار العامة ، ودراسات بلاد الشام التي أشرف عليها الدكتور إحسان عباس وغيرها .

لكن ، دراسات الدكتور صالح الحمارنه ستظل شمعة مضيئة لإنها تكشف مدى تمسّك الإنسان العربي بتراب وطنه ، وانتمائه الجذري الذي لا يتزعزع للأرض التي أنجبته ، ولعروبة

هذه الأرض الطاهرة التي لن يتم التخلي عنها مهما حاول الغزاة على مر العصور أن يسلبوا هذه الأمة حقها التاريخي فيها ، ومهما أقاموا عليها ، ولو طال الزمن وناء ، فإنهم لا بد وأن يرحلوا عنها مكللين بالخزي والعار ، وسيبقى الإنسان العربي مغروساً في أعماق هذه الأرض التي جبلت بعرقه ودموعه ودمه ٠

د ٠ حسين جمعة

الانباط بعد زوال ملكهم السياسي
ـ في المصادر العربية الاسلامية * ـ

ان السؤال الكبير الذي تطرحه هذه الدراسة هو : ماذا أصاب الانباط ، أنباط البتراء أصحاب تلك الحضارة الاصلية والراقية ، وأصحاب ذلك الدور المميز والكبير في تاريخ العرب قبل الاسلام .

معلوم ان البتراء قد زهت منذ القرن الرابع ق. م. وبقيت كذلك الى ان استولى عليها الامبراطور الروماني تراجان عام ١٠٦م .

فمطمح هذه الدراسة ان تتحرى آثارهم ـ معتمدة على المصادر العربية الاسلامية ـ وتقف على أخبارهم في الفترة التي رافقت ظهور الاسلام ، وقيام الدولة العربية الاسلامية ، أي في الفترة التي نسيهم فيها الناس أو كادوا .

هذا وان كثيراً من المؤرخين والباحثين الذين تناولوا موضوع الانباط بالدرس والتمحيص والتنقيب يقفون في أكثر دراساتهم او لنقل في جلها عند مجئ الامبراطور تراجان وانتصاره عليهم وسقوط دولة الانباط في مطلع القرن الثاني للميلاد . صحيح ان هنالك دراسات جادة قد كتبت عن الانباط خاصة حول نقوشهم وخطوطهم ومختلف خواص حياتهم الحضارية ـ انظر قائمة المصادر والمراجع ـ وهذه الدراسات تعنى بهم في الوقت الذي انتشرت فيه المسيحية بينهم وحتى القرن الرابع الميلادي اذ اصبحت البتراء مركزاً للاستقفية واشتركت في كثير من المجامع الدينية خاصة مجمع

---

* بحث قدم لندوة آرام الاولى التي عقدت في جامعة اكسفورد تشرين اول سنة ١٩٨٩.

نيقوسيا(١)* كما ورد اسم أسقف البتراء في مجمع سارديس Sardis على بعد ٨٠كـــم شرقي أزميـــر حيث كان للبتراء دور بارز بهذا المجمع . أما آخر الوثائق التـــي وصلت الـــى أيدينـــا فهي الاشارة الى أن أحـــد اساقفة البتراء كان ابن اخ الامبـــراطور الروماني «موريس» الذي حكم بين ٥٨٢ _ ٦٠٢م(٢) .

أما معلوماتنـــا عن الانباط في فترة مجيئ العرب المسلمين فقليلة جداً وذلك يرجـــع بالدرجة الاولى الى أن الانباط بعد ذهاب دولتهم قد اختلطوا بغيرهم من سكان البلاد وذابوا بهم . وثانياً وبسبب من هذا الاندمـــاج فقد أخذ الانباط يذكرون تحت اسماء اخرى . ويبدو لي ان اكبر اندماج وقع لهم قبيل الاسلام هو اندماجهم بقبائل جذام، هذه القبائل التي نعرف جيداً ان امتدادها الجغرافي كان مطابقاً تقريباً لامتداد الانباط انفسهم وانهم نزلوا نفس الارض وحلوا في نفس المواقع . ونتصور انه قد قام بين جذام والانباط حلف على الطريقة العربية فانضم الانباط تحت راية جذام وحاربوا معهم بعد مجيئ الاسلام . ثم دخل الجميع أي جميع الاقوام العربية من الشام تحت لواء الاسلام ورايته(٣) .

---

* انظر القائمة الكاملة للمصادر والمراجع في آخر البحث .

قلنا ان الانباط قد ورثوا تلك المناطق التي كانت ذات يوم من مملكتي ايــــــدوم ومؤاب ، ودليلنا انه قد وجدت كسر كثيرة من الفخار النبطي في طول البلاد الايدومية ـ المؤآبية وعرضها ، تدل على ذلك الامتداد ، ولقد اكتشف الاثريون في جنـــــوب أرض شرق الاردن اليوم ، أكثر من خمسمائة مرقب وقلعة ، وقرية ، ودسكرة نبطية ، مما يشير الـــى عمران واسع وبخاصة بعد ان دخل النبطيون في دور الاستقرار الزراعـــــي والى هذا الدور يمكن ان ينسب الى الانباط العمل في مناجم النحـــاس والتعدين في وادي عربة وجمع النعدن من البحر الميت . ويقرر احسان عباس : " ولقد تمكنت سيطرة الانباط على ايدوم وموآب في القرن الرابع ق. م.(٤) .

هذا وقد شملت مملكة الانباط في أوج ايامها منطقة واسعة ضمت دمشق وسهل البقاع والاقسام الجنوبية والشرقية من فلسطين وحوران وادوم ومدين وسواحل البحر الاحمر ، وثبت أيضاً ان جماعة من النبط سكنت الاقسام الشرقية من دلتا النيل وقد تركت لنا عدداً من الكتابات(٥) .

ولما خسر الانباط ملكهم ودولتهم ، ثم خسروا ارضهم فيما بعد اضطرهم ضغط القبائل العربية الاخرى على الاندماج في القبائل الجديدة الفتية التي سادت على أرضهم وتسموا باسمهم وانتسبوا

اليهم حتى نسوا اصلهم القديم فزال الانباط وذهبت عصبيتهم وانحلت قواهم واختلطوا بأهل البلاد(٦) ونرجع إندماجهم بقبائل جذام .

أما ما يـــزيد المسألة غموضاً وارتباكاً ، هو ان المصادر العربية الاسلاميـــة تصمت عن ذكر الانباط بالاسم المحدد ذلك ان هذه المصادر العربيـــة انما تطلق اسم الانباط او النبط على جماعات من سكان الشام والعراق الذين ليسوا برعاة ولا جنود ... "فكل من لم يكن راعيـــاً او جندياً عند العرب من ساكني الارضين فهو نبطي "(٧) .

وفي العـــراق على التحديد فان كلمـــة نبطي يقصد بهـــا سكان العراق الاصليين _ الكلدان _ من الفلاحيـــن الذيـــن يتكلمون الارامية ، ومن سكان البطيحة حسب تعبير المقدسي(٨) ويوضح المسعودي فيقول : "والسريانيون وهم النبط" ......

وملوك الامم من النماردة وهم ملوك السريانيين الذين تسميهم العرب النبط(٩) . اذن فهناك ارتباط وثيق بين النبط والفلاحة وفي ذلك يقول ابن القرية : " والنبط انما سموا نبطا لاستنباطهم ما يخرج من الارضين"(١٠) ويقول الخطيب البغدادي "ان النبط هم الذين استنبطوا الارض وعمروا السواد وحفروا الانهار العظام فيـه(١١) ويفهم من كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ان النبط هم جمهرة الفلاحين والزراع .

وآكبر الظن ان من اطلق عليهم اسم نبط او نبيط من سكان الشام الاصليين كانوا يشتملون على عناصر من أنباط بتراء ، هذه العناصر التي ذابت او ظهرت داخل المجموعة الكبيرة من اولئك السكان . فكما يقول احسان عباس لعل هذا نفسه احد الاسباب التي ادت الى جهل العرب بأنباط بتراء وبدولتهم(١٢) او لنقل عن عدم ذكرهم باسم محدد .

ولكن رغم هذا الغموض كله فهناك اشارات في المصادر العربية تشير للانباط اصحاب البتراء والمناطق المحيطة بها والاماكن التي عاش فيها الانباط . هذه الاشارات نجدها مبثوثة هنا وهناك يستطيع القارئ ومن السياق ان يردها وبكثير من الاطمئنان الى الانباط وكذلك الى الفلاحين من أهل الشام الاصليين الذين سكنوا نفس الديار التي عاش فيها وتفاعل معها انباط البتراء . ومن هذه الإشارات نسوق ما يلي :

ففي كتاب المغازي ، وهو من أقدم كتب الفتوح التي بين ايدينا يذكر الواقدي أثناء حديثه عن غزوة تبوك : "كانت الساقطة*" وهم الانباط يقدمون المدينة بالدرمك والزيت في الجاهلية ، وبعد ان دخل الاسلام فانما كانت اخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الانباط(١٣) .

---

* جاء في لسان العرب لابن منظور (١٦٤ _ ١٦٥) وجـ : ٧ ص ٤١١ _ ٤١٢ .

"ان السواقط الذين يردون اليمامة لامتيار التمر . واسقاط جمع الساقط ما يحملونه من التمر . وجاء ايضاً تسقطت الخبر اذا اخذته قليلاً قليلا شيئاً بعد شئ ومن هنا ان الساقطة هم اناس يعملون اما في التجارة او في تسقط الاخبار . وكلا المعنيين ينطبق كل منهما على الانباط .

نستنتج ممـــا سبق ان الانباط بقوا على صلتهم التجارية مع يثرب (المدينة المنورة) وان هـــذه الصلة استمرت مع مجيء الاسلام . والذي لا شك فيه ان الانباط العـــرب كانوا حاقدين علـــى الروم وبالتالي علـــى البيزنطيين الذين قضوا على سلطانهم ، وهـــم يرون باخوانهم عرب الجزيرة منقذين لهم فأخذوا وبسرعة يتحسسون قوة الاسلام الصاعـــدة فعملوا على مساعدة المسلمين والتجسس لهم على عدوهم . ويظهر لنـــا ان الانباط أخذوا يلاقون الصعوبات والشدائد والمضايقات نتيجة لاستمرار علاقتهم مع يثرب وعرب الحجاز ، فيذكر الواقدي انه بدومة الجندل كان الانباط (التجار) يظلمون فيقول : "وانهم (حكام دومة الجندل) يظلمون من مر بهم من الضافطة وكان بها (دومة الجندل) سوق عظيم وتجار ، وضوى اليهم قوم من العرب كثير . وهم يريدون ان يدنوا المدينة . والضافطة هنا ـ جمع ضافط وهو الذي يجلب الميرة والمتاع الى المدن والمكارى الذين يكرى الاحمال . وكانوا يومئذ قوماً من الانباط يحملون الى المدينة الدقيق والزيت(١٤) .

وأما ابن عساكر فيروى الامر على الوجه التالي : "كانت الضافطة ـ في القاموس أرذل الناس ـ وهم الانباط يقدمون المدينة الدرمك ـ كجعفر دقيق الحوارى ـ والزيت في الجاهلية ، وبعد ان دخل الاسلام ، فانما كانت اخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الانباط ، فقدمت منهم قادمة فذكروا ان الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام وان هرقل قد رزق اصحابه لسنة وجلبت معه لخْم وجذام وغسان وعامله ، وزحفوا وقدموا مقدماتهم الى البلقاء وعسكروا بها وتخلف هرقل بحمص ... ولم يكن عدو اخوف

عنـــد المسلمين منهـــم وذلك لمـــا عانوا منهـــم ، اذ كانـــوا يقدمـــون عليهم تجـــارا ، من العدد والقوة والكراع(١٥) .

فمن هنا نرى ان الانباط بقوا كسابق عهدهم يواصلون تجارتهم مع المدينة وفي ظل الاسلام ، ولكن يظهر ان هذا لم يرق للبيزنطيين، فأوعز البيزنطيون لحاكم دومة الجندل ان يضايقهم ، ويؤكد هذه الفرضية ما جاء عند المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف : " وكان صاحبها (دومة الجندل) أكيدر بن عبدالله الكندي يدين بالنصرانية ، وهو في طاعة هرقل ملك الروم . وكان يعترض سفر المدينة وتجارهم(١٦) . ولا شك ان بين سفر المدينة كان الانباط ، الذين كانت لهم سوق بالمدينة ومما يؤكد ذلك ان ابن سعد في كتابه : "الطبقات الكبرى" يذكر في حديثه عن هاشم بن عبد مناف جد الرسول الكريم يذكر ان هاشماً كان يمر على سوق للانباط تقام في يثرب ... " كـــان اسم هاشم عمرا وكان صاحب ايلاف قريش ... وكان رجلا شريفـــا وهو الذي أخذ الحلف لقريش من قيصر لان تختلف آمنه .... فخـــرج هاشم في عيـــر لقريش فيها تجـــارات ، وكان طريقهم على المدينة فنزلوا بسوق النبط فصادفوا ســـوقاً تقوم بها في السنة يحشدون لها . فباعوا واشتروا "(١٧) .

ويورد محمـــد كرد علي نفس الخبر في كتابه خطط الشام فيقول : " كانت اخبـــار الشام عند أهل المدينة كل يوم لكثرة من يرد عليهم من الانباط _ فقد كان الانبـــاط كثيراً ما يقدمون الـــى المدينة في الجاهلية والاسلام يحملون الزيت والدرمك "(١٨) .

ولـــــم يقتصر الامر على المدينة المنورة ، بل يجب التأكيد على ابراز العلاقة ما بين مكة والبتراء ايضاً اي ما بين قريش والانباط قبل الاسلام فهذه العلاقة نراها اقوى بكثير مما هو شائع ، خاصة منذ برزت فعالية مكة وتقدمت في تجاراتها بعد ركود الحيرة وتراجعها. جاء في كتاب السيرة النبوية : قال ابن اسحق : "وحدثت ان قريشاً وجدوا في الركن (الكعبة) كتاباً (كتابة) بالسريانية فلم يدروا ما هو ، حتى قرأه من يهود فاذا هو _ انا الله ذو بكه (مكه)(١٩) .

فاذا صحت هذه الرواية فازعم ان هذه الكتابة تمت على يد الانباط الذين يغشون مكة والذين كانوا يكتبون نقوشهم بالارامية (السريانية) فلقد استعمل الانباط الخط الارامي المشتق من الفينيقي في الكتابات الرسمية ولكنهم فيما يبدو حوروه وصقلوه تدريجياً ، حتى أصبح خطاً قائماً بذاته ومنه انحدر الخط العربي الكوفي والراجح كذلك ان الطبقات العليا في مجتمع الانباط وضمنه كثير من التجار كان يعرف الاغريقية واللاتينية .

تروي المصادر العربية قصة او لنقل اسطورة عمرو بن لحي وكيف خرج من مكة الى الشام في بعض اموره فلما قدم مؤاب من أرض البلقاء وبها يومئذٍ العماليق ، رآهـــــم يعبدون الاصنام ، فسألهم عنها فأجابوه : "هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا فسألهم ان يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبــة _ خاصة صنم هبل(٢٠) . الارجح ان هؤلاء القوم العماليق ، هم الانباط . بـــــل ان صالــــح العلي في كتابه (محاضرات في تـــــاريخ العــــرب(٢١) يذكـــــرهم بالاسم الانباط " ان عمرو بن لحي جاء بالاصنام من الانباط " وهذا يظهر

مـدى اعتقـاد الناس بأثر الانبـاط في عبادة مكة عند ظهور الاسلام . وحتـى كلمة حنيف التـي كانت تطلق علـى المؤمنيـن الموحـدين من العـرب في الحجـاز قبل ان يُبعث الرسول الكريم انمـا هي كلمة لهـا أصولها الارامية النبطية .

وزائر البتراء يشاهد عند مدخلها معبد الاسد المجنح الذي اكتشف مؤخراً وهو معبد قائم على شكل الكعبة ، وهذا مؤشر على العلاقة المتينة الروحية والاجتماعية التي كانت قائمة ما بين مكة والبتراء وكذلك معبد خربة التنور الشبيه بالكعبة الواقع قريباً في وادي الحسا .

وحتى في الفترة الاسلامية يذكر الازرقي : "ان معاوية بن أبي سفيان قد استخدم مجموعات من رقيق النبط في بنـاء دوره بمكة . واطلق على المنطقة التي كانوا يعملون بها _ اضـأة النبـط(٢٢) . وليست بغير دلالـة هذه الاسماء الكثيرة التي تطلق على البتراء وما حولها علـى المناطق من حول المدينة وفي شمال الحجاز والتي تذكرها المصـادر التاريخية العربية والمعاجـم الجغرافيـة . وأقف هنا عند بعضها فسلع اسم اطلق على حصن بوادي موسى ويقصد بـه البتـراء نفسها ، كمـا اطلق هـذا الاسم علـى موضع بقرب المدينة(٢٣) ، وجاء في كتاب السيرة(٢٤) : " أقمنـا ثلاثاً بين سلع وفارع (سلـع فارع اسم لجبليـن) وخرج رسول الله (ص) والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سلع في ثلاثـة آلاف من المسلمين ، فضرب هنالك عساكره والخندق بينه وبين القوم(٢٥) . وجـاء أيضاً في السيرة : "وكانت مساجد رسول الله فيما بين

المدينة الى تبوك معلومة مسماه : مسجد تبوك ، ومسجد بطرف البتراء ومسجد بالشق اليسره "(٢٦) .

ذكر صاحب السيرة شعراً لكعب بن مالك في يوم الخندق يصف فيه الانباط وسلع وصفاً ينطبق على ما تناقل عن الانباط وحضارتهم أنقل منه الابيات التالية :

الا أبلغ قريشا أن سلعـــا وما بين العريض الى العمـــاد
نواضح في الحروب مدريـات وخوص ثقبت من عهد عــــاد
ولم نجعل تجارتنا اشتـــراء الحمير لارض دوس أو مـــراد
بلاد لم تثر الا لكيمـــا نجـالد ان نشطتم للجـــلاد
أثرنا سكة الانبـــاط فيهـا فلم تر مثلها جلهـــات واد(٢٧)

وجاء في معجم البلدان عن الاصمعي قال :

غنـــت حبابــــه جارية يزيد بن عبدالملك ، وكانت من أحسن الناس وجها ومسموعاً وكـــان شديد الكلف بها ، وكان منشؤها المدينة :

لعمرك انني لاحـــب سلعا لرؤيته ومن أكناف سلـــع
تقر بقربـه عينـــي وانـــي لاخشى أن يكون يريد فجعـــي

ـ والشعر لقيس بن ذريح ـ

ثم تنفست الصعداء ، فقال لها : لم تتنفسين ؟ والله لو اردته لقلعته اليك حجرا ، حجرا فقالت : وما أصنع به انما اردت ساكنيه(٢٨) .

اما الامر المهم والكبير فهو ما نلمسه من فعاليات الانباط ودورهم أثناء الفتوحات الاسلامية الكبرى فهذا ابن أعثم الكوفي يذكر في كتابه "الفتوح" : ما يلي : "أقبل ابو عبيدة على خالد بن الوليد (رض) فقال له : أبا سليمان هذا كتاب عمرو بن العاص قد

ورد علينـــا يخبر ان الروم قد اجتمعوا بأرض فلسطين في ثمانين ألفا وهؤلاء جواسيسنا من أنباط الشام قد جاءوا الي اخبروني ان أهل بعلبك في عشرين الفا فما الرأي عندك(٢٩) وفي موضع اخر يذكر الكوفي انه : "لما عزم ابو عبيدة على حرب الروم ومناجزتهم دعا فيجا سريعا من انباط الشام وقال له : "انظر اذا دفعت اليك كتابي هذا فأسرع حتى تأتي أميــــر المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فادفعه اليـــه ...... فمضى الفيج يسير سيراً عنيفاً حتى قدم على عمر بن الخطاب وبعـــــد ان تداول الحديث معـــه أعجب الخلية بفطانة النبطي ورجاحة عقله فيعرض عليه الاسلام _ وكان نصرانياً _ فيقبل ويسلم على يد الخليفة ، ثـم ان عمر بن الخطاب بره وكساه وأحسن اليه وزوده وكتب معه الى أبي عبيدة بن الجراح(٣٠) .

ولا بد لنا من وقفة مع الانباط اهل بيت المقدس ، أثناء فتحها ، ففي أيام عمر بن الخطاب وذلك قبيل فتح ايلياء _ بيت المقدس _ ينقل لنا عبدالمنعم الحميري _ عمن سبقه _ اذ هو من الكتاب المتأخرين في موسوعته الجغرافية التاريخية "الروض المعطار" ينقل خبراً طريفا ومهما مفاده ، أنه بعد ان تم الاتفاق ما بين أهل بيت المقدس وابي عبيدة بن الجراح قائد العرب المسلمين على ان يتم تسليم مفاتيح المدينة المقدسة الى الخليفة نفسه ويأتي عمر بن الخطاب الى بيت المقدس لهذا الغرض وقد تم كتابة عقد الصلح الذي سلم الى بطريرك المدينة صفرنيوس ، وعرف هذا العقد فيما بعد "بالعهده العمرية" وهو محفوظ (بعد اضافات) حتى الآن في البطريركية الاوروشليمية للروم الارثوذكس. وذكر الحميري ما يلي: وكتب عمر رضي الله عنه اليه (للبطريرك) كتابا أمنهم فيه على

أنفسهم وذراريهـــم ونسائهم وكنائسهم ، واشترطـــوا ان لا يساكنهم اليهود فيها ، فلما قبضوا كتاب الصلح فتحوا للمسلمين ابواب ايليا فدخل عمر (رض) والمسلمون معه وسخّر عمر انباط أهل فلسطين في كنس بيت المقدس (مكان الصخرة) وكانت مزبله عظيمة(٣١) .

فمن هذا النص المهم نتعرف اولاً : ان أهل فلسطين آنذاك كانوا الانباط العرب او هم على الاقل يشكلون نسبة كبيرة من سكان فلسطين ، وثانياً : ان اهل بيت المقدس انفسهم بقيادة البطريرك قد اشترطوا على العرب المسلمين ان لا يساكنهم في مدينتهم يهود . ومن هذا نفهم ان المدينة في ذلك الوقت كانت خالية من اليهود ولا يحب أهلها ان يعود اليهود اليها منذ طردهم الرومان خاصة بعد أيام تيطس سنة ٧٠ للميلاد _ وهذا الامر صحيح انه هام ولكنه خارج موضوع بحثنا .

فمن النصوص التي سقناها وغيرها نتحسس ان الانباط كان عددهم كبيرا وانهم كانوا منتشرين في البلاد الشامية خاصة الاجزاء الجنوبية وانهم اهل فلاحة وزرع فيذكر الحميري : "ان بين سكان بيسان الانباط"(٣٢) . ونزل ملطيه "قوم من الارمن والنبط"(٣٣) . ويحلل اليعقوبي سكان البلاد الشامية فيما يقوله : "حوران مدينتها بصرى واهلها قوم من قيس من بني مره خلا السويداء ... وعمان وأريحا وأهلها من غسان وجبل الجليل وأهلها قوم من عامله ..... وعكا وقدس وبيسان وفحل وجرش والسواد وأهل هذه الكور أخلاط من العرب العجم (النبط) وأهل الرملة أخلاط من الناس من العرب والعجم وذمتها سامره ونابلس وفيها اخلاط من العرب والعجم .... وكورة بيت جبرين واهلها قوم من جذام ...."(٣٤) . ويعلق شاكر

مصطفى ان المقصود بالعجـــــم سكان البلاد الاولين وقد يسمون النبط(٣٥) . كما عاش فرع آخـــــــر من الانبـــــاط في تدمر ، وكان علـــــى ابواب حصن الزبا بوابون من النبـــــــط(٣٦) .

وفي تل في الجزيـــــرة (الفراتية) يذكر الحميري ايضاً تل كبيرة أهلها انباط وبها سوق عظيمة وهي كثيرة الكروم والزروع"(٣٧) .

كما ونقرأ عند ابن عساكر ان الخليفة عمر بن الخطاب قد "اشترط على أنباط الشام للمسلمين ان يصيبوا من ثمارهم وتبتهم ولا يحملوا(٣٨) .

ونلمس حضوراً للانبـــــاط في الاحداث الكبرى التي جرت للعالم الاسلامي وأبرزها الفتنــــــة الكبرى ، فجاء في كتاب أنساب الاشراف ان المدائني قال : "كتبت نائلـــــة بنت الفرافصة امرأة عثمان الى معاوية كتاباً تخبره بامر عثمان ومقتـــــله ... وان فيمن حصره خزاعة وهذيلا(٣٩) وطوائف من جهينه ومزينه وانباط يثرب ، وبعثت بقميصه اليه...." وبعد ان يذكر صاحب الاغاني هذه الجماعات نفسها ـ مزينه وجهينه وانباط يثرب ، والتي هاجمت الخليفة عثمان يزيد فيقول: "وكانوا أشد الناس عليه في أول أمره واخره"(٤٠) .

من هنـــــا نرى ان بعض الانبـــــاط بقي في المدينة المنورة كما كانوا في ايام الجاهليـــــة كذلك في الاسلام ، وان القول بانه كانت لهم سوق في المدينة المنورة (يثرب) قول فيه كثير من الصحة .

لقد ضم الجيش الاموي جماعات عدة في صفوفه من أهل البلاد ونلمح ذلك خاصة منذ بداية الفترة المروانية حيث ان عناصر عدة قد دخلت في الجيش الاموي من الموالي وغيرهم وتؤكد بعض الروايات هذا الاتجاه فيذكر المدائني انه لما قال المنذر بن الزبير لاخيه عبدالله بن الزبير في قتاله الجيش الشامي (اني لهيّن عليك تعرضني لانباط الشام "(٤١) .

وقال الاحنف بن قيس يصف جيش اهل الشام ايام استعداد مصعب بن الزبير لقتالهم : " انباط الشام وأقباط مصر " . وان الصفة نفسها يذكرها الطبري عن جيش الشام الذي سبق وان دخل المدينة واستباحها ايام يزيد بن معاوية سنة ٦١هـ /٦٨٣م وذلك بعد معركة الحرة حيث يقول فيهم : "أقباط وأنباط"(٤٢) .

سبق وقلنا ان الانباط قد امتزجوا بجذام ، وصاروا ضمن أهل الشام هم أنباط القرى مع غيرهم من السكان الاصليين بل أكثر من ذلك نلمس في أيام الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) أنهم التقوا مع الجراجمة من سكان اللكام في لبنان ، فنقرأ عند ابن الأثير ما يلي : " لما امتنع عمرو بن سعيد الاموي (الاشدق) على عبدالملك بن مروان ، خرج أيضاً قائد قواد الضواحي ففي جبل اللكام ، وأتبعه خلق كثير من الجراجمة والانباط واباق عبيد المسلمين وغيرهم فلما فرغ عبدالملك من عمرو .... قاتلهم عبدالملك بقيادة شحيم بن المهاجر وقتل نفراً من الجراجمة والانباط ونادى المنادي بالامان فيمن بقي فتفرقوا في قراهم(٤٣) .

وفـــي اوائل خلافة عبدالملك بن مروان أيضاً حين انصرف الى مقاتلة منافسة فـــي الخلافة عبدالله بن الزبير في الحجاز وأخيه مصعب _ عامل عبدالله علـــى العراق _ في هذه الفترة الحرجة من حياة عبدالملك والدولة الاموية ، طمع امبراطور البيزنطيين في أرض المسلمين وتحرش بهم ... ويظهر ان الجراجمة ومعهم نفر من الانباط ساعدوه . فلما انتصر عبدالملك على الروم نادى بالامان ... فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع أكثرهم الى مدينتهم باللكام واتى الانباط قراهم ورجع العبيد الى مواليهم(٤٤) .

وفي فترة لاحقة من أيـــام الامويين وأثنـــاء خلافـــة يزيد بن عبدالملك (٧٢٠ _ ٧٢٤م) يصف الكوفي جنـــد الشام وذلك علـــى لسان يزيد بن المهلب الازدي الثائر على الخليفة الاموي يزيد واخيـــه مسلمه بن عبدالملك فيقول : والله ما هم (جند الشام) الاسبعة أسيـــاف خمسة منها لي واثنان علي ، وانما اقام مسلمة .. في برابرة واقبـــاط وجرامقة وانباط وجراجمة واخلاط ...... زراعون وفلاحون اوباش فـــلا يهولنكم امره "(٤٥) .

ونحن اذ نغض الطرف عن تحامل ابن اعثم الكوفي على بني امية وذلك بسبب تشيعه الشديد ، انما نعلم من هذا النص ان الانباط هم جماعة في جند الشام يذودون عنه وهم فلاحون يملكون الارض ... فلما اخذ العرب المسلمون في شراء وامتلاك الاراضي منذ بداية الدولة الاموية واخذت هذه الأراضي تتجمع في ايدي كبار الملاكين من ابناء بني امية ورجال الدولة الكبار وقواد الجيش نرى ان

الخليفة عمر بن عبد العزيز اخذ يحاول ان يحل هذه الظاهرة فعمل على منع بيوع الاراضي والعمل على ابقائها في ايدي الفلاحين العاملين فيها . فنراه يرد ارضاً باعها نبطي لمسلم فيرد الارض الى النبطي ، ويأخذ المال ثمنها ويضعه في بيت المال(٤٦) . وسيان ان كان هذا النبطي الفلاح يعود اصله الى انباط بتراء او من نسل السكان الاصليين . اذ كما ذكرنا ـ بات من الصعب التمييز ما بين كلمة النبط والانباط في بلاد الشام . سيما ونلمح ان الاراميين الذين سكنوا في الجنوب من هجر وغيرها وعملوا في الزراعة سموا هم كذلك بالانباط ، والانباط انفسهم شملتهم اسماء اخرى ...

هذا وجدير بالذكر ان الاجتهادات والنظريات التي اخذت تبحث في امر الامامة والخلافة تعرضت أيضاً لذكر النبط والانباط واحقيتهم في تولي الخلافة كونهم اصبحوا مسلمين ، فيذكر الشهرستاني في كتابه الملل والنحل : "من المرجئة فرقة تسمى الضرارية ـ أصحاب ضرار بن عمرو ـ تتميز بأن بين مبادئها مبدأ يقول ان الامامة تصلح في غير قريش حتى اذا اجتمع قرشي ونبطي قدمنا النبطي اذ هو أقل عدداً واضعف وسيلة فيمكننا خلعه اذا خالف الشريعة " ... والمعتزلة وان جوزوا الامامة في غير قريش لا يجوزون تقديم النبطي "(٤٧) .

وفي هذا المعنى يذكر ابن الجوزي : " ان من رأي الخوارج ان لا تختص الامامة بشخص الا ان يجتمع فيه العلم والزهد فاذا اجتمعا كان اماماً ولو كان نبطيا"(٤٨) .

خلاصة القول نرى ان الانباط هـــــذا الشعب العربي العريق صاحب اجمل وازكى حضارة عربية أصيلـــــة قبل الاسلام . نرى هذا الشعب في حياة الرسول الكريم ومعظم أيــــام الخلفاء الراشدين يواصلون تجارتهم وعلاقتهم مع المدينة المنـــورة وانهم كانوا ينقلون للمسلمين اخبار العدو البيزنطي وتحركاته ، وواصلـــوا ذلك اثناء الفتوحات الكبرى فكان فيهم جواسيس وعيـــون لجيش المسلمين بل أكثر من ذلك نزعم انهم بعد معركة اليرموك ينظمون مع جـــــذام وتحت لوائها واسمها مع غيرهم من عرب الشام ينضمون الى جيش المسلمين يحاربون مع اخوانهم العرب ، أما في الفترة الاموية فنراهم وقد اسلموا يمارسون كالسابق الفلاحة والتجارة فهم ابناء قرى يعملون في الأرض والزراعة وفي بناء المدن والقرى في الدولة العربية الاسلامية الجديدة مثل اذرح . والحميمه وايله والطفيلة ومعان وبيسان وغزة وغيرها الكثير .

كما نجد منهم جماعـــــات في جيش الشام يحارب حربه ويشارك في معاركه . وبكلمة لقـــد اندمج الانبـــاط مع جذام في جملة سكان الشام واصبح مصيرهم واحد فذابوا في هذا الكيان الكبير .

اما عن أرض البتـــــراء ، ففي العصور اللاحقة فنعلـــم انــــه بنيت قلعة خارج البتراء اثناء الحروب الصليبية كما ونجـــــد وصفاً للبتـــــراء من أيام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس . ويذكـــــر كذلك انــــــه كان في دمشق في القرن السادس عشر ميـــــلادي . حي كامل يسمى حي الانباط(٤٩) . ويذكـــر حتي ان عشائر الحويطـــات هم من نسل الانبـــاط(٥٠)

وربما ان سكان البتراء الحاليين "البدول" هم كذلك من نسل الانباط ويتحدث الارادنة انه بجانب الحويطات فان بني عطية وبني عباد وبني حميدة وغيرهم من سكان الطفيلة وما حولها هم من نسل الانباط وجذام . وحتى الآن يقال للشعر الشعبي العامي في نجد بانه الشعر "النبطي" .

أبرز المراجع والمصادر

لمراجع والمصادر العربية :

(١) J.S. Trimingham Christianity .... P. 105.

(٢) أحمد فخري ، إتجاهات في دراسة تاريخ الانباط .... _ مجلة كلية لأداب _ المجلد ١ . عمان ١٩٦٩ ، ص ٣٠ _ ٣١ .

(٣) صالح الحمارنة ، دور جذام ، مجلة دراسات تاريخية ، دمشق ، عدد ١_٢٢ ، تموز ١٩٨٥ . ص ١٤٩ وما بعدها .

(٤) إحسان عباس ، تاريخ دولة الانباط ، ص ٧٥ _ ٧٦ +
Glueck. p. 154, 173.

(٥) أعمال الرسل . إصحاح ٢ ، عدد ١١ ، كورنيش ١١ : ٣٢ ، جواد علي ، لمفصل ، جـ ٣ : ص ١٥ .

(٦) جورجي زيدان ، التمدن الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٣١م ، جـ ٥ ، ص ١٢ .

(٧) ياقوت ، معجم ، جـ ٣ : ص ٦٣٤ . الجاحظ ، البيان ، جـ ٢ ص ١٤٨ .

(٨) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٠٨ .

(٩) المسعودي ، التنبيه ، ص ٣١ _ ٣٦ .

(١٠) ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ٧ ، ص ٤١١ _ ٤١٢ .

(١١) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ ١ ، ص ٥٧ ، المسعودي ، لتنبيه ، ص ٧٨ .

(١٢) إحسان عباس ، ص ١٧ .

(١٣) الواقدي ، المغازي ، جـ ٣ ، ص ٩٨٩ .

(١٤) الواقدي ، جـ ، ص ٤٠٣ « ١٩٨٩ » . ابن كثير ، البداية ، جـ ١ ، ں ٢٢ _ ٢٣ .

(١٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١ ، ص ٤١٣ .

(١٦) المسعودي ، ص ٢٤٨ .

(١٧) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ ١ ، ص ٧٨ .

(١٨) محمد كرد علي ، خطط الشام ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(١٩) ابن هشام ، السيرة النبوية ، القسم الاول ، ص ١٩٦ .

(٢٠) ابن هشام ، جـ ١ ، ص ٧٩ .

(٢١) صالح العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ص ٤٤ .

(٢٢) الازرقي ، أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ٤٩٦ .
(٢٣) ياقوت ، جـ ٣ ، ص ٢٣٦ _ ٢٣٧ .
(٢٤) ابن هشام ، جـ ، ص ٢١٢ .
(٢٥) ابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٢٢٠ .
(٢٦) ابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٥٣١ .
(٢٧) ابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٢٦٣ .
(٢٨) ياقوت ، جـ ٣ ، ص ٢٣٧ .
(٢٩) الكوفي ، الفتوح ، جـ ١ ، ص ١٧٥ ، ١٨٧ .
(٣٠) الكوفي ، جـ ١ ، ص ١٨٧ _ ١٨٩ .
(٣١) الحميري ، الروض المعطار ، ص ٦٨ _ ٦٩ .
(٣٢) الحميري ، ص ١٢٠ .
(٣٣) الحميري ، ص ٥٤٥ .
(٣٤) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٩ _ ٣٣٠ .
(٣٥) شاكر مصطفى ، العرب والاسلام في فلسطين ، ص ٧٨ عن كتاب القضية الفلسطينية جامعة الموصل ١٩٨٣م .
(٣٦) جواد علي ، جـ ٣ ، ص ١٤ ، الحميري ، ص ٤٣١ .
(٣٧) الحميري ، ص ١٣٤ .
(٣٨) ابن عساكر ، جـ ١ ، ص ٥٧٤ .
(٣٩) البلاذري، أنساب الاشراف، تحقيق إحسان عباس ببيروت١٩٧٩،ص٥٩٣.
(٤٠) الأصفهاني، الاغاني، وزارة الثقافة المصرية، القاهرة، جـ ١٦،ص٣٢٥_٣٢٦.
(٤١) البلاذري ، ص ٣٤٣ .
(٤٢) الطبري ، تاريخ ، جـ ٦ ، ص ٥٨٨ .
(٤٣) ابن الأثير ، الكامل بيروت ١٩٦١م ، جـ ٤ ، ص ٢٥٠ _ ٢٥١ .
(٤٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢١٨ وما بعدها ، محمد كرد علي ، جـ ١ ، ص ١١٩_١٢١.
(٤٥) الكوفي، جـ٨، ص١٥، الجاحظ، جـ١،ص٢٩٢، العيون والحدائق،جـ٣،ص٧٠.
(٤٦) ابن عساكر ، جـ ١ ، ص ٥٨٧ .
(٤٧) الشهرستاني ، الملل ، .... القاهرة ١٩٦١م ، جـ ١ ، ص ٨٦ _ ٩١ .
(٤٨) ابن الجوزي ، تلبيس ابليس ، القاهرة ١٩٢٨م ، ص ٩٦ .
(٤٩) جان ستاركي ، حولية الآثار ، رقم ١٥ ، ١٩٧٠م ، ص ١١ .
(٥٠) فيليب حتي_ تاريخ العرب _ بيروت ١٩٦٥م ، ص ٩ .

(٢) المراجع الانجليزية :

1. Glueck, Nelson. The Other Side of the Jordan, New Haven, American Schools of Oriental Research, 1940 .

2. Glueck, Nelson. The Story of the Nabataeans, Deities and Dolphins, London 1966 .

3. Hammond, Philip C. The Nabataeans - Their History, Culture and Archaeology, Sweden, 1973 .

4. Trimingham, J.S. Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times, Longman Groups Limited and Librairie du Liban, 1970 .

5. Hammond, Philip C. The Excavations at Petra, 1974; Cultural Aspects of Nabataean Architecture, Religion, Art and Influence, SHAJ (AMMAN 1982) pp. 231-238 .

6. Starcky, Jean : The Nabataeans, A Historical Sketch, BA XVIII, New Haven (1955) pp. 84-106 .

دور جذام في الفتوح الإسلامية*

ان دور جـــــذام في الفتوح الاسلامية يماثل الى درجة بعيدة دور بقية القبائل العربيـــة التي كانت تسكن الديار الشامية ، خاصة الاجزاء الجنوبية منها ، في الفتــــرة التي سبقت الفتح .. بيد ان لجذام خصوصيتها . وقبــــل ان ندخل في تفصيل ذلك يجدر بنا ان نحدد قدر المستطاع مساكن جـــــذام ومنازلها آنذاك .

كانت جذام قبيل الفتح تنزل المناطق فيما بين الحجاز والشام ومصر وكانت جموعها المتعددة منتشرة على مساحة شاسعة من أرض العرب تمتد من الحدود الشمالية لوادي القرى _ في المساحة من تبوك في الحجاز شمالاً بامتداد الشمال الشرقي من وادي عربة حتى البحر الميت الى البلقاء ، حول مدينة عمان ، ثم الى الجنوب الغربي الى غزة جنوب فلسطين(١) . بالقرب من تبوك يرتفع جبل حسمى الذي يعتبر جبل جذام .

وجاء في تاج العروس جذام من اليمن تنزل بجبال حسمى وراء وادي القرى**(٢) ، ومن ابرز منازل جذام مَدين ، وكما يذكر البكري «ومدين منازل جذام ، بلد الشام معلوم تلقاء غزة»(٣) ويقول ابن خلدون .

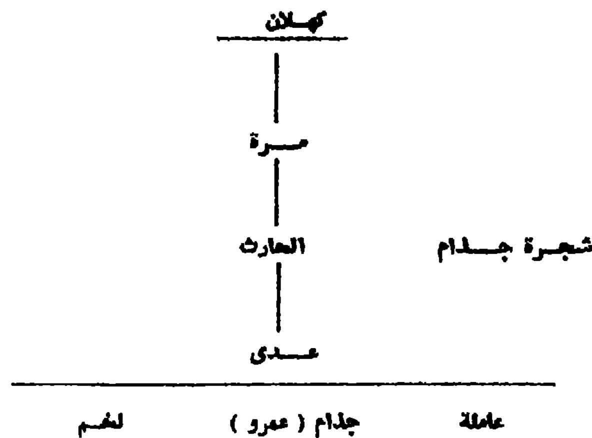
---

* أعد هذا البحث للندوة الثانية للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، الجامعة الاردنية ، ١٦ _ ٢٢ آذار ١٩٨٥ . ونشر في مجلة دراسات تاريخية عدد ١٩ ، تموز ١٩٨٥ دمشق .

** ومنطقة حِسمى تقع في الاردن اليوم في الجنوب من مدينة معان من رأس النقب الى الجنوب حيث موقع القويرة وما جاورها .

ونزلت جذام من حدود ايله الى ينبع محاذية للساحل(٤) ،
نت لهم رئاسة في معان وما حولها من أرض الشام(٥) .
اذن فبنو جذام قد امتدت مساكنهم من شمال الحجاز ، وكان
لهم حسمى ومن مراكزهم معان ، والبلقاء ، والى ايلة وجنوب
طين حتى سيناء الى حد الفرما ، ومن خلف الفرما الى مصر ،
ـــول الهمذاني « .. ما تياسر نحو البحر من بلد القبط فهو
ني »(٦) ، وتذكر المصادر كثيراً ان بني جذام ، نزلوا غزة وبعض
م في بيت جبرين والعريش ، وبعض ما بين طبرية من أرض
ـدن الى اللجون واليامون * ، وناحية عكا(٧) .
مما سبق نرى ان منازل جذام تقع في وسط الطرق التجارية
رق القوافل وطرق الحج ما بين مصر والشام والحجاز . فكانت
وافل تمر في ديارهم ويتولى رجالها حراستها وجباية الرسوم
لمكوس من التجار الذين يجتازونها (وكان عمر بن الخطاب في
جاهلية قد مر تاجراً بهم ودفع العشر)(٨) .

* اليامون : قرية تقع الى الشمال الغربي من جنين على مسيرة تسع كيلو مترات
ا . مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، القسم الاول ، الجزء الاول ، ص ٧٠٩ .



يضاف الى ذلك وجود مراع لابلهم وجذام من أكثر العرب ابلا(٩) ، بل يبدو لنا ان أقساماً منهم كانت تمارس الزراعة من سكان القرى والحواضر الكثيرة ..

بنو جذام في الواقع تكوّن مؤتلف قبائل ، وحسب تعبير ابن خلدون «بطن متسع له شعوب كثيرة »(١٠) وجذام هي المهيمنة . وأما العرب الذين كانوا في معادن الخصب .. للمراعي والعيش .. مثل لخم وجذام وغسان وطي وقضاعة واياد ، فأختلف انسابهم وتداخلت شعوبهم(١١) وهناك «بطون ثلاث يقال لهم الاحلاف من جميع قبائل العرب من كنده ولخم وجذام وعبد قيس» وأما جذام واسمه عمرو بن عدي اخو لخم بن عدي وعاملة بن عدي (انظر الشجرة) فبطن متسع له شعوب كثيرة(١٢) .

لست هنا بصدد ذكر ما قاله النسابون من أن جذام من مضر وانهم انتقلوا الى اليمن في الايام الخالية ، لكني مع الرأي الغالب عند النسابين ان جذام من اليمانية(١٣) .

بل انني أريـــد ان أذهب أبعد من ذلك أقول _ مستطرداً _ ان جذام وهي بطون كثيـــرة أو بالاصح بطن متسع له شعوب كثيرة ، انما تتكون في مجموعهـــا من مؤتلف قبائل ، سكنت نفس المواطن تقريباً _ مع اختلافات بسيطـــة _ التـــي سكنها من قبل المديانيون ، والادميون _ (في جزء بسيط) وخاصة الانبـــاط ومن جاء بعدهم أهل ثمود .. التي كانت منازلها في حِسمى ، فلمـــا هلكت ثمود انتقل ملكهم الى قوم آخرين ، آخـــر من نعـــرف منهم «جذام» الذين كانـــوا ينزلون فـــي حسمي عند ظهور الاسلام ، وهم في زعم الاخباريـــين ابناء جذام شقيق عاملة ولخم(١٤) .

وازعم ان هذه الشعوب شعوب ارومية Autochton قد ذابت بعضها ببعض واندمجت وظهرت لنا بالتالي باسم جذام وقد هيمن هذا الاسم الذي حملته القبائل العربية الخارجة من الجزيرة وعلى فترات ابرزها في القرن الرابع الميلادي . فهذه الشعوب والقبائل العربية التي نزلت أرض الشام خاصة في القرنين الثالث والرابع للميلاد قد غذت الارض الشامية بدماء جديدة فزادت في الكثافة السكانية وزادت بالتالي من ازدهار المنطقة وفعاليتها . ولم يخلق وجودها أي اضطراب أو عداوات ، اذ في حقيقة الامر انما نزلت في أرض الشعوب العروبية (السامية) القديمة التي سبقتها والتي خلقت حضارات هذه المنطقة على مدى آلاف السنين خدمت بها الانسان وقضية تقدمه منذ نشأة الحضارات . اذن فهذه الشعوب قد تداخلت مع السكان السابقين تداخلاً واسعاً وسهلاً بسبب الارومة الواحدة من جهة ، ومن جهة اخرى فان الديار الشامية الواسعة وقد استوعبتها فزادت بذلك قوة وفعالية . ناهيك عن وحدة الحضارة في الاساس مما حفظ للجميع البقاء والاستمرار أمام العناصر الخارجية. ويكفي دليلا ذكر (مجردذكر) أهم القصبات والمدن العربية التي اشتهرت في تلك الحقبة : مثل بصرى ، وغزة ، والبتراء ، ومعان ، وايلة والعريش ومدين(١٥) ...

قبل الفتح الاسلامي انتشرت النصرانية في البلاد الشامية انتشاراً واسعاً وقد كان في عداد المسيحيين الاوائل الشعوب العروبية (السامية) الاراميون وبعدهم الانباط العرب ، وقد تأثرت بقية الشعوب العربية بابناء عمومتهم الاراميين «السريان» الذين سبقوهم الى النصرانية ، وأيضاً بتأثير مباشر من البيزنطيين في الفترة اللاحقة(١٦) .

فنسمع ان الضجاعمة وهم فرع من سليح قد تنصرت وملكت في الشام ـ في منطقة البلقاء ـ قبل الفساسنة ، وجاء في الاخبار ان اسم احد امراء الضجاعمة داوود ابن الهبوبة المعروف باللثق تنصر (وتنصر من نفس العائلة اناس قبله) وذلك في اواخر القرن الثاني للميلاد(١٧) ، ويذكر المسعودي «وكانت قضاعة بن مالك بن حمير أول من نزل الشام وانضافوا الى ملوك الروم فمدوهم بعد ان دخلوا النصرانية على من حول الشام من العرب»(١٨) وان القبائل الكبيرة مثل جذام ولخم وعذره وبهراء وقسم كبير من كلب وطي ، وغيرها ، هذه القبائل جميعها قد تنصرت وبدوافع عدة ، في حين ان القبائل التي تقع في الجنوب منها مثل : سليم ومزينة وجهينة وبلي بقيت في الغالب الاعم حتى مجيُ الاسلام على وثنيتها وحيث ان جذام كانت في عداد كبرى هذه القبائل ومن اقواها ، وذلك بسبب من مؤتلفها القبلي الكبير ، فقد أصبحت في مصاف القبائل العربية المشهورة أمثال كنده ، وغسان ، وكلب ، وما ان أخذت الغزوات الاسلامية تزداد وتندفع في اتجاهها نحو الشمال ـ نحو الشام ـ عندما وجدت بيزنطة في جذام القوة التي يمكن ان تقف في مواجهة العرب المسلمين ، خاصة وان ملك الفساسنة قد ذهب اثر الحروب الفارسية الساسانية ولم يقم حكم أو دولة قوية تكون حاجزاً وقائياً أمام شعوب الجزيرة العربية كما في السابق(١٩) .

مع تصاعد قوة الاسلام وانتشاره في الجزيرة وخارجها ، نستطيع ان نقسم دور جذام في الفتوح الى ثلاثة أقسام ، أو أدوار ، تبقى متداخلة لتداخل الاحداث التي تأخذ بعضها ببعض :

الدور الاول : زمن الرسول الكريم وفي عهد ابي بكر الصديق.

الدور الثاني : في خلافة عمر بن الخطاب .

والدور الثالث : ما بعد خلافة عمر بن الخطاب حتى قيام الدولة الاموية .

ويمكن ان نصّف دور جذام أيام الرسول وابي بكر بالنسبة للفتوح بانه دور سلبي وذو طابع معاد _ في الغالب _ للمسلمين ، مع الاستثناءات التي سنشير اليها .

أما دورها أيام عمر بن الخطاب فكان دوراً ايجابياً على العموم وتبرز ايجابيته بشكل خاص بعد معركة اليرموك وتصل ذروة ايجابيته بالمشاركة الفعالة لجذام في فتح مصر .

أما بعد خلافة عمر ووقوع الفتنة ، فتأخذ جذام مكانها الكبير في طليعة أهل الشام المناصرين لبني امية والذابين عن حكمهم ، فكان لدور كلب وجذام والقبائل اليمانية _ الشامية عموماً الاثر الحاسم في تمكين معاوية بن أبي سفيان من الخلافة ونقلها لولده يزيد ، ثم في ترسيخ البيت الاموي أيام مروان بن الحكم وولده عبدالملك ، وساهمت جذام مساهمة فعالة في كل الاحداث التي تمت آنذاك ويكفي ان نذكر دور روح بن زنباع الجذامي زعيم الجذاميين خاصة واليمانية عامة ووقوفه بجانب مروان وولده عبدالملك ، ودور يمانية الشام في الفتوحات الكبرى التي تمت فيما بعد ، خاصة أيام الوليد بن عبدالملك .

دعنا الآن نرجع الى مصادرنا التاريخية التي تعالج السيرة النبوية ، والمغازي والفتوحات الكبرى .. نستعين بها على تفهم الوضع ولو بشكل شمولي .

ان أول شيْ يجب الالتفات اليه هو ان جذام لم تكن وحدة موحدة في تصرفاتها أمام الاحداث سواء أيام الرسول او بعدها ، وكما قلنا فان غالبية جذام كانت مواقفها أيام الرسول ضد المسلمين

غير ان افراداً منها ومعهم بطون صغيرة من قومهم انتقلت الى صف الرسول مع الاسلام فمثلاً : تذكر المصادر ان رفاعة بن زيد الجذامي الضبيبي قدم على رسول الله في مدنة الحديبية قبل خيبر وأسلم وأهدى رسول الله غلاما . وكتب له الرسول كتاباً الى قومه وفي الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد . اني بعثته الى قومه عامة ومن دخل معهم. يدعوهم الى الله والى رسوله . فمن اقبل فمن حزب الله وحزب رسوله ومن ادبر فله أمان شهرين . فلما قدم رفاعة على قومه أجابوا وأسلموا(٢٠) .

ولكن الامور لا تمضي بهذا الوضوح . فتحدثنا المصادر ان قوماً من جذام اعتدوا على مبعوث رسول الله دحية بن خليفة الكلبي . في طريق عودته من الديار الشامية _ في تجارة له وفي نفس الوقت في مهمة للرسول _ وان رسول الله قد أرسل الصحابي زيد بن حارثة _ وهو أيضاً بالاصل من كلب _ لتأديب المعتدين وقد شمل هذا التأديب أصحاب رفاعة بن زيد الضبيبي الجذامي . وتفصيل ذلك في النص التالي : ان رفاعة بن زيد لما قدم من عند رسول الله بكتابه يدعوهم (قومه) الى الاسلام . فاستجابوا له . ولم يلبث ان أقبل دحية بن خليفة الكلبي من عند قيصر الروم _ ربما من عند عظيم بصرى _ حين بعثه رسول الله ومعه تجارة له . حتى اذا كان بواد من أوديتها، يقال له شنار أغار على دحية الهنيد بن عوض وأبنه عوض بن الهنيد الضليعيان _ والضليع بطن من جذام _ فأصابا كل شئ كان معه . فبلغ ذلك نفرا من بني الضبيب . قوم رفاعة ممن كان أسلم وأجاب . فنفروا الى الهنيد وابنه .. حتى لقوهم فاقتتلوا .. فاستنقذوا ما كان في يد الهنيد وابنه فردوه على دحية . وتمضي الرواية « فسار

دحية حتى قدم على رسول الله واخبره .. فبعث الرسول زيد بن حارثة وذلك أن الذي هاج غزوة زيد جذاما ، وبعث معه جيشاً ، وأقبل جيش زيد من ناحية الاولاج فأغار بالفضافض (موقع) من قبل الحرة وجمعوا ما وجدوا من مال واناس ، وقتلوا الهنيد وابنه (فيمن قتل) . ويبدو من سياق الروايات ان بعضاً من قوم رفاعة بن زيد اصيبوا بأذى كبير اذ اخذوا يصيحون في وجه جيش زيد بن حارثة « انا قوم مسلمون » وتمضي الروايات فتقول : ان جماعة من قوم ضبيب ـ (من جذام) جاءوا رفاعة حيث يقيم بظهر الحرة على بئر ـ هناك ـ وهو لا يعلم بما جرى ـ فقالوا له : انك لجالس تحلب المعزى ونساء جذام يجرون أسارى ، قد غرها كتابك الـــذي جئت به ، فدعا رفاعة بن زيد بجمل له ، فجعل يشكل عليه رحله وهو يقول: « هل انت حي أو تنادي حيا » ثم غدا رفاعة بن زيد الى المدينة فدخل علـــى رسول الله واشتكى امره ، فأمر رسول الله علي بن أبي طالب فرد للقوم أموالهم وانصفهم ، وأطلق لهم رجالهم(٢١) .

وسرية أخرى قامت بغزوة عرفت بغزوة ذات السلاسل ، والسلاسل ماء لجذام ، بعث هذه السرية رسول الله لمحاربة قضاعة (بمختلف فروعها) وذلك حين بلغ الرسول ان جمعاً من قضاعة قد تجمعـــوا يريدون ان يدفعوا عن أطراف المدينة فدعا رسول الله عمرو بن العاص وعقد له لواء أبيض ، وجعل معه راية سوداء وبعثه في ثلثمائة من سراة المهاجرين والانصار ـ فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ـ والمصادر تشير انه لم يحدث صدام ، اذ حين أقبل المسلمون وحملوا عليهم (أي على قضاعة) هربوا في البلاد وتفرقوا . وتعرف هذه الغزوة «بجيش ذات السلاسل»(٢٢) .

أجل ان هذه الغزوات من الناحية الحربية ليست بذات بال ، فما هي الا مناوشات طفيفة خفيفة ولكن أرى ان مدلولها كبير وكبير جداً فهي :

أولاً : تدلنا على أن أقساماً من جذام واختها لخم وغيرها من قبائل قضاعة قد وفدوا على رسول الله معلنين اسلامهم واسلام البطون التي تتبعهم ، وهذا له أهمية بالغة اذ انه المقدمة لاسلام عرب الشام ، ويبدو لنا أن اسلام هذه البطون لم يكن ضئيلاً ويدل عليه ان الرسول الكريم قد عين من قبله رجلاً هو من أبرز الصحابة ومن كبار قادة المسلمين عمرو بن العاص عينه على صدقات جذام ولخم «كان رسول الله ولاه (عمرو بن العاص) صدقات سعد مزيم وعذرة ومن نصها من جذام وحدس (بطن من لخم)(٢٣) . وجدير بالذكر انه في نفس الفترة عين الرسول عبدالرحمن بن عوف على صدقات كلب وهذه اشارة الى ان قسماً من هذه القبيلة الكبيرة قد أسلم»(٢٤) .

ثانياً : ان هذه المناوشات قد بعثت القلق في قلوب الروم وقلق مع الروم كبار رجال القبائل العربية المتنفذة في الشام وشمال الحجاز والموالية للروم جميعهم باتوا يخافون من تصاعد قوة المسلمين * لذا أخذوا يدنون بغاراتهم من المدينة ، ويعتدون على التجار الذين يسيرون بتجارتهم ما بين المدينة ودومة الجندل والبلاد الشامية .. فكما اعتدوا على دحية بن خليفة الكلبي اعتدوا كذلك على غيره من التجار ، ويؤيد ذلك المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف حيث يقول : « وكان صاحبها (دومة الجندل) اكيدر بن عبدالله الكندي يدين بالنصرانية وهو في طاعة هرقل ملك الروم وكان يعترض سفر المدينة وتجارهم » وليسوا بنو جذام الذي يسكنون على الطرق التجارية بمنأى عن كل هذا(٢٦) .

---

* وذكر الواقدي : « ان دومة الجندل وايلة وتيماء قد خافوا النبي صلى الله عليه وسلم لما رأوا العرب قد اسلمت له» (٢٥) .

وثالثاً : فان الامر الخطير الذي كانت الروم تخافه هو نقل اخبارها للمسلمين عن طريق التجار الذين يأتون المدينة من الانباط وغيرهم من أعوان المسلمين . فيذكر ابن عساكر ذلك فيقول «كانت.. الانباط يقدمون المدينة بالدرمك (الدقيق) والزيت في الجاهلية ، وبعد ان دخل الاسلام فانما كانت اخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الانباط . ويؤكد هذا المعنى الواقدي في المغازي» . لذا فالروم في ضيق وفي خوف من تواصل التجارة ما بين البلدان المجاورة والمسلمين في المدينة ، فالروم وحلفاؤهم لا يريدون لهذا الشريان الحيوي الاستمرار والتدفق ، بجانب ان الروم منزعجة من هؤلاء الانباط وغيرهم من العرب الذين يفدون على المدينة للتجارة ، وهم ينقلون بنفس الوقت اخبار الشام في كل يوم للرسول وأصحابه ، فوق كل هذا فاعداد الذين يسلمون منهم ومن غيرهم في ازدياد مضطرد .

قد تكون معركة مؤته قد وقعت قبل شهر واحد من غزوة ذات السلاسل من السنة نفسها (٨هـ / ٦٢٩م) ، لكن طبيعة هذه المعركة واستعـــداد الرسول والمسلمين لها يختلف اختلافاً جذرياً عن سابقتها .

لقد أصبحت معركة مؤته من المعارك المشهورة في التاريخ العربي الاسلامي وذكراها حية في اذهان ووجدان كل العرب والمسلمين ** . والامر الذي ننشده في بحثنا في حيثيات وقائع هذه

**وحتى هذه الايام فان سكان شرق الاردن ، وخاصة في الجنوب من البلاد يروون قصصاً شعبية يتداولها الناس فيما بينهم من مشاهدة مناظر القتال ، وسماع أصوات صهيل الخيول وصليل السيوف في أيام معدودة من السنة ـ في موضع مؤتة ـ بل يتحدث الناس عن سماع التكبيرة والحث على القتال والترحيب بالاستشهاد ولقاء وجه الخالق .

المعركة هو دور جذام فيها . والذي جاء واضحاً أن جذام في غالبيتها قد وقفت بجانب الروم وضد المسلمين فيها . فقد جاء عند الطبري : « فبلغ الناس ان هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة الف من الروم ، وانضمت اليه المستعربة عن لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي في مائة الف منهم »(٢٧) .

ويبدو لنا أن دور جذام في هذه المعركة كان كبيراً وذلك للاسباب التالية :

أولاً : لقد جرت المعركة في ديار جذام ومؤتلفها . فكما قلنا مساكن جذام تمتد من تبوك الى جبال حسمى في شمال الحجاز الى الشمال الشرقي ، فالى وادي عربة وحتى البحر الميت الى البلقاء(٢٨) ، ومن ايله شمالاً الى ينبع جنوباً على طول الساحل .

ثانياً : سبق وان حصل في البلاد الشامية خراب كثير ودمار واسع بسبب الحرب الطويلة التي وقعت ما بين الفرس الساسانيين وبين الروم البيزنطيين فالفرس عند احتلالهم الاراضي الشامية عام ٦١١م ، دمروا البلاد وقتلوا العباد وانتشر بين الناس الجوع والهلع واحتلوا كبرى مدن الشام مثل انطاكية وحلب ودمشق والقدس ، ومدموا الكنائس وابادوا كثيراً من القرى ومن جملة ما أبادوا ملك غسان . فلما تم النصر للروم ، واخذوا يتهيأون لتنظيم سورية واعادة السيطرة عليها عام ٦٢٩ أو ٦٣٠ ، بعد أن تضعضع نفوذهم كثيراً حتى ان سيطرتهم لم تتعد البحر الميت في حين كانت في السابق تمتد حتى ايلة(٢٩) ..

ولسد هذا الفراغ جاء الروم بجذام وقلدوها الرئاسة بشخص فروة الجذامي في معان وما حولها (وسنأتي بالحديث عنه فيما بعد) الذي أصبح عاملاً للروم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب(٣٠) .

ثالثاً : لا حاجة بنا ان نستغرب عدم ذكر غسان بين المستعربة التي جاءت لقتال المسلمين في مؤتة ، فلم يذكرها الواقدي ولا الطبري ولا كثير غيرهما ، واكتفت المصادر ذاتها بالقول ان قاتل رسول رسول الله الحارث بن عمير الازدي عامل ملك بصـــرى شرحبيل بن عمرو الغساني . واخلص من كل ما تقدم بالقول ان دور جذام ومؤتلفها كان كبيراً في معركة مؤتة(٣١) . فكانت هي الركيزة والمعول .

أما بالنسبة للمسلمين فبالرغم من ان المعركة لم تحقق نتائج عسكرية وراح ضحيتها ثلاثة من أبرز شهداء المسلمين (زيد بن حارثة وجعفر بن ابي طالب ، وعبدالله بن رواحة) ، مع هذا يبدو انه لم يكن في الطرفين كثير من القتلى . وتفسير ما تذكره المصادر عن الاعداد الغفيرة للجيشين (مائة الف جيش الروم) وجيش المسلمين (ثلاثة آلاف)(٣٢) ، قد يعود ذلك الى ان البلاد السورية ما زالت تعيش آثار الحرب الفارسية البيزنطية وفي جنوب سورية بالذات . نستشف من المصادر أن الفريقين المتحاربين جلهم من العرب ، فعرب الشام بدعم من الروم تحارب ضد العرب المسلمين ، لوقف تصاعد قوة الرسول والمسلمين.

وتذهب بعض الكتابات التاريخية الى القـــــول من أن احد أهداف المسلمين من غزوة مؤته هو الوصول الى السيوف المشرفية الشهيرة ، التـــــي يعتقد انهـــا كانت تصنع في مؤتة ونواحيها ، أو في قرية مشارف الشامية القريبة . وفي معجم البلدان « السيوف المشرفية منسوبة الى مشارف ، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف» ، بل ان ياقوت نفسه يحدد في حديث عن مؤتة :

«ثم مضى الناس حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء لقتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف» هذا النص يجعلها قرية بعينها بهذا الاسم ، كما وردت في خطط الشام لمحمد كرد علي(٢٣) . ومعلوم ان منطقة وادي عربة وعجلون وغيرهما مشهورة بمناجم الحديد وقد استغل بشكل واسع منذ الفترة الرومانية(٢٤) وقبلها . كما وانه الى الشمال من مؤتة توجد اليوم قرية اردنية باسم المشيرفة .

حملة مؤتة كانت هي الحملة الاولى والوحيدة التي جردها المسلمون نحو الشام في حياة الرسول ، وهي بذلك تؤلف الحملة الاولى في معركة تحرير البلاد الشامية من البيزنطيين الامر الذي تم بفضل الفتوحات الباهرة التي تلتها .

اما غزوة تبوك (٩هـ) فدور جذام فيها يتضح كما يلي :

لقد ذكرنا ان اخبار بلاد الشام كانت تصل الى رسول الله في المدينة عن طريق الانباط وغيرهم ، فقدمت قادمة عام تسع للهجرة فذكروا ان الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام وان هرقل قد رزق أصحابه لسنه ، وانه استنفر العرب المتنصرة فأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وبهراء وغيرها من عرب الشام وزحفوا وقدموا مقدماتهم الى البلقاء وعسكروا بها ، فرأى الرسول ان لم يبدأ الروم القتال بدأه ، فأمر في سنة تسع للهجرة بالتجهيز لغزو الروم ، والطلب بدم جعفر ومن استشهد معه في مؤتة في السنة الفائتة . وجاء عند الطبري . « ان رسول الله أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم .. وذلك في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد .. وكان رسول الله قلما يخرج في غزوة الا كنى عنها .. الا من كان من غزوة تبوك ، فانه بيّنها للناس لبَعد الشقة

وشدة الزمـــــان وكثرة العـــــدو .. ليتأهب الناس لذلك أهبته ، وأمر الناس بالجهاز »(٣٥) . ويـــذكر محمد كرد علـــي انه كان معه (الرسول) أهـــل الغنى على النفقة والحمـــلان في سبيـــل الله فحمل رجال من أهـــل الغنى فاحتسبوا وانفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة ، ولم ينفق احـــد اعظم من نفقته ، كذلك فان ابا بكر انفـــق في تجهيز هـــذا الجيش جميع ماله »(٣٧) .

ومع كل هذا الاستعداد والمشقة الفائقة الوصف ـ حتى سميت هذه الغزوة بغزوة العسرة ـ فان المسلمين لم يلاقوا كيدا ، فعادت الحملة من تبوك دون ان تصطدم بقتال ولكنها حققت المهام التالية :

أولاً : كانت غزوة تبوك تجربة كبيرة لمستقبل التعبئة النفسية والاستعداد العسكري لحروب الفتح المقبلة .

ثانياً : عقد رسول الله خلالهـــا الصلح مع أصحاب أهم المواقع التي تقع على الطرق التجارية ما بين الشام والبلاد الحجازية ، وأكثر هذه المواقع تمر بديار جذام ومن جاورها من القبائل .

ثالثاً : ان اهتمـــام الرسول بجنوب بلاد الشام اصبـــح ضرورة ملحـــة سيما بعـــد معركة مؤتة ، وذلك لترتيب الاوضاع ما بين المدينة والشام لصالح سياسة التوجه نحو البلاد الشامية(٣٨) .

ولهذا اتخـــذ الرسول عـــدة اجراءات تضمن عدم عداء القبائل والحواضـــر في شمال الحجـــاز ، وذلك عن طريق ربـــط سكان هـــذه المناطـــق بالمواثيق والعهود وكتب الامان .

وأثر غزوة تبوك تم بالفعل عقد الصلح مع الحواضر التالية :

أ ـ تم الصلح مع أهل اذرح من جبال الشراه (في هذا الموقع تم فيما بعد التحكيم ما بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان وذلك عام ٣٨هـ)(٣٩) .

ب ـ صالح الرسول أهل جرباء ـ من الشوبك أيضاً وأهل مقنا على مقربة من ايلة ـ كما وسبق الصلح مع دومة الجندل .

جـ ـ ثم صالح الرسول الكريم اسقف ايلة يحنه بن رؤبة . وصلح ايلة له دلالة عميقة فأيلة ـ كما هو معروف ـ مدينة تعتمد على التجارة بالدرجة الأولى . وأهلها يعيرون هذا الامر جل اهتمامهم ، وحيث ان الرسول في هذا الوقت أصبح يسيطر عل أهم الطرق التجارية البرية المؤدية الى ايلة من اليمن وجنوب بلاد العرب ، لذا سارع أهلها بقيادة صاحبها يحنة بن رؤبة بعقد الصلح مع الرسول وقبلـــوا دفع الجزية وتبادل الرسول مع اسقفها الهدايا(٤٠) .

ويبرز هنا أمر جانبي يمس دور جذام ، ذلك ان بعض المؤرخين يذهـــب الى القول ان يحنـــة بن رؤبة اسقف ايلة هو نفسه من جذام(٤١) ، ناهيك ان كثيراً من اساقفة ايلة قبله كانوا من أصل عربي(٤٢) .

د ـ ذكر الطبري في حوادث السنة التاسعة للهجرة ان «وفداً من الداريين (من لخم) قدموا على رسول الله واسلموا» ونرجح انه في السنة نفسها اعلن فروة الجذامي اسلامه(٤٣) وفروة بن عمرو الجذامي من بني نفاثة كان ـ كما ذكرنا سابقاً ـ عاملاً للروم على قومه لبني النافرة من جذام ـ وعلى من حوالي معان من العرب ، ولما وقعت غزوة تبوك بعث الى رسول الله باسلامه واهداه ، وعلم

قيصر الروم بذلك فسلط عليه الحارث بن شمر الغساني فاعتقله وصلبه بفلسطين . وورد ذكر فروة الجذامي عند ابن الاثير هكذا «فلما بلغ الروم اسلامه (فروة) طلبوه حتى اخذوه فحبسوه عندهم فلما اجتمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له عفرى _ (شمال مدينة الطفيلة اليوم) بفلسطين . وقال ابن اسحق زعم الزهري انهم لما قدموه ليقتلوه قال :

بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي اعظمي ومقامي(٤٤)

ويعلق دونر على مقتل فروة الجذامي قائلاً «ربما انها مجرد قصة دينية وفي الهامش يقول ربما ان فروة الجذامي قد قتل بسبب الحرب الفارسية البيزنطية»(٤٥) ويقول مصطفى الدباغ «فروة الجذامي اول عربي استشهد (من) بلاد الشام بسبب اسلامه»(٤٦) .

ويحلو لصاحب الاوائل ان يطيل في وصف قصة فروة الجذامي وفي مرد الابيات الشعرية التي قيل انه قالها وهو مصلوب ويقارنها بابيات جميلة لابي تمام ولان القصة مؤثرة وهدية فروة للرسول قد اثارت على ما يبدو اهتماماً ما في المدينة ، رأينا اثباتها* :

---

* قال أبو الهلال العسكري :

بعث فروة بن عمرو الجذامي حين أسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بثياب فيها قباء سندس محوص بالذهب وفرس وحمار وبغلة شهباء ، فكانت أول شهباء رئيت في المدينة . وكان فروه عاملاً من قبل الروم على عمان (والاصح معان) من أرض البلقاء ، فقسم رسول الله الثياب بين نسائه ، اعطى القباء مخرمة ، ومات الحمار عند منصرفه من حجة الوداع . وبلغ ملك الروم صنيع فروة ، فأراده على الرجوع الى دينه فأبى ، فأمر بصلبه ، فقال حين صلب :

الا هل اتى هندا بأن خليلها على ماء عفرى فوق احدى الرواحل
على ناقة لا يضرب الفحل امها مشذبة اطرافها بالمناجل

ومن هنا اخذ ابو تمام قوله في مصلوبين :

امسوا واضحوا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
سود الثياب كأنما نسجت لهم ايدي الجنوب مدارعا من قار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم ابدا على سفر من الاسفار

العسكري ، أبو هلال ، جـ ١ ، ص ١٦٩ _ ١٧١ ، دمشق ١٩٧٥ .

وقبل ان ننتقل الى المعارك الكبرى والحاسمة والتي وقعت في الديار الشامية لنواصل تتبعنا لدور جذام ، يجدر بنا ان نرجع الى الوراء قليلاً لنسوق ملاحظة هي بالحقيقة مربكة ولكنها تتعلق بجذام ، او بالحرى تتعلق ببني النضير وبني قريضة من يهود يثرب حيث قيل انهما من جذام . يذكر اليعقوبي في تاريخه ان بني النضير وهم فخذ من جذام الا انهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير ، فسموا به ، اخرجهم رسول الله من يثرب (المدينة) فتحملوا الى الشام والى خيبر (سنة ٤هـ/٦٢٦م) ونزلت في بني النضير سورة الحشر كلها (٤٧) ، وهو «الذي اخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم »(٤٨) .

ويذكر اليعقوبي الامر نفسه عن بني قريضة : «بنو قريضة وهي فخذ من جذام ، ويقال أن تهود بني قريضة كان في أيام السموأل (عادياً) ، ثم نزلوا بجبل يقال له قريضة فنسبوا اليه ، وقيل أن قريضة اسم جدهم . وكان بينهم وبين رسول الله صلع فنقضوه وحالفوا قريش(٤٩) .

لا ندري هل من الممكن ان نقبل ما ذكره اليعقوبي وغيره . ولكن ان صح ما ذهب اليه ، ففيه دليل آخر على نفوذ جذام وبعد اثرها .

ومع هذا وبتردد زائد نسوق بعض الاشارات التي تدعم مقولة اليعقوبي ، تاركين الحكم فيها للقارئ الكريم :

أولاً : ان اليهودية كانت ديناً تبشيرياً لعصور طويلة .

ثانياً : ان كثيراً من العرب قد تهودوا في فترات متباينة . فيذكر أهل الاخبار وجود اليهودية في حمير وبني الحارث بن كعب وكنده ، وتهود بني حشنة من بلي ودخولهم تيماء(٥٠) .

ثالثاً : ويذكر حمد الجاسر ان كثيراً ممن سكن خيبر كان من صرحاء العرب مع انهم يهود مثل مرحب اليهودي الذي سجلت الكتب جانباً من بطولته وهو من قبيلة حمير القحطانية(٥١) .

رابعاً : ان جماعة اليهود المتعصبة التي استطاعت بسبب ضعف السلوقيين ان تكون زعامة ما (المخابيون) في القرن الثاني قبل الميلاد في فلسطين ، وكانت لتخوفها من الهيلينية ، قد حملت الناس في جنوب فلسطين وفي الجليل على التهود ، تحت طائلة الطرد والابادة .. وقد تكون هذه الأعمال قد امتدت عبر السنين فنسمع عن التهود بين سكان جنوب سورية حتى أيام هيرودس الكبير والي روما في فلسطين ، وكان هو نفسه وأهل بيته من الادوميين ، فمشياً مع هذه النظرية نقول ان هذه الاعمال اصابت جذام أو بالحرى أصابت جزءاً من الشعوب التي كانت تسكن المنطقة وذابت في وسطها واندمجت فيه واخذت تحمل اسم جذام فيما بعد من الزمن .

ليس موضوعنا في هذا البحث الكلام عن دوافع الفتح واسبابه وسير المعارك العظمى التي جرت وانما هدفنا رصد دور جذام رغم تواضعه خلال هذه الاعمال العظام ، فقبيل خروج جيوش الفتح التي تشكلت في خلافة ابي بكر الصديق وقعت كما هو معروف حروب الردة ، اثر انتقال الرسول الكريم ال رفيقه الاعلى .. فشمر ابو بكر الصديق والمسلمون لحرب المرتدين . ومن جملة هؤلاء كان بطن من جذام سبق وان اسلم وهم بنو الضبيب قد ارتدوا فيذكر الطبري انه «لما توسط اسامة (بن زيد) بلاد قضاعة بث الخيول فيهم وأمرهم ان ينهضوا من اقام على الاسلام الى مثل من رجع عنه ، فخرجوا مرابا حتى ارزوا (التجأوا) الى دومة واجتمعوا الى وديعة (الكلبي الذي ارتد بدوره) ورجعت خيول اسامة اليه ، فمضى فيها اسامة

حتى أغار على الحمقتين (موقع) ، فاصاب من بني خبيب من جذام ، ومن لخم ولفها من القبيلين وحازهم من آبل (موقع) وانكفأ سالماً غانما »(٥٣) هذه ملاحظة بسيطة سجلناها ونمشي مع سير المعارك .

قلنا ان غزوة تبوك قد مهدت الطريق لجيوش المسلمين للسير نحو الشام ، وطبيعي ان الطريق الذي سلكته معظم الجيوش الاسلامية قد مرت في ديار جذام التي نحسب ان أرتالا منها قد انضمت لجيوش المسلمين بعد الاعلان عن اسلام اقسام منهم ومن بني لخم(٥٤) .

وكما ذكرنا كان سكان الشام قد اثقلتهم الضرائب التي فرضها مرقل للتعويض عن الخسائر الفادحة التي لحقت بالبلاد اثر الحرب الفارسية البيزنطية الطويلة .

ان اكثرية السكان النصارى الذين لم يسلموا بعد كانوا في خصام مذهبي شديد مع الكنيسة الرسمية الملكانية .

وقد لاقى رجال الدين ، وكثير من الشعب العنت والاضطهاد من الحكام البيزنطيين نتيجة للخلافات والصراعات ما بين المذهب الكنسي السوري (الشامي) المونوفيستي وبين الكنيسة الملكانية . فأصبح المجتمع السوري معادياً من الناحية الروحية للسلطات الحاكمة . وما المونوفيستية بالحقيقة الا تعبير وطني عن انفصال الحضارة السامية عن الفكر الروماني الهيليني الدخيل ، لذا اختار العرب الوقوف بجانب اخوانهم المسلمين ، الذين جاؤوا أرض الشام والعراق لنشر الاسلام ، ولمحاربة سلطان الدولتين الاجنبيتين الكبيرتين آنئذ بيزنطة وفارس ، ولم يكن النصارى العرب في يوم من الايام على سجل الاعداء بل العكس ، والارجح ان النصرانية الارامية ـ العربية ـ القبطية كانت حليفاً للاسلام في اطار الصراع

التاريخي ، الذي ظـل يتجاذب المنطقـة قروناً قبل ظهور الاسلام(٥٥) .

وللموضوعية نرجع هنا الى المصادر الاجنبية نفسها التي تخبرنا عن الترحيب الذي لقيه العرب المسلمون من السكان الاصليين للبلاد السورية ، يورد الاب قنواتي عدة نصوص تبين ترحيب السكان بالعرب وفرحهم بخلاصهم من ظلم البيزنطيين ونسجل كمثال نصاً اخذه عن بطريرك انطاكية في مذكراته «ميخائيل السوري» مترجمة الى الفرنسية والانكليزية نورد ترجمته بالعربية كما يلي «انتقام من الله ، الذي رأى شرور الروم ، الذين حيثما حكموا فحكمهم ظالم : هدموا كنائسنا واديرتنا ، ساسونا بلا رحمة .. حتى جاء من الجنوب اولاد اسماعيل ليتم خلاصنا من الروم على ايديهم »(٥٦) . كل هذا يحملنا على القول ان جذام ولخم وغيرهما من القبائل العربية من الشام اسرعت وانضمت ، خاصة بعد معركة اليرموك ، الى اخوانهم العرب المسلمين واعتبروهم محررين لهم بدليل استسلام وانسياق كثير من الحواضر والمدن للمسلمين دونما حرب ، وعلى سبيل المثال مؤاب(٥٧) .

اما ما قبل اليرموك ، فنستشف من مصادرنا ان اقساماً من المتنصرة العرب خاصة غسان وقفت بجانب الروم . فيذكر الطبري «سار هرقل في الروم حتى نزل انطاكية ومعه من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلي وعاملة ، وتلك من قضاعة ، بشر كثير ، ومعه من أهل ارمينية مثل ذلك ، فلما نزلها اقام بها » ، وبعد ذكر الاعداد والقادة يقول «سار اليهم المسلمون وهم اربعة وعشرون الفاً عليهم ابو عبيدة بن الجراح ، فالتقوا باليرموك في رجب سنة ١٥هـ» ويستمر الطبري «فاقتتل الناس قتالاً شديداً حتى دخل عسكر

المسلمين ، وقاتل نساء من نساء قريش بالسيوف ، حتى سابقن الرجال وقد كان انضم الى المسلمين حين ساروا الى الروم ناس من لخم وجذام . فلما رأوا جد القتال فروا ونجوا الى ما كان قربهم من القرى ، وخذلوا المسلمين .. وقال قائل من المسلمين حين رأى من لخم وجذام ما رأى :

القوم لخم وجذام في الهرب ونحن والروم بمرج نضطرب
فان يعودوا بعدها لا نصطحب

وما جاء عند الطبري ذكرته كثير من المصادر العربية الاخرى مع اختلافات بسيطة(٥٨) .

من هذه النصوص نحكم ان أقساماً من جذام كانت حتى اليرموك مع المسلمين وقسم مع الروم وعند الازدي نرى المسألة اكثر وضوحاً حيث يقول بصدد معركة اليرموك «خرج الناس على راياتهم وفيها اشراف العرب وفرسانهم من رجالهم وقبائلهم وفيها الازد . وفيها همدان ومذحج وخثعم وقضاعة ولخم وجذام وغسان وعاملة وكندة وحضرموت ومعهم جماعة من كنانة ولكن أعظم الناس من أهل اليمن » .. ويفسر الازدي ذلك فيقول «ولم يحضرها يومئذ اسد ولا تميم ولا ربيعة ، ولم تكن دارهم وانما كانت دارهم عراقية فقاتلوا فارس بالعراق » . ويذكر في مكان آخر «ان جذام ولخم حاربت ففي ميسرة المسلمين حيث انكشفوا للعدو » . من هذا النص نرى ان جذام وغيرها من قبائل العرب في الشام حاربت مع المسلمين في اليرموك أيضاً(٥٩) .

وبما ان معارك مثل داثن (وهي من قرى غزة) واجنادين ما بين الرملة وبيت جبرين . (وبيت جبرين سكانه من جذام كما مر معنا) . قد وقعتا في أراضي جذام فنحسب ان جذام كانت بجانب المسلمين

آنذاك(٦٠) . ونلمح ذلك بوضوح عند فتح قيسارية حيث ارسل قائد الفتح معاوية بن ابي سفيان باثنين من بني جذام يحملان بشرى الفتح للخليفة عمر بن الخطاب(٦١) . وقيسارية من المدن الشامية التي قاومت لانها كانت مركزاً هاماً للبيزنطيين ومعقلاً كبيراً للهلينية في الأرض الشامية .

يقول الاستاذ محمد كرد علي «ومن المحقق ان العرب المتنصره ـ ومنهم جذام ـ في الشام عادوا بعد ان صاروا مع الروم فانضموا الى العرب المسلمين واخذتهم النعرة الجنسية .. واصبحوا للمسلمين عيوناً على الروم »(٦٢) .

وشاركت جذام مشاركة فعالة بالفتوح ودليلنا المادي على ذلك هو اجتماع يوم الجابية الذي وقع ١٧هـ على الارجح حيث اجتمع عمر بن الخطاب مع امراء الجيش ورؤساء الشام وبصحبته عدد من كبار الصحابة . وكان من دواعي الشهرة ان يكون المرء من شهود هذا اليوم . امر عمر بان يوزع العطاء على المقاتلين في فتوح الديار الشامية .. ورؤي اول الأمر استبعاد القبائل العربية من أهل الشام في العطاء ولكن هؤلاء العرب الذين شاركوا الفاتحين من الحجاز واعانوهم عارضوا هذا الرأي فلم يؤخذ به ، فيذكر اليعقوبي « وامر عمر بن الخطاب ـ بالجابية ـ ان تقسم الغنائم بين الناس بالسوية خلا لخم وجذام وقال : اجعل من خرج الشقة الى عدوه كمن خرج من بيته »(٦٣) .

ولكن صاحب الاموال ساق الخبر بتفصيل اكثر وبما انتهى فعلاً اليه فذكر « شهدت خطبة عمر بن الخطاب بالجابية ، قال : فحمد الله واثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فان هذا الفيءَ شيءٌ افاءه الله عليكم ، الرفيع فيه بمنزلة الوضيع ، ليس أحد أحق به من

أحد ، الا ما كان من هذين الحيين . لخم وجذام فاني غير قاسم لهما شيئاً ، فقام رجل من لخم فقال : يا ابن الخطاب ، انشدك الله بالعدل والتسوية ، فقال : ما يريد ابن الخطاب بهذا الا العدل والتسوية ، والله اني لاعلم ان الهجرة لو كانت بصنعاء ما خرج اليها من لخم وجذام الا قليل . أفاجعل من تكلف السفر وابتاع الظهر بمنزلة قوم انما قاتلوا في ديارهم . فقام ابو حدير فقال : يا أمير المؤمنين ان كان الله تبارك وتعالى ساق الهجرة الينا في ديارنا فنصرناها وصدقناها اذاك الذي يذهب حقاً ؟ فقال عمر : والله لاقسمن لكم ، ثم قسم بين الناس فاصاب كل رجل منهم نصففف دينار ، اذا كان وحده ، واذا كانت معه امراته اعطاه دينارا(٦٤) .

ان مشاركة جذام ولخم بالعطاء يعطينا دليلاً مادياً يثبت المشاركة الفعلية لهما في الفتح الامر الذي استحقتيا معه المشاركة في العطاء على السواء .

في نهاية بحثنا .. لنقف عند حادث اليم اصاب المسلمين وهو طاعون عمواس ، وتقول اكثر المصادر انه وقع في عام ١٨هـ . وسمي باسم المدينة الفلسطينية _ عمواس _ التي تقع على الطريق الرئيسي الموصل القدس باللد .

وطاعون عمواس كان عنيفاً وامتد الى مناطق واسعة ، ويذكر ياقوت في معجمه انه راح ضحيته خمسة وعشرون الفاً من المسلمين(٦٥) .

ان يحـــــدث طاعون في الارض الشامية _ او مناطق منها على الاقل _ في ذلك الوقت ليس بالامر الغريب ، يذكر كونراد في دراسة له حول الطاعون انه قد حل بسورية طاعون جارف في أيام جستنيان الاول عام ٥٤٢م ، وفي اواخر القرن السادس ، وفي مطلع

القرن السابع للميلاد ، وقع طاعون آخر . وتشير المصادر الى ان الطاعون كأنه قد استوطن بعض الارض الشامية في الفترة الاموية وبداية الفترة العباسية(٦٦) .

ولكن السؤال : ما علاقة ذلك بدور جذام في الفتوح ؟ موضوع بحثنا .. انني افترض انه بسبب هذا الوباء الذي راح ضحيته تلك الالاف من الشهداء المسلمين ، كان من بينهم قادة جيش الفتح ابو عبيدة بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان ، ومعاذ بن جبل وآخرون ـ رضوان الله عليهم ـ ، قد احدث فراغاً في القوى البشرية للمسلمين وهم في نشوة انتصاراتهم على البيزنطيين في الشام ، ويستعدون للسير لفتح مصر . وحيث ان هذا الوباء يصيب الحواضر وسكان المدن أكثر مما يصيب البوادي ، والهضاب والواحات واطراف الصحراء حيث تعيش جذام وجموعها ، تلك الجموع التي كما قلنا أكثر العرب ابلا .. فهم معها خارج المدن المكتظة ، وجذام ومؤتلفها تم انضمامها في هذا الوقت بالذات الى صفوف المسلمين . اذن ففي الجموع الجذامية وجد المسلمون التعويض البشري الكبير عن كوارث الطاعون والمدد الوافر من المجاهدين للانضمام الى جيش فتح مصر .. ودون الخوض بتفاصيل كثيرة حول فتح مصر ودور جذام في تلك الفتوح يكفي القول ان جذام ومعها لخم وبهراء وبلي وغيرهم قد كونت عماد جيش الفتح بقيادة عمرو بن العاص ، الذي انطلق من موطن جذام جند فلسطين .

وحيث ان موضوع فتح مصر ، يخرج بنا عن نطاق حدود هذا البحث ، فيكفي ان نسوق هذه الملاحظات البسيطة نختتم بها حديثنا عن دور جذام في الفتوح :

ان أول من سكن الفسطاط هم أهل الراية وفيهم القبائل التي شاركت بالفتح منها بلي ولخم وجذام خاصة فرع وائل التي شكلت أهم الفرق(٦٧) . يقول القلقشندي « بنو جذام أول من سكن مصر من العرب جاءوا في الفتح مع عمرو بن العاص ، واقطعوا فيها بلاداً بعضها بأيدي بنيهم الى الآن » . وقال في موضع آخر « ومن اقطاعاتهم ـ بني جذام ـ مربيط ، وتل بسطه ونوب وغير ذلك » . وذكر القلقشندي عدة بطون لجذام وقال « بالاسكندرية من جذام ولخم أقوام ذو عدد وعدة وأهل شجاعة واقدام وضرب بالسيف ورشق بالسهام ولهم أيام معلومة واخبار معروفة ووقائع في البر والبحر مشهورة »(٦٨) .

المصادر والمراجع :

١ _ القلقشندي ، نهاية الارب ، القاهرة ١٩٥٩ ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٩٢ ، دار المعارف المصرية ١٩٥٢ . ابن خلدون ، العبر ، جـ٢ ، الكتاب اللبناني بيروت . البلاذري ، فتوح البدان ، الطبعة الاوروبية .

٢ _ الزبيدي ، تاج العروس ، حـ٨ وأيضاً النويري ، نهاية الارب ، جـ٢ ، ص٣٠٣ . القاهرة . ابن منظور : لسان العرب ، حـ١٤ ، ص ٣٥١ ، القاهرة ١٣٠٢هـ .

٣ _ البكري ، معجم ما استعجم ، تحقيق السقا ، القاهرة جـ٤ ص ١٢٠١ . أيضاً القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٠٥ _ ٢٠٩ .

٤ _ ابن خلدون ، العبر حـ٢ ، ص ٣٧ .

٤ _ ابن خلدون ، العبر جـ٢ ، الكتاب اللبناني : بيروت .

٥ _ ابن خلدون ، العبر جـ٢ ، ص ٣٧ .

٦ _ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٥ _ ١٢٦ .

٧ _ ياقوت ، معجم البلدان جـ٢ ، ص ١١٤ ، بيروت ١٩٧٩ . اليعقوبي ، بلدان ، ٢٣٠ _ ٢٣٩ (مع كتاب الاعلاق النفسية) ليدن ١٨٩١ .

٨ _ الحلبي ، المناقب المزيدية ، جـ١ ، ص ٦٧ ، ٧٠ .

هبة الله ، تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسات ، عمان ١٩٨٤ .

٩ _ ابن منظور ، لسان العرب ، جـ١٤ ص ٣٥٦ ، القاهرة ١٣٠٢هـ .

١٠ _ ابن منظور ، العبر ، جـ٢ ، ص ٥٣٥ .

١١ _ ابن خلدون ، ن . م ، جـ٢ ، ص ٢٢٨ .

١٢ _ ابن خلدون ، ن . م ، جـ٢ ، ص ٥١٧ .

ابن عبدربه ، العقد الفريد ، جـ٣ ، ص ٤٠٢ .

١٣ _ ابن حزم ، جمهرة الانساب ، ص ٢٩٥ . القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٠٦ ، القاهرة ١٩٥٦ .

١٤ _ جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ٤ ، ١٦٦ _ ١٦٧.

١٥ ـ عبـــدالعزيز الدوري ، التكوين التاريخي للامة العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٤ . فيليب حتى ، تاريخ العرب (مطول) ، بيروت ١٩٦١ . شاكر مصطفى ، العرب والاسلام وفلسطين عبر التاريخ (من كتاب القضية الفلسطينية) ، الموصل ١٩٨٢ .

انظر : Trimingham, J.S., Christianity among the Arabs in : pre-Islamic Tims, Longman, London 1971.

١٦ ـ صالح الحمارنة ، المسيحية في ارض الشام في اوائل الحكم الاسلامي، (من كتاب المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام) عمان ١٩٧٤ ، ص٥٤٩_٥٥١ .

١٧ ـ توفيق فهد ، ماوية وضجعم او العرب والرومان في اواخر القرن الرابع ، بحث مقدم لمؤتمر بلاد الشام الرابع ١٥ ـ ٢١ تشرين اول سنة ١٩٨٢ .

١٨ ـ المسعودي ، مروج الذهب ، تحقيق محمد عبدالحميد ، جـ١ ، ص ٦١ ، القاهرة ١٩٦٦ .

١٩ ـ ترمنجهام ، ن . م ، ص ١٢٠ وما بعدها .

٢٠ ـ الطبري ، تاريخ جـ٢ ، ص ١٤٠ . ابن هشام ، السيرة جـ٢ ، ٣٤ تحقيق عبدالسلام هارون .

٢١ ـ ابن سعد ، الطبقات الكبرى جـ١ ، ص ١٣١ لجنة الثقافة القاهرة . الطبري ، تاريخ جـ٣ ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ . ابن الاثير ، اسد الغابة ، جـ٢ ، ص ١٨١ . خليفة بن خياط ، تاريخ ص ٨٥٠ ، تحقيق اكرم العمري . ياقوت ، معجم البلـــدان ، جـ٢ ، ص ٢٥١ ، بيروت سنة ١٩٧٩ .

٢٢ ـ الطبـــري ، تاريخ جـ٣ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٨ . خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٨٥ . ابن سيد الناس ، عيون الاثر ، جـ٢ ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ، القاهـــرة ١٣٥٦هـ .

٢٣ ـ الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ، ص ٨٩ .

٢٤ ـ خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

٢٥ ـ الواقدي ، المغازي ، جـ٢ ، ص ٣١ . محمد بن عمر ، تحقيق جونس .

٢٦ ـ المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٨ ، بيروت سنة ١٩٦٣ . علي بن الحسن .

٢٧ _ ابن عساكر ، تاريخ دمشق تحقيق ، صلاح الدين المنجد ، جـ١ ، ص٤١٣ ، دمشق ١٩٥٤ . الواقدي ، كتاب المغازي ، جـ٢ ، ص ٤٠٣ ، جـ٣ ، ٩٨٩ ، القاهرة ١٩٦١ . صالح الحمارنة ، دور الانباط في الفتوح الاسلامية ، مجلة دراسات «الاردنية» المجلد السابع ، العدد ١ ، عمان ١٩٨٠ ، ص ١٦٧ وما بعدها .

٢٧ _ الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ، ص ٣٧ .

٢٨ _ الهمذاني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٩ . ابن خلدون ، العبر ، جـ٢ ، ص ٢٤ . جواد علي ، المفصل جـ٤ ، ص ٢٤٥ .

٢٩ _ Donner, F., The Early Islamic Conquests, pp. 99-101, New Jersey 1981.

Anawati, G., Factors and Effects of Arabizattion and Islamization in Egypt and Syria, p.20, Otto Harrassowitz, wiesbaden 1975.

نودلكه ، امراء غسان ، ص ٤٩_٥٠ الترجمة العربية، بيروت ١٩٣٣.

٣٠ _ البكري ، معجم ما استعجم ، جـ٤ : ص١٢٤١ القاهرة سنة ١٩٥١ . ابن الاثير : اسد الغابة جـ٢ ، ص ١٧٨ .

٣١ _ الواقدي : كتاب المغازي جـ٢ ص ٧٥٥ _ ٧٦٩ تحقيق جونس اكسفورد ١٩٦٦ . الطبري : تاريخ جـ٣ ، ص ٣٦ _ ٤٢ .

٣٢ _ الواقدي ، المغازي : جـ٢ : ٧٥٥ _ ٧٦٩ اكسفورد ١٩٦٦ .

٣٣ _ ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٤ ص ٥٣٦ طهران ١٩٦٥ الزبيدي : تاج العروس جـ ٦ : ص ١٥٤ دار ليبيا للنشر . ابن منظور : لسان العرب (مادة الشرق) جـ٩ : ص ١٧٤ دار صادر بيروت . ف _ حتى : تاريخ العرب مطول ص١٩٩ بيروت ١٩٦١ . محمد كرد علي : خطط الشام ٧/١ دمشق ١٩٦٩ .

٣٤ _ Rothenberg, B., Timma Valley of the Biblical Copper-Mines Coughenour, R, Preliminary Riport on the Exploration London, Themes and Hudeon, (1976).

Coughenour, R., Preliminary Riport on the Exploration of Mugharat el Wardeh and Abu Thạwab, Annual of the Department of Antiquities: XXI, 1976, Amman, Jordan.

٣٥ _ الطبري : تاريخ جـ١ ، ص ١٠٠ _ ١٠١ ، دار المعارف المصرية . البلاذري : فتوح ص ٧١ . ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ، ص ١٤٠ ، صادر ببيروت سنة ١٩٧٩ . محمد كرد علي : خطط الشام جـ ١ ص ٧٤ وما بعدها ، دمشق ١٩٦٩ .

٣٦ _ محمد كرد علي : ن . م جـ١ ، ص ٧٤ .

٣٧ _ الطبري : ن . م ، جـ١ ، ص ١٠٢ _ ١٠٣ . محمد كرد علي : ن . م ، جـ١ ، ص ٧٤ .

٣٨ _ صالح درادكة : لمحات من تاريخ ايلة _ العقبة _ في العصر الاسلامي ص ٦٧ _ ٧٨ مجلة دراسات تاريخية جامعة دمشق العددان ١٥ ، ١٦ ، دمشق ١٩٨٤.

٣٩ _ الطبري : تاريخ ، جـ٥ ، ص ١٥٨ وما بعدها . نبيه عاقل : خلافة بني امية ص ٤١ _ ٤٢ دمشق ١٩٧٢ .

٤٠ _ الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ، ص١٠٨ _ ١٠٩ . محمد كرد علي ، خطط الشام، جـ١ ، ص ٧٥ .

٤١ _ ابن سعد الطبقات ، جـ ١ ، ص ٢٨١ دار صادر بيروت ١٩٥٧ . ابن خلدون ، العبر ، جـ١ ص ٣٣٤ صالح درادكة : لمحات من تاريخ ايلة ، ص ٧٢ .

٤٢ _ لويس شيخو : النصرانية وادابها بين عرب الجاهلية ، جـ٢ ، ص٤٤٨، بيروت ١٩٢٣ .

٤٣ _ الطبري ، تاريخ ، جـ ٣ ، ص ٩٧ .

٤٤ _ ابن الاثير ، اسد الغابة ، جـ٢ ، ص ١٧٨ . البكري ، معجم ما استعجم ، جـ ٤ ، ص ١٢٤١ القاهرة ١٩٥١ . ابن خلدون ، العبر ، جـ ٢ ، ص ٥٢٥ دار الكتاب البناني بيروت . الزركلي ، الاعلام جـ٥ ، ص ٩٤٥ . مصطفى الدباغ ، فلسطين بلادنا جـ١ قسم ١ ، ص ٧٠٨ .

٤٥ _ Donner. F., The Early Islamic Conquests, p.105, p.304.

٤٦ _ مصطفى الدباغ ، فلسطين بلادنا ، جـ١ قسم ١ ص ٧٠٨ .

٤٧ _ اليعقوبي ، تاريخ جـ٢ ، ص ٤٩ _ ٥٢ ، صادر بيروت .

٤٨ _ سورة الحشر ٢ .

٤٩ _ اليعقوبي ، ن ، م ، جـ ٢ ، ص ٥٢ .

٥٠ _ ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٢٤ . ابن رستة ، الاعلاق النفسية ، ص ٢٢٥. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٣ ، ص ٥٧٢_٦٢٩ .

بيروت ١٩٦٨ _ ١٩٧٢ ، عبد العزيز الدوري ، اليهود في المجتمع الاسلامي عبر التاريخ ضمن كتاب « القضية الفلسطينية » ص ٧٩ _ ١٢٠ الموصل ١٩٨٣ .

٥١ _ حمد الجاسر ، في شمال غرب الجزيرة ص ٢٣٦ دار اليمامة : الرياض . ابن هشام : السيرة ، جـ ٣ ، ص ٢٤٨ طبعة الحلبي القاهرة .

٥٢ _ شاكر مصطفى . العرب والاسلام وفلسطين عبر التاريخ ضمن كتاب «القضية الفلسطينية » ، ص ٣٢ _ ٣٣ ، الموصل ١٩٨٣ . نقلاً عن :
Josaphos, Antiquities, Books XII, eh. 15, p.4.
انجيل مرقس ١٤ / ٧٠ ومتى ٢ ، ١ . فليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان جـ١ ، ص٢٧٣ وما بعدها بيروت ١٩٥٨ .

٥٣ _ الطبري ، جـ١ ١٧٧٩ (الاوروبية) . ابن سعد ، جـ١ ، ٧٢ .

٥٥ _ فكتور سحاب ، من يحمي المسيحيين العرب ، المستقبل العربي ، ص ١٣٠ _ ١٦١ ، ٨ /١٩٨٠ بيروت .

٥٦ _ Chronnique de Michel, Le Syrien Patriarche Jacobite d'Antioche, ed. and trans. J.B., Chabot, Paris (1905), XI,U.
عن مقالة Anawati, G., Factors and Effects., pp; 20 – 44.

٥٧ _ الازدي ، فتوح الشام ٢٩ ، القاهرة ١٩٦٩ .

٥٨ _ الطبري ، تاريخ ٣ (٥٧٠ _ ٧٥١) . ابن خلدون : العبر ، ٢ ، ٤٦٦ ، الواقدي ، فتوح الشام ص ١٠٧ . البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٠ ..

٥٩ _ الازدي ، فتوح الشام ، ٢١٨ ، ٢٢٧ ، القاهرة ١٩٦٩ .

٦٠ _ اليعقوبي ، بلدان ص ٢٣٠ .

٦١ _ اليعقوبي ، تاريخ ، ٢ ، ١٥١ بيروت ١٩٦١ . البلاذري ، فتوح ١٤٧ _ ١٤٨ .

٦٢ _ محمد كرد علي ، خطط الشام ، جـ١ ، ص ٩١ .

٦٣ _ اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، بيروت ١٩٦٠ .

٦٤ _ ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣٧٤ _ ٣٧٥ ، المطبعة الازهرية ، القاهرة ١٩٦٨ .

٦٥ _ ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ١٥٣ E.I.2 طبري ، تاريخ ، جـ٤، ص٥٦ وما بعدها .

٦٦ _ Conrad, L.I., The paagae in Bilad al-Sham in pre-Islamic Times, (A Paper for Bilad al - Sham Conference, Amman, Oct, 1983.

٦٧ _ ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ، ص ١١٦ الطبعة الاوروبية . المقريزي ، الخطط ، جـ٢ ص ٢٩٦ _ ٢٩٨ ، بولاق ١٢٧ هـ ، ١٨٥م .

Kubiak, W., Al Fustat, its Fondation and Early Urban Development, pp. 83 - 97, Warsau, 1982.

٦٨ _ القلقشندي ، نهاية الارب ص ٢٠٦ _ ٢٠٧ ، القاهرة ١٩٥٦ .

مروان بن الحكم والخلافة

اود في هذا البحث ان اعود الى بدايات مساعي مروان بن الحكم للوصول الى الخلافة ، مبيناً ان مروان قد سعى الى السلطة منذ وقت مبكر ، وليس صحيحاً الرأي ان مروان لم يكن يفكر بالخلافة ، وانه شجع في ظروف خاصة انتهزها ليصبح خليفة المسلمين . وقد رأيت من المناسب ان اورد نصوصاً قد تكون طويلة وكثيرة ، ولكن لها أهمية في توضيح الموضوع .

لقد كان مروان بن الحكم _ كما يرد في المصادر الاولى _ في عهد ابن عمه عثمان بن عفان رضي الله عنه جليس الخليفة وكاتم سره وكاتب الدولة الذي يكاد الخليفة _ خاصة في السنوات الاخيرة من حكمه _ لا يخرج في شؤون الدولة عن امره في شيً حتى قيل ان من الاسباب التي ادت الى نقمة الناس على الخليفة تقريبه مروان وطاعته له(١) ، ويرون ان كثيراً مما ينسب الى عثمان لم يأمر به ، وان ذلك عن رأي مروان دون عثمان . تذكر المصادر ان مروان كان قد اشترى خمس غنائم الحملة على افريقية من عثمان اذ قدم عليه مبشراً فوهبها له .. وقالوا اشترى مروان خمس غنائم افريقية وقيمته اربعمائة الف دينار بمائة الف دينار من عبدالله بن ابي السرح . فلما قدم المدينة ادى بعضه ووهب له عثمان الباقي(٢) وكذلك تذكر المصادر ان مروان اخذ غنائم خمس ارمينية(٣) . ومع ان هذه الروايات لا تخلو من مبالغة فانها تشعر بان مروان قد اكتسب خبرة واسعة في تصريف شؤون الدولة في خلافة عثمان .

---

* نشرت في مجلة دراسات تاريخية _ جامعة دمشق العدد السادس اكتوبر ١٩٨١ .

معلوم ان مروان عاش بعد وفاة ابيه الحكم بن ابي العاص في كنف ابن عمه الخليفة « وكان عثمان يكرمه ويعظمه » فلما حوصر الخليفة عثمان كان مروان يقاتل دونه أشدّ القتال .. وحين اجتمع المهاجرون على باب الخليفة ، « وقد ركب بعضهم بعضا قام مروان وبأمر من الخليفة نفسه فكلمهم واغلظ لهم القول ، ومما قاله : **جئتم لنزع ملكنا من أيدينا والله** لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم ، ارجعوا الى منازلكم فأنا والله ما نحن مغلوبون على ما في ايدينا »(٤) .

وحين وقعت المأساة وقتل الخليفة الشيخ كان مروان قد جرح جرحاً عميقاً وهو يذود عنه « وقد ضرب يومئذٍ كعبه ما يظن الا انه قد مات مما به من الجراح .. ووقع على وجهه فأرادوا أن يبضعوا عليه فقيل تبضعون اللحم فترك »(٥). والذي يهمنا ان نؤكده هنا هو شعور مروان بن الحكم العميق ان الملك أصبح ملك بني امية وفي ايديهم . وذلك منذ ان تمكن اقرباء الخليفة الورع عثمان منه واخذوا يوجهون امور الدولة الوجهة التي فيها صالحهم وصالح من يمثلون من الامة .

وبعد وفاة الخليفة عثمان ووقوع الفتنة الكبرى في الاسلام احس مروان ان الاحداث قد تجاوزته ، اذ قام معاوية بن ابي سفيان ومن موقعه المميز في الشام يطالب بدم الخليفة المقتول فاصبح هو المتكلم بأسم بني امية خاصة والغاضبين لقتل عثمان عامة فلم يكن لمروان دور خاص ، ولكنه لم ينزو بل نراه فعالاً نشطاً في كل الاحداث التي تبعت ذلك . فكان من المعارضين للامام علي ومن ابرز خصومه في معركة الجمل .

ان بروز مروان في معركة الجمل بالذات ورميه لطلحة بن غبيد بسهم كان سبب وفاته ينبئ بما في نفس الرجل من طموح للخلافة وتطلع للوصول الى الحكم . فهو حاقد على طلحة منذ زمن بعيد . وحين رماه التفت الى ابان بن عثمان وقال له : « قد كفيناك بعض قتلة أبيك » . وشارك مروان في معركة صفين وفي التحكيم(٦).

وحين تسلم معاوية بن ابي سفيان الخلافة ولى مروان بن الحكم البحرين ثم ولاه المدينة المنورة أكثر من مرة . واسناد امارة المدينة لاموي امر تفرضه ظروف معاوية ولكن لخوف معاوية ابن ابي سفيان من تقوية نفوذ مروان كان يلجأ الى ابداله بأموي اخر(٧) . ولكن اين مكانة مروان كأمير على المدينة أيام معاوية من مكانته ايام الخليفة عثمان ، حين كان كاتباً للدولة والرجل المتنفذ في شؤونها ، فلا عجب ان ينظر مروان الى ابن عمه الخليفة في دمشق بعين غير عين الرضا . سيما حين أخذ معاوية بابراز ولده يزيد وتقريب زياد بن ابيه وادعائه انه اخوه عندما احس مروان بعمق ان معاوية عازم على تقوية بيت ال حرب على حساب الاسرة الاموية كلها . وقد شاركه هذا الاحساس بقية بني امية من سكان المدينة خاصة .

وقد جاء في كتاب الموفقيات حديث شيق ولكنه طويل يكشف عن مخاوف بني أمية هذه وعن جزعهم الجزع كله حينما ادعى معاوية زياداً وأثر عمرو بن العاص على أهل بيته وقربهما دونهم . يقول الزبير بن بكار « فاجتمعوا (بنو امية) في ذلك فأتوا مروان بن الحكم في بيته ، وقد كتب له معاوية عهده على المدينة فقال القوم : يا مروان ، انك شيخنا وكبيرنا وقد ترى ما ركبنا معاوية من امر

ليس لنا عليه صبر ولا قرار ولا ينام على مثله الاحرار ادخاله فينا من ليس منا يريد ان يدخله على حرمنا ونسائنا . وقد اجتمع رأينا على أن تأتيه فتعاتبه فان رجع قبلنا وان ابى اعتزلنا . فقال مـروان : قد والله كلمته في هذا الامر غير مرة فلم يجبني الى شيءٌ مما احب بل يظهر لي التعتب والتغضب ويزعم اني في هذا الامر اوحد . فقال له سعيد بن العاص : يا مروان ، بل والله تحامي على عهدك . فقال مروان : والله لصلاحكم في فساد عهدي احب الي من فسادكم في صلاح عهدي فأتوه فانه رجل له ارب ونظر فكلموه بملءْ افواهكم » .

قال : فانطلق القوم فاستأذنوا على معاوية . فأذن لهم . فسلموا فأحسن الرد وكان فيما قال : اهلاً وسهلا ، قرب الله الديار وادنى المزار ، ازيارة فتحظى ؟ ام حاجة فتقضى ؟ ام سخطة فترضى ؟ فقالوا : كلا يا أمير المؤمنين . قال : هاتوا فجلس القوم ومثل عبدالرحمن بن الحكم (اخو مروان الشاعر المشهور) بين يديه فقال ، واكثر القول من فصيح الكلام وبليغه ، ومما قاله : « يا أمير المؤمنين ، جاءتك عصابة من رهطك واحرار من اسرتك ، كلهم عارف بفضلك راع لحقك . تابع لامرك ، رافع لذكرك ، في امر ستره من نشره ، وتركه خير من ذكره لعظم البلية والخطيئة واللأواء والبلوى والآفات والعامات ، وأعلم انا لم نأتك تجنياً ولا تجرماً ولا تعتبا ، بل جئناك في امر قد عجزت عن حمله الجنوب وضاقت به القلوب وكرهنا ان نطويه عنك فيثبت ذلك في قلوبنا ما لا يحصد لابأنه ولا يبيد لزمانه ، فان تأذن قبلنا وان تأب صمتنا مع انك ان رجعت الى ما نحب حمدنا وشكرنا وان تاب ذلك سمعنا واطعنا ، فقال معاوية : هات لله أبوك . قال : يا أمير المؤمنين ان

امية بن عبد شمس ولد عشرة ذكور ، ولد حرباً وأبا حرب وسفيان وأبا سفيان ، وعمرو وأبا عمرو والعاص وأبا العاص ، والعيص وأبا العيص ، لم يلد عبيداً عبد ثقيف ، ولا العاص بن وائل ، وقد جعلتهما شعارك دون دثارك بل سربالك دون ازارك ، بل نفسك بين جنبيك . ثم لم ترض لابن عبيد حتى جعلته ابن أبي سفيان عضيهة لابيك ، وازدراء ببنيك ، مع ان في ذلك السخطة من ربك ، والمخالفة لنبيك (صلعم) اذ قضى بالولد بالفراش وللعاهر الحجر، واسترسل هكذا . ثم تكلم عن عمرو بن العاص ومما قاله «فانك الزمت نفسك الحاجة اليه فالزم نفسه الغنى عنك وايم الله لنحن انصح جيوباً وأقل عيوباً ، وأمس رحما واوجب حقاً منه .. ثم قام سعيد بن العاص وتكلم بنفس الروح واللهجة ومما قاله في زياد .. «وانظر ما الذي اقدمت عليه من انك عمدت الى امرىء لا رحم بينك وبينه ولا هوادة ، وانما عهدك به بالامس وهو عامل علي بن ابي طالب يلعنك ويلعن اباك وأهل بيتك على المنبر يتأول فينا القرآن والبهتان ، وقد كنت تختزي من ذلك اذا عظمته ان تجعله وزيرا ، فلم ترض حتى نسبته الى أبي سفيان الى نسب .. وايم الله لكأني انظر الى ولده من بعده قد تنخذوا نساء بني عبد شمس بنسب ابي سفيان ، فهذا ما وصلت به كرائمك من بعدك . واما عمرو بن العاص فقد اثرته علينا وادنيته دوننا ونحن في حال وعمرو في اخرى ، اما نحن فنعامل الناس بالوفاء والحياء وعمرو يعامل الناس بالمكر والخداع ، ومن كان كذلك فلا وفاء له ، وقد تبين لامير المؤمنين غشه اياه .. ثم دخل مروان عند جلوس القوم ، فقال معاوية : هيه يا مروان ، اعن رأيك صدر هؤلاء حتى اسمعوني ما اكره ؟ فرد مروان على معاوية رداً يكشف جوهر القضية وهو

الخلاف بين بيت ابي العاص وبيت ال حرب . ومما قاله مروان ..
«اعلم انا غير متعرضين لشيً من معاتبتك فان ترجع قبلنا وان تأب سخطنا مع انك والله يا أمير المؤمنين لو قدرت ان تتكثر بالذبح على ال أبي العاص لفعلت توحشاً منك لعددهم وتكرماً منك لجمعهم وتبرما منك بهم . وايم الله ماذاك جزائهم منك . لقد اثروك واكرموك فما كافيت ولا جازيت ولا اسيت » . ثم جلس مروان وقام معاوية فدخل المنزل واطال المكث _ ويبدو لي انه اجتمع مع عمرو بن العاص الذي كان حاضراً وتبادل معه الرأي واتفقا على الرد على القوم وتقاسم الدور بينهما _ ثم خرج معاوية قاطباً ما بين عينيه يمسح عارضيه ، ثم جلس على سريره واستقبل القوم وكان رده يتركز على امرين هامين بالنسبة لنا ، الاول قوله : « وايم اللـــه .. ما لي نظرتم ، بل ادرككم الحسد القديم لبني حرب بن امية » . والامر الثاني : « انكم ذكرتم اني اصبت السلطات والملك بحتكم ونسبكم فوالله انكم لتعلمون يا آل ابي العاص ان عثمان ابن عفان _ رحمة الله عليه _ قتل وانتم حضور وانا غائب ، فوالله ما كان فيكم من مد باعا ولا بسط ذراعا ، بل اسلمتموه للحتوف .. حتى كنت انا الطالب بالتراث ، ولقد منيت في الطلب بدمه بحرب امرئً لاتخو قناته ولا تنصدع صفاته .. فلم أزل له ولاصحابه صابرا حتى قضى الله من ذلك ما أحب ... فأدركت في الثأر اذ لم تدركـــوا .. وصبرت اذ لم تصبروا فاننا احق بالشكر انا لكم اما أنتم لي ؟

وأما عمرو بن العاص فهامو حاضر فان شاء ان يجيب عن نفسه فليفعل ، ثم سكت ، فقام عمرو بن العاص فرد رداً ذاد به عن نفسه وابرز دوره . ثم وقف وطلب من امير المؤمنين : « انا اسألك يا

أمير المؤمنين ان تعفوا للقوم ما قالوا ان هم آلو لاستتمام نعمتك عليهم واياديك عندهم . فليسوا راجعين الى ما تكرهه ان شاء الله . فقال معاوية : قد فعلت يا أبا عبدالله . ودخل وامر القوم فانصرفوا »(٨) .

هذا الموقف لبني أمية جميعاً يدل بوضوح انهم يرون ان الملك انما هو ملك أموي ويجب ان يبقى كذلك . وانهم لا يريدون اشراك شخصيات بارزة من خارج البيت الاموي في السلطة . ومع هذا كله هم لا يريدون لمعاوية أن يقوي بيت أبي سفيان على حساب البيت الاموي الكبير وان يبقي الزعامة فيه . لذا نرى ان التنافس بين البيوتات الاموية الكبرى شديد ما بين ال ابي العاص . ويمثلهم مروان بن الحكم . وبيت ال ابي سفيان ويمثلهم معاوية وال العاص ويمثلهم سعيد بن العاص . وكثيراً ما كان معاوية يحذر بني امية مغبة هذا الخلاف وهذا التنافس ويود ان يجمعهم تحت جناحه خوفاً ان يبرح هذا الامر ـ الخلافة ـ عنهم . « لاخبرنكم عني يا بني أمية . لن يبرح هذا الامر فيكم . ما عظمتم ملوككم فاذا تمناها كل امرئ منكم لنفسه وثب بنو عبدالمطلب في اقطارها وقال الناس : ال رسول الله فكانت فيكم كحجر المنجنيق يذهب امامه ولا يرجع وراءه »(٩) .

لم يرتح معاوية الى وجود التفاهم بين بيتي ابي العاص والعاص الذين غالبيتهم كانوا يعيشون حتى ذاك الوقت في المدينة المنورة . لهذا لم يرق له هذا اللقاء بينهم فقد حاول ان يثير التناحر بين فروع الاسرة الاموية لكي يضعف بذلك توتهم واجتماعهم وبالتالي يمنع وحدتهم ضده . فيذكر البلاذري ان معاوية كان يغري بين سعيد بن العاص ومروان بن الحكم بن ابي العاص

فكتب مرة الى سعيد بن العاص وهو انذاك عاملة على المدينة ، يأمره بهدم دار مروان ولكن سعيداً لم يفعل بما أمر به . فاعاد الامر عليه فلم يفعل . في حين لما ولي مروان بن الحكم المدينة كتب اليه معاوية بهدم دار سعيد فأرسل مروان الفعلة وركب ليهدمها ، فقال له سعيد : يا ابا عبدالملك : اتهدم داري ؟ قال : كتب أمير المؤمنين الي في هدمها . فبعث سعيد فجاء بكتاب معاوية اليه في هدم دار مروان فقال مروان : يا أبا عثمان كتب اليك بهذه الكتب فلم تعلمني ؟ قل ما كنت لامرر عليك عيشك وانما اراد ان يغري بيننا ، فقال مروان : فداك أبي وامي فانك اكرمنا ريشا وعقبا ، وامسك عن هدم داره(١٠) . وقد جاءت هذه الرواية عند الطبري ان معاوية كان يغري بين مروان وسعيد بن العاص وانه طلب من سعيد زيادة على هدم دار مروان ان يقبض اموال مروان كلها فيجعلها صوافي ، وان يقبض فدك منه _ وكان وهبها له _ فلما عزل سعيد عن المدينة ووليها مروان بعده امره معاوية « ان يقبض أموال سعيد بن العاص بالحجاز » وحين هم مروان بتنفيذ امر الخليفة يأتيه سعيد بالكتب المرسلة اليه من معاوية _ وكان قد حفظها كما يذكر الطبري عند جارية له _ وينكشف الامر لمروان فيقول : « كان سعيد اوصل لنا مناله » . اما سعيد فقد كتب لمعاوية بن ابي سفيان معاتباً : العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا ان يضغن بعضنا على بعض .. فأمير المؤمنين في حلمه وصبره على ما يكره الاجنبيين وعفوه وادخاله القطيعة بيننا والشحناء وتوارث الاولاد ذلك ، فوالله لو لم نكن من بني اب واحد الا بما جمعنا الله عليه من نصر الخليفة المظلوم ، واجتماع كلمتنا لكان حقاً علينا ان نرعى ذلك ، والذي ادركنا به خير » . فكتب اليه معاوية يتنصل من ذلك ، وانه عائد الى احسن ما يعهده(١١).

من هذه الروايات نتحسس صدق وصفاء سعيد بن العاص في حين يتبين لنا واقعية مروان . ونعجب أكثر لصفاء طوية سعيد من حديث جاء في البيان والتبيين كان دار بين سعيد بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان . قال الجاحظ : قدم سعيد بن العاص على معاوية فقال معاوية : كيف تركت ابا عبدالملك ؟ فقال : منفذاً لامرك ضابطاً لعملك فقال له معاوية : انما هو كصاحب الخبزة كفى انضاجها فأكلها . فقال سعيد : كلا انه بين قوم يتهادون فيما بينهم كلاماً كوقع النبل . سهماً لك وسهماً عليك . قال : فما باعد بينه وبينك ؟ فقال : خفته على شرفي وخافني على مثله ، قال فأي شئ كان له عندك في ذلك ؟ فقال : اسوءه حاضراً وأسره غائباً . قال : يا ابا عثمان . تركتنا في هذه الحروب ، قال : نعم تحملت الثقل وكفيت الحزم . وكنت قريباً لو دعيت لاجبت ولو امرت لاطعت . فقال معاوية : يا أهل الشام هؤلاء قومي وهذا كلامهم(١٢) . من هنا نرى أن معاوية بن ابي سفيان كان مدركاً لوضع مروان بن الحكم المميز في المدينة المنورة فهو يتخوف من نفوذه وقوته . وان هذه القوة ستزداد الى الدرجة التي تهدد مصلحته ومصلحة ولده يزيد . فهو يوليه حيناً ويعزله آخر . ويوقع بينه وبين قومه ويوغر بينهم الشحناء ، ومروان بدوره مدرك لهذا الذي يجري واع لما يخطط الخليفة في الشام . فهو يستغل مكانته المميزة هذه وقرابته من الخليفة المغدور وبلائه في الفتح ، كل ذلك الى جانب شخصيته القوية ، حيث تذكر المصادر ان مروان كان لبقاً فصيح اللسان سباباً ، يعالج الشعر ، وانه كان من خطباء قريش .. وقد لقب بخيط باطل لطول عنقه وقد بنى مروان في المدينة المنورة داراً واسعة اشتهر ذكرها كانت ملتقى الناس ووجوه القوم(١٣) . ويذكـــــر

ابن سعد في طبقاته ان مروان بن الحكم في ولايته على المدينة كان يجمع اصحاب رسول الله ويستشيرهم ويعمل بما يجمعون عليه(١٤). وقد اتى مروان مسلم بن عقبة المرى بعد وقعة الحرة .. بعلي بن الحسين يطلب له الامان بعد ان استجار علي به وبولده عبدالملك(١٥).

من هذه الاحداث وهذه الفعاليات تتكون لدينا صورة تكاد تكون واضحة عن مروان بن الحكم هذا الرجل القوي المتنفذ في بيته والذي يعمل بدقة وتؤده ضمن خطة واضحة يسعى لتنفيذها بكل ما اوتي من قوة وبراعة ، فهو ابن عم أمير المؤمنين عثمان ، وقد امر مرات ونزع مرات ، كل ذلك لا يسخط ولا يخالف ولا يعزل عن خيانة .

ومروان بدوره يكيل لمعاوية بن ابي سفيان بنفس الصاع الذي كان رجل بني حرب يكيل له فيها فهو يغري ابناء عثمان ويحرضهم على معاوية ويقول لهم ان الرجل لم يأخذ الامر الا باسمكم واسم ابيكم . يذكر مصعب الزبيري في كتابه (نسب قريش) ان مروان بن الحكم قال لعمرو بن عثمان بن عفان وهو اكبر بني عثمان «ما اخذ هؤلاء _ يعني بني حرب بن امية _ الخلافة الا باسم ابيك ، فما يمنعك ان تنهض بحقك فنحن اكثر منهم رجالا» .. وعدد رجالهم ، ثم اضاف « ومنا فلان وهو فضل وفلان وهو فضل ، فعدد فضول رجال ابي العاص على رجال بني حرب»(١٧) .

وتكتمل الصورة حين نعلم ان احدى بنات معاوية بن أبي سفيان واسمها رملة كانت زوجاً لعمرو بن عثمان وكان لها منه ولدان ، ومرة طلب معاوية من مروان حين رده اميراً على المدينة ان يرسل ابنته هذه كي تزوره ، ويظهر ان معاوية اراد عن طريق

ابنته ان يتحسس ويستشف مافي نفوس القوم . فحين جاءت ابنته لزيارته سألها : «يا بنية كيف رضاك عن عمرو بن عثمان زوجك ؟ قالت : والله ما يزال بنو العاص يتكثرون علينا بعددهم حتى لوددت ان ابني هذين منهم في البحر . قال : يا بنية ان هذا منك كبير ونحن كنا اشقى بمناوءة الرجل من ان تكوني رجلا »(١٨) .

ويبرز لنا ولد اخر من ابناء الخليفة عثمان لينافس بني حرب في الخلافة . _ هو سعيد بن عثمان الذي يصفه صاحب كتاب (الامامة). «بشيطان قريش ولسانها»(١٩) فبعد ان عهد معاوية لابنه يزيد بالخلافة كما هو معروف يغضب لذلك سعيد بن عثمان اشد الغضب ويأخذ ببث الدعاية لنفسه في المدينة المنورة حتى ان البلاذري يروي لنا ان صبيان أهل المدينة وعبيدهم ونسائهم اخذوا يهزجون .

والله لا ينالها يزيد حتى ينال رأسه الحديـــــد

ان الامير بعده سعيـــــد

_ اي بعد معاوية _ وحين قدم سعيد بن عثمان على معاوية قال له معاوية : يا ابن اخي ما شيْ بلغني يقوله اهل المدينة ؟ قال : وما تنكر من ذلك يا معاوية . والله ان ابي لخير من أبي يزيد وان امي لخير من امه * واني لخير منه ، ولقد استعملناك فما عزلناك ووصلناك فما قطعناك . وصار امرنا في يدك فحلأتنا منه اجمع . فقال معاوية : قد صدقت في قولك ان اباك خير مني ، وان امك خير من امه ، لان امك من قريش وامه امرأة من كلب . واما قولك

* أم سعيد هي فاطمة أم عبدالله بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزومي . البلاذري (انساب ج ٥ ص ٦١٥ _ ٦١٦) .

انك خير منه فوالله ما يسرني ان بيني وبين العراق حبلاً نظم فيه أمثالك . ثم قال له الحق بعمك زياد فقد امرته ان يوليك خراسان(٢٠). ويقال ان يزيد بن معاوية نفسه حث والده على اكرام سعيد لاسكاته ، وفعلاً ولي سعيد خراسان وفتح سمرقند آنذاك وقد اصيبت احدى عينيه اثناء الفتح .. ولكن معاوية خاف ان تقوى شوكته فيطلب الخلافة فعزله ، ورجع الى المدينة حيث مات فيها قتيلا . على يد غلمان له(٢١) .

لم يكتف مروان بتشجيع اولاد عثمان وحثهم للتحرك ضد معاوية وضد بيعته لولده يزيد ، بل اننا نتحسس بعمق ان الدعاية المروانية اخذت تروج لاحاديث تنسب للرسول عليه السلام ، احاديث على الارجح انها موضوعة وربما متأخرة ، مفادها ان الخلافة سوف تؤول الى اولاد الحكم بن ابي العاص . ومن هذه الاحاديث ما جاء في كتاب (الامتاع والمؤانسة) للتوحيدي ، قال : «حدثني الحكم بن هشام الثقفي قال : مات عبيد الله بن جحش عن ام حبيبة بنت ابي سفيان ، وكانت بأرض الحبشة ، فخطبها النبي (صلعم) الى النجاشي فدعا بالقرشيين فقال : من أولاكم بأمر هذه المرأة ؟ فقال خالـــد بن سعيد بن العاص : انا اولاهم بها ، قال : فزوج نبيكم ، قال : فزوجه ومهر عنه اربعمائة دينار ، فكانت اول امرأة مهرت اربعمائة دينار ثم حملت الى النبي (صلعم) ومعها الحكم بن ابي العاص فجعل النبي يكثر النظر اليه ، فقيل له : يا رسول الله ، انك لتكثر النظر الى هذا الشاب ، قال : اليس ابن المخزومية ، قالوا ، بلى ، قال : اذا بلغ بنو هذا اربعين رجلا كان الامر فيهم(٢٢) . وروى عن الرسول انه قال في الحكم «كأني ببنيه يصعدون منبري وينزلون»(٢٣) .

وكان مروان اذا جرى بينه وبين معاوية كلام ـ مشادة ـ قال لمعاوية : « والله اني (لابو) عشرة واخو عشرة وعم عشرة وما بقي الا عشرة حتى يكون الامر في . فيقول معاوية بن أبي سفيان اخذها والله من عين صافية »(٢٤) .

ويذكر ابن عساكر رواية على لسان معاوية مفادها ان معاوية قد أجاب حين سئل لمن هذا الامر من بعدك يا أمير المؤمنين ؟ فأجاب معاوية بعد أن استعرض أولاد الصحابة من أشراف قريش وحين يأتي الدور ليذكر مروان ابن الحكم يقول فيه : « اما القارئ لكتاب الله الفقيه في دين الله الشديد في حدود الله فمروان بن الحكم » ويذكر هذا المعنى الزبيري والبلاذري وغيرهما(٢٥) . ويزيد عليهم ابن كثير فيقول : « ان الحسن والحسين كانا يصليان خلف مروان(٢٦) » وليس في هذا غرابة اذ ان مروان كان أمير المدينة .

نحن نعلم ان معاوية بن ابي سفيان قد سعى السعي كله لكي يعد ولده يزيد ليتولى الخلافة من بعده ، انطلاقاً من قناعته ان في هذا مصلحة بيته ومصلحة جميع المسلمين . وقد سلك كل طريق لتوصله الى هذه الغاية .... ونحن نعلم أيضاً أن عدداً من خلصاء معاوية ومعاونيه أمثال المغيرة بن شعبة والضحاك بن قيس قد وقفوا الى جانب معاوية ينصرونه في هدفه هذا وقد ساعدوه كل المساعدة لتحقيقه . وكان طبيعياً أن يكون رد أبناء الصحابة الأولين وابناء الخلفاء السابقين ، أمثال الحسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمن بن أبي بكر ، أن يكون الرفض وعدم الموافقة ، وموقفهم هـــذا معروف جيداً ، تحدثت فيه كتب التــاريخ قديمهـــــا وحديثهـــــا ، ولكن موضوع حديثنا

هو : ترى ما هو موقف مروان بن الحكم بالذات من هذه القضية وكيف كانت ردة الفعل عنده ؟

لا شك أن مروان بن الحكم كان بينه وبين نفسه يقر لمعاوية بالخلافة وبانه كان الرجل الكفؤ الذي قام بالامر بعد مقتل الخليفة عثمان وأن الظروف الموضوعية التي احاطت بمعاوية من امرته في بلاد الشام لمدة طويلة اعطت الرجل الأرض الصلدة التي استطاع الوقوف عليها بقوة وان ينطلق منها ليتصدى لرجل من اعظم رجال الإسلام وابرز القرشيين نسبـــــاً وشجاعة، وكما يقول معاوية نفسه «ولقد منيت فـــــي الطلب بدمه (دم عثمان) بحرب امرئ (هو الإمام علي) لا تخور قناته ولا تنصدع صفاته. من ان فزعت لم يفزع وان اطمعت لم يطمع من لا يطمع في قراره، ولا ينام في حذاره، بليت _ والله _ بليث ثابتة انيابه ، قليل غلابه ، مصمم غضوب . شثن مهيب(٢٧) » لذا فمروان يقر لمعاوية بالخلافة ويوليه نصحه ويضع نفسه في خدمة حكمه الذي يرى فيه مروان قبل كل شئ حكماً اموياً ، كل هذا يبدو منطقياً وصحيحاً ولكن ، ان ينقل معاوية الخلافة من بعده لولده يزيد فهذا مالا يقره مروان ولا ينصاع اليه ابن الحكم ، وخير صورة لردة الفعل عنده على بيعة يزيد نجدها في كتاب (الامامة والسياسة) اذ يذكر صاحب الكتاب ان مروان خاطب معاوية قائلاً : « جئتم بها هرقليـــــــة ، تبايعون لابنائكم(٢٨) » ويرد تفصيل هذا في الكتاب نفسه (الامامة والسياسة) فيقول المؤلف «بايع معاوية ليزيد بعد وفاة الحسن رضي الله عنه في الشام وكتب ببيعته الى الآفاق وكان عامله على المدينة . مروان بن الحكم فكتب اليه يأمره بجميع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ثم ليبايع يزيد بن معاوية قال : فلما قرأ مروان كتاب معاوية أبى من ذلك وأبته قريش ،

فكتب الى معاوية : ان قومك قد أبوا إجابتك الى بيعتك لابنك فرايك . فلما بلغ معاوية كتاب مروان عرف ان ذلك من قبله . فكتب يـــــأمره ان يعتزل عمله ويخبره ان قد ولىّ المدينة سعيد بن العاص(٢٩) . هـــــــذه ردة الفعل عند الرجلين مروان يرفض ومعاوية يعزل مروان عــــن ولاية المدينـــــة وهذا الأمر متوقع جداً . فقد جاء في كتاب (الامامة والسياسة) المنسوب لابن قتيبة شرح واف لردة الفعل هذه عند مروان بعد عزله هــــــذه المرة ، فيقول : « لما بلغ مروان كتاب معاوية بعزله ، اقبل مغاضبا في أهل بيته وناس كثير من قومه حتى نزل بأخواله من بني كنـــــانة ، فشكا اليهم وأخبرهم بالذي كان من رأي معاوية ، في عزله واستخلافه من غير مشورة مبادرة له . فقالوا : نحن نبلك فـــــي قربك ، وسيفك في يدك ، فمن رميته بنا أصبناه ، ومن ضربته بنا قطعناه ، الرأي رأيك ونحن طوع يمينك . ثم أقبل مروان في وفـــــد منهم كثير ومَنْ كان معه من قومه وأهل بيته حتى نزل دمشق ، فخرج فيهم حتى أتى سدة معاوية وقد اذن للناس ، فلما نظر الحاجب الى مروان ، والى كثرة معه من قومه وأهل بيته منعه من الدخول فوثبوا اليه فضربوا وجهه حتى خلى عن الباب ، ثم دخل مروان ودخلوا معه حتى اذا كان من معاوية بحيث تناله يده ، قال بعد التسليم عليه بالخلافة ، « اقم الامر يا ابن أبي سفيان واهدئ من تأميرك الصبيان ، واعلم ان لك في قومك نظراً وان لهم على مناوءتك وزرا » فغضب معاوية من كلامه غضباً شديدا ثم كظم غيظه بحلمه ، واخذ بيد مروان ثم قال : ان الله قد جعل لكل شئ اصلا وجعل لكل خير أهلا ثم جعلك في الكرم مني محتدا ، والعزيز مني والدا ... فأنت ابن ينابيع الكرم فمرحباً بك وأهلاً ابن عم ..

وقد أصبحنا في أمور مستحيرة ذات وجوه مستديرة ، وبك والله يا ابن العم نرجوا استقامة اودها ... فأنت نظير أمير المؤمنين بعده . وفي كل شدة عضده ، واليك عهد عهده ، فقد وليتك قومك واعظمنا في الخراج سهمك وانا مجيز وفدك ، وعلى أمير المؤمنين عناك والنزول عند رضاك . « فكان أول من رزق ألف دينار في كل هلال . وفرض له في أهل بيته مئة مئة »(٣٠) .

ويلخص لنا المقدسي في كتاب البدء والتاريخ موقف مروان هذا بسطور قليلة اذ يقول « بعد أخذ البيعة ليزيد ، كتب (معاوية) الى مروان بن الحكم بأخذ بيعة أهل المدينة ليزيد _ عليه اللعنة _ ، فغضب مروان اذ لم يجعل اليه الأمر ، فسار الى الشام فكلمه ، وجعله ولي عهد يزيد بعده ورده الى المدينة(٣١) . يظهر ان مروان قد قبل الأمر الواقع وقبل بهذه الترضية ، اذ ادرك بحنكته السياسية ان المصاعب التي سوف يواجهها يزيد كثيرة ومعقدة وصعبة ، واحس ان أي تحرك من جانبه وجانب الأمويين في المدينة سوف يربكه وان نتائجه لن تكون في صالح البيت الأموي عموماً ولا في صالحه خصوصاً ، بل يبدو ان الأمر ربما سيخرج من أيديهم ، لذا نرى مروان مرة ثانية يقف موقف الناصح لبيت آل حرب . صحيح ان علاقة مروان بن الحكم مع والي يزيد على المدينة المنورة الوليد بن عتبة السفياني كانت قد تميزت بالجفاء وعدم الود ، وكان مروان لا يأتي الا « معذرا متكارها » حتى ان الوليد شتمه في مجلسه ، وذلك مرده الظاهر هو اختلاف وجهات النظر بين الرجلين خاصة بالنسبة لمعاملة الحسين بن علي ، اذ تميزت علاقة الوليد بالحسين بالتسامح ، ولكن يبدو لنا ان التنافس والتنافر

بين الرجلين هو بالحقيقة انعكاس للتنافس بين البيتين الامويين اللذين يمثلاهما(٣٢) .

وعند انتفاضة أهل المدينة ضد يزيد واخراج بني أمية قسراً منها وأخـــذ الوعد منهم الا يعودوا اليها مع جيش الشام القادم اليهم ، نجد مروان لا يلتفت الى العهد الذي قطع لأهل المدينة بل يقف مع يزيد ومـــع قائده مسلم بن عقبة يساعده ويرشده ، ويرجع مع جيش الشام ويصيح قائلاً : « انا والله ماضٍ مع مسلم الى المدينة فمدرك ثأري مـــن عدوي ومن اخرجني من بيتي وفرق بيني وبين أهلي(٣٣) » وقد شكر مسلم بن عقبة لمروان موقفه هذا برسالة بعث بها ليزيد بن معاوية جاء فيها « فرجع معنا ... مروان بن الحكم فكان لنا عوناً على عدونا ، وكان أكرم الله أمير المؤمنين من محمود مقام مروان وجميل مشهده وشديد بأسه وعظيم نكايته لعدو أمير المؤمنين مالا اخـــال ذلك ضائعاً عند إمام المسلمين »(٣٤) . يتميز سلوك مروان بن الحكم بعد معركة الحّرة بانه كان شفيعاً لكثير من وجوه أهل المدينة لدى مسلم بن عقبة ، الذي أطلق عليه البعض لقب « مسرف » بسبب قسوته علـــى أهل المدينة ، ولكن هذا لم يمنع اخراج مروان ثانية من المدينة ، والمصادر هنا تختلف والاخبار تضطرب ، في سبب خروج مروان من المدينة وزمانه ، فبعضها يقول ان يزيد بن معاوية بن أبي سفيان طلبه الى الشام وبعضها يذهب في ان ابن الزبير طلب الى عامله على المدينة عبدالله بن حنظلة الغسيل ان يخرجه مع بقية بني أمية الى الشام . المهم ان مروان بن الحكم يخرج الى الشام ويرى كثير من المؤرخيـن القدامى وتبعهم في ذلك المحدثون ان اخراج مروان هذا الى الشام كان السبب البعيد في وصوله الى الخلافة .

اذ لو بقي في الحجاز لمَا عرفه الشوام ولمَا بايعوه . « انما بعثت عليك ـ ابن الزبير ـ افاعي لا يبل سليمها أمثل مروان وبني أمية يشخصون الى الشام .. »(٣٥) .

توفي يزيد بن معاوية في قرية حوارين من أعمال حمص سنة ٦٤هـ / ٦٨٣م وذلك يوم الاثنين لاربع عشر ليلة خلت من ربيع الأول ونقل ودفن في دمشق حيث صلى عليه ابنه معاوية . وكان يزيد قد لجأ الى المبايعة المبكرة لاكبر ابنائه معاوية بن يزيد(٣٦) .

لا شك ان موت يزيد قد خلق موقفاً صعباً جداً للخلافة الاموية اذ قد ظفر ابن الزبير بمبايعة أهل الحجاز والعراق واليمن ومصر وولى عليها عمالاً من قبله ، مع أن نفوذه لم يكن يتعدى مكة طيلة حياة يزيد ، لذلك نرى أن ابن الزبير قد دعا لنفسه بالخلافة واتخذ لقب أمير المؤمنين وكان قبل ذلك يدعو الى الشورى(٣٧) ، وزاد الامر صعوبة ان معاوية بن يزيد الذي تولى الخلافة بعد أبيه توفي هو الآخر بعد حكم قصير جداً . وقيل انه تنازل عن الخلافة قبل موته(٣٨) .

وهنـــــا يجدر بنا ان نقف وقفة طويلة ندرس فيها شخصية معاوية بن يزيد وما أحاط بموته المبكر من أحداث ، ولنتأمل في أمر تنازله المشكوك فيه عن الخلافة ، ومن ثم نسأل انفسنا اين يقف مروان من كل هذا ؟ بكل بساطة نرى أن المروانيين الذين اخرجوا السفيانيين عن الخلافة ظلماً وعدواناً هم الذين روجوا لدعايات اذاعوها بين الناس لتبرير وصولهم الى الحكم والى الخلافة .

ان أهم النقاط التي تصر عليها الدعاية المروانية وتذكرها مختلف الروايات في المصادر التي وصلتنا هي :

أولاً : ان معاوية الثاني كان رجلاً ضعيفاً « قد نظرت في أمركم فضعفت عنه »(٣٩) . يقف مروان بن الحكم نفسه على قبر معاوية ويقول : « اتدرون من دفنتم ؟ قالوا : نعم معاوية بن يزيد ، قال : بل دفنتم أبا ليلى ، يستضعفه » .

ثانياً : انه تنازل عن الخلافة بسبب هذا الضعف « فانتم اولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » ، و « مات يزيد بن معاوية وبويع لابنه معاوية وهو ابو ليلى ، فنادى الصلاة جامعة ثم تبرأ من الخلافة وجلس في بيته » . هكذا بكل بساطة يضع البلاذرى القضية(٤٠) .

ويقول المسعودي : « مات ابن يزيد ويكنى أبا عبدالرحمن وانما كني أبا ليلى تقريعاً له لعجزه عن القيام بالامر ، وكانت العرب تفعل ذلك بالعاجز من الرجال »(٤١) .

ثالثاً : ان معاوية الثاني لم يكتف بالتنازل عن الخلافة بل انه اصر أن لا يوصي لاحد بعده ، وان بني سفيان قد نالهم نصيبهم منها ، « فلما أدركته الوفاة قيل له أوصِ واستخلف قال : والله ما ذقت حلاوتها وأصلى بمرارتها .. ان يكنَ خيراً فقد استكثر منه آل سفيان ـ لم يقل أمية ـ وان لم يكن غير ذلك فوالله ما أحب أن ازودهم الدنيا وأذهب بوزرها الى الآخرة »(٤٢) .

ويذكر الذهبي « قالوا له الا تستخلف فامتنع ، فلما احتضر معاوية قيل له لو بايعت لاخيك خالد بن يزيد فانه أخيك لابيك وأمك فقال : سبحان الله كفيتها حياتي وأتقلدها بعد موتي »(٤٣) .

هذا مضمون الروايات التي وردت بأكثر المصادر ـ وقد تعرضنا لمجمل منها فيما سبق من الكلام ـ والتي تناقلها كثير من العلماء والمؤرخين المحدثين ، والتي كما قلنا تبرر ازالة المروانيين للفرع السفياني عن الخلافة واخذها بالسيف والعدد والجبروت .

وللرد على الدعاية المروانية ومرتكزاتها السابقة نقول : ان معاوية بن يزيد لم يكن بالرجل الضعيف وليس صحيحاً انه لا يستطيع القيام بواجبات الخلافة والمسؤوليات المترتبة عليه . والحقيقة عكس ذلك . ان ترشيح معاوية الثاني لولاية العهد وان يخلف والده جاء بعد امعان النظر والدرس من قبل والده وبعد أن استشار الخليفة يزيد في هذا الأمر الكبير كثيراً من خلصائه ...

ثم ان يزيد بعد اختياره معاوية خلفاً له أخذ يهيئ ولده لهذا الأمر ويعده له اعداداً سليما . وقد أذاع أمر ولايته للعهد في الآفاق وبين المسلمين قبيل وفاته . ويذكر ابن سعد في طبقاته « (يزيد) عقد لابنه معاوية للعهد بعده . فبايع له الناس واتت بيعة الآفاق . الا ما كان من ابن الزبير » . « لما استخلف معاوية بن يزيد وجمع عمال أبيه وبويع له بدمشق »(٤٤) .

قال الشاعر علي بن الغدير الغنوي . يحث يزيداً على مبايعة ولده معاوية :

يزيد يا ابن أبي سفيان هل لكم
الى سناء ومجد غير منصرم
أعزم عزيمة أمر غبه رشد
قبل الوفاة وقطع قالة الكلم
ان الخلافة ان تثبت لثالثكم
تثبت أواخيها فيكم فلا ترم(٤٥)

فلم تزل في نفس يزيد حتى بايع لابنه معاوية . « فكان أصلح فتيان بني أمية . وكان يزيد لما عقد لابنه معاوية . الزمه الفقهاء والرواة وصرف اليه وفود العرب »(٤٦) ويؤكد البلاذري أن يزيد ولى معاوية عهده في صحته(٤٧). ونفهم من كتاب « الامامة والسياسة»

ان يزيد بن معاوية كان يجتمع مع ولده معاوية ويشاوره في أمور الدولة الكبيرة فيذكر لنا صاحب كتاب « الامامة » عن جلسة اجتمع فيها معاوية مع أبيه يزيد بعد وقوع معركة الحرّه ، وينقل تعليقات لمعاوية على الأحداث المؤثرة فيقول : « انما قتلنا بهم ـ قتلى المدينة ـ انفسنا » فيرد يزيد : « هو ذاك قتلت بهم نفسي وشفيتها(٤٨) » وتمضي المصادر في تعداد صفات معاوية بن يزيد الحميدة والتي في مجملها لا يمكن بأية حال تفسيرها بانه رجل ضعيف وشاب خامل واه . يتنازل عن حقه الذي ورثه عن أبيه وجده في الخلافة وفي قيادة المسلمين . « وكان (معاوية) شاباً مليحاً أبيض فيه خير وصلاح »(٤٩) .وجاء في النقائض « ما رأينا شاباً أصح وجهاً ولا أفصح لساناً ولا أحد قامة من معاوية بن يزيد بن معاوية»(٥٠) . وهكذا يعتلي عرش الخلافة شاب هو من أصلح فتيان بني أمية . لسنا فصيحاً قد لزم الفقهاء والرواة ويتم في بلاطه كل مراسم الخلافة ومظاهرها . فقد كتب له زمل بن عمرو العذري وسليمان بن سعيد الخشني وسرجون بن منصور النصراني وكان نقش خاتمه « بالله ثقة معاوية . وقاضيه أبو ادريس الخولاني وحاجبه صفوان مولاه »(٥١) .

وتذكر بعض المصادر أكثر من ذلك ، تذكر ميزة خاصة في معاوية الثاني عن غيره فتقول : « أن معاوية بن يزيد كان له مذهب جميل »(٥٢) ويفصح لنا ابن العبري عن مذهب معاوية هذا فيقول : «لما مات يزيد صار الامر الى ولده معاوية ، وكان قدريا » ويذكر ابن العبري في نفس الرواية اسم معلمة لهذا المذهب فيقول : «لان عمر المقصوص كان علمه ذلك فدان به وتحققه »(٥٣) . ومما يدل على فاعلية معاوية بن يزيد وقوة شخصيته انه جاء الخلافة وفي ذهنه

برنامج واسع للاصلاح . فما أن تولى الأمر حتى أسقط ثلث الخراج عن جميع أمصار مملكته(٥٤) . اذن نحن أمام شاب قوي سوي جاء الخلافة وفي ذهنه برنامج يود تطبيقه ويصدر عن مذهب جميل في حكمه . ولكن قصر مدة خلافته لا تسمح لنا بالحكم عليه حكماً موضوعياً واضحاً . ولا شك أن الخليفة معاوية بن يزيد قد واجه صعوبات جمة ودسائس كثيرة منذ اللحظة التي تسلم فيها أمور الخلافة . وكان هو نفسه بالتالي ضحية لها .

ان أقصى مدة لخلافة معاوية الثاني تذكرها المصادر أربعة أشهر والغالبية العظمى منها تقول بثلاثة أشهر . توفي بعدها معاوية بن يزيد(٥٥) . ولكن السؤال هو كيف كان موته ؟ تختلف الروايات هنا اختلافاً شديداً . فالطبري يذكر «بعد تنازله ـ الذي نشك فيه ـ لزم بيته وتغيب حتى مات » وفي مكان آخر يقول : « دس اليه فسقى سما »(٥٦) . ويذكر ابن الأثير : يقال انه سقي سماً(٥٧) . وجاء في « البداية والنهاية » انه عزم أن يبايع لابن الزبير (كذا) وانه سقى سما .. ويقال انه طعن(٥٨) . وفي انساب الاشراف جاء انه بعد أن تنازل في خطبته .. أغلق بابه وتمارض فلم ينظر في شئ حتى مات . وصلى حسان بن بحدل بالناس وهم منكرون لامرهم »(٥٩) .

ويجمل المسعودي الروايات السابقة فيذكر في مروج الذهب «وقد تنوزع في سبب وفاته فمنهم من رأى انه سقي شربة ومنهم من رأى انه مات حتف أنفه ومنهم من رأى أنه طعن وقبض

وهو ابن اثنين وعشرين سنة* ، ودفن بدمشق بالباب الصغير . ويستمر المسعودي ويذكر اموراً هامة جداً فيقول : « وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، ليكون الامر له من بعـــــده** ، فلما كبر الثانية طعن فسقط ميتاً قبل تمام الصلاة ، فقدم عثمان بن عتبة بن ابي سفيان فقالوا : نبايعك ، قال : على الا احارب ولا اباشر قتالا ، فأبوا ذلك عليه ، فصار الى مكة ودخل في جملة ابن الزبير ـ وهو خاله ـ ويختم المسعودي وزال الامر عن آل حرب(٦٠).

لا شك أن موت معاوية بن يزيد المبكر جاء فجأة وعلى حين غرة ، فان كان سببه المباشر الطاعون ، فالطاعون تذكره المصادر ولكن على الارجح انه وقع في وقت لاحق في العراق والشام ، وبعد موت معاوية بن يزيد . فقد جاء في حوادث سنة ٦٥هـ عند الطبري «انه وقع في البصرة الطاعون الذي يقال له الطاعون الجارف ، فهلك به خلق كثير »(٦١) وفي كتاب «العنوان» جاء انه في أيام عبدالملك سنة ٦٥هـ ، « لحق الناس في هذه السنة جوع شديد ووباء»(٦٢) وذكره الاعشى أيضاً في هذه السنة(٦٣) .

أما اذا صحت الروايات الكثيرة والتي تذهب الى القول أن معاوية الثاني قد سم ، فنحن عندما أمام سؤالين :

الاول : من صاحب المصلحة في سم معاوية بن يزيد ؟

والثاني : اذا كان قد سم فلماذا كان التنازل عن الخلافة ؟

---

* تذكـــــر المصادر اختلافاً متبايناً في عمر معاوية الثاني وتعمد بعضها الى تصغيره : ابن قتيبة يذكر انه حينما استخلف معاوية الثاني كان عمره سبعة عشرة سنة (معارف ص ١٧٩) وجـــاء في الكامل ان عمره احدى وعشرون سنة (الكامل ج ٤ ص ١٣٠) ، اليعقوبي بتاريخــــه يذكر ان عمره ثلاث وعشرون سنة مثل المسعودي (يعقوبي ٢ ص٢٥٣) وفي احدى الروايات عند الطبري انه توفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة (طبري ٥ ص ٢٠٣) .

** يذكر المدائني «وقد أراد الناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يتولى عليهم فأبى وهلك تلك الليلة» .. (ابن كثير البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٠) .

بل نستطيع عكس هذا السؤال فنقول : اذا كان قد تنازل عن الخلافة فلماذا اذن قد سم (٦٣) قد يذهب بنا الشك الى أن معاوية قد تألب عليه قومه ولربما ارادوا التخلص منه ، حتى أنهم طمروا معلمه عمر المقصوص ودفنوه حياً(٦٤) ، وان صح القول أن معاوية الثاني قد اسقط ثلث الخراج وانه كان صاحب مذهب جديد يخالف ما صار عليه بنو أمية عموماً مخالفة شديدة وانهم خافوا أن يضر الخليفة الجديد بمصالحهم ويذهب بمكتسباتهم حتى أن هناك قول يبدو ضعيفاً مفاده « أن معاوية بن يزيد قد عزم أن يبايع لابن الزبير »(٦٥) ، كل هذا بجانب طموح مروان بن الحكم العتيق والفعال للوصول الى الحكم ، هذا الطموح الذي لا يناسبه ابداً أن يتسلم الخلافة خليفة ثالث على التوالي من آل ابي سفيان ، فاذ ما تم الامر لهذا الشاب معاوية ، عندها تثبت الخلافة فيهم . يذكر البلاذري ان مروان بن الحكم دخل على معاوية بن يزيد فقال له : «لقد أعطيت من نفسك ما يعطي الذليل المهين ثم رفع صوته فقال : من أراد أن ينظر في خالفة آل حرب بن أمية فلينظر الى هذا ، فقال له معاوية : يا ابن الزرقاء اخرج عني لا قبل الله لك عذرا»(٦٦) .

لذا نرى أن معاوية الثاني لم يتنازل عن الخلافة وأن موته جاء في ظروف غامضة قد تصح معها رواية سمه . اذ أن شخصية معاوية بن يزيد القوية وتطلعاته السياسية أصبحت لا تروق أصحاب الشأن في البيت الاموي وفي الشام(٦٧) ، وبموت معاوية أصبح الطريق ممهداً لمروان بن الحكم الذي بات هو المرشح الاول ـ ولا نقول الوحيد في هذه المرحلة ـ لبني أمية وأهل الشام فكيف سارت الامور واتجهت الاحداث آنئذ ؟

بعد موت معاوية بن يزيد ارتبك الامر عند أهل الشام ارتباكاً كبيراً وكادت تتم البيعة لابن الزبير الذي سبق ان بايعته جل الامصار الاسلامية حتى أن المدن الشامية خاصة ذات الزعامة القيسية أخذت بدورها الواحدة تلو الاخرى في البيعة له ، ولم يبق الا جند الاردن وفلسطين حيث كان أميرها حسان بن بحدل الذي يهوى هوى بني أمية ويدعو الى ولد اخته الى خالد بن يزيد .

وما الناس الا بحدلي عن الهوى   والا زبيري عصى فتزيدا*

وقد رأى ابن بحدل ان من الحكمة ان ينتقل من فلسطين الى جند الاردن ليكون قريباً من دمشق ومن الاحداث فخلف مكانه على جند فلسطين روح بن زنباع الجذامي ، الذي ما لبث ان وثب عليه ابن عمومته ناتل بن قيس الجذامي ـ الذي يقال انه كان عند ابن الزبير بمكة وطلب منه ابن الزبير أن يكفيه قومه ـ فاستولى ناتل على بيت المال في جند فلسطين واخرج روح وبايع لابن الزبير(٦٨) .

في هذا الوضع الجديد الصعب تجتمع بني أمية مع كبار زعماء الشام ـ خاصة اليمانية منهم ـ الذين خافوا ان ينتقل مركز الحكم من الشام الى الحجاز ثانية ، ومن بني أمية الى بني أسد ـ أي لأبن الزبير ـ ، « فلما رأى ذلك رجال بني أمية وناس من اشراف أهل الشام ووجوههم ... قال بعضهم لبعض : ان الملك كان بيننا أهل الشام فانتقل عنا الى الحجاز . لا نرضى بذلك ، هل لكم أن تأخذوا رجلاً منا فينظر في هذا الامر »(٦٩) .

---

* يروى أن هذا الشعر لعبد الرحمن بن الحكم أخي مروان (البلاذري . انساب الاشراف ، ٤ : ٣٥٦ ، أبو تمام نقائض ص ١٦) .

هنا تبرز ظاهرة جديدة لها دلالتها العميقة الا وهي تكوين «مجلس الملأ» في دمشق(٧٠) .... وحسب معرفتي هذه المرة الاولى التي يتكون فيها مثل هذا المجلس في الاسلام ، هذا المجلس الذي ضم في صفوفه زعماء بني أمية وزعماء اليمانية ، وكانت مهمته فيما نرى ملئ الفراغ بعد موت الخليفة معاوية الثاني والعمل على انتخاب من يخلفه . وكان من أكبر رجال هذا المجلس حسان بن بحدل الكلبي ، ومالك بن هبيرة السكوني ، والحصين بن نمير السكوني وروح بن زنباع الجذامي ، وعبيد الله بن زياد ، وعمرو بن سعيد الاموي وعبدالله بن عضاضة الاشعري وأبو كبشه جيويل بن يسار السكسكي ، وسعيد بن حمزة الهمذاني وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري وغيرهم(٧١) .

ولا شك أن هم هؤلاء الرجال عموماً كان أبقاء الخلافة في الشام وتلقائياً ابقائها في بني أمية ، رغم أن الروايات تذكر أن الضحاك ابن قيس وكذلك حسان بن مالك بن بحدل رشحا نفسيهما للخلافة(٧٢).

قلنا أن هم مجلس الملأ كان ابقاء الخلافة في الشام وانتخاب خليفة جديد بعد موت معاوية بن يزيد المفاجئ والغامض ، وكان ابن بحدل ومالك بن هبيرة يمثلان التيار الذي يريد البيعة لخالد بن يزيد ، أخي الخليفة المتوفي وحفيد الخليفة معاوية مؤسس الدولة الاموية وناقل مركز الخلافة الى دمشق ، والتيار الثاني يريد البيعة لمروان بن الحكم شيخ قريش وجذم بني أمية وابن عم الخليفة المغدور عثمان بن عفان .

من الاعياص أو من آل حرب

أغر كغرة الفرس الجواد(٧٣)

ولكن كان هناك الضحاك بن قيس وغيره من القيسية الذين يهوون هوى ابن الزبير والذين كانوا حنقين على ما كان لكلب من شأن بسبب يزيد وابنه معاوية .... وما كان لحسان بن مالك الكلبي خال يزيد من مركز قوي في الدولة فكان كالمالك للامر وكان العماد الاكبر لمعاوية الثاني حتى أن أخاه سعيد الكلبي كان أميراً على قنسرين مدينة القيسية ، فرأت قيس أن اسناد الامارة عليهم وفي مدينتهم الى رجل من كلب أمراً لا يطاق(٧٤) .

هنا يلعب مروان بن الحكم دوراً فذاً داخل مجلس الملأ وخارجه لتتم البيعة له وقد ساعده في هذا الأمر رجال عظام ودهاة كبار أمثال عبيدالله بن زياد وروح بن زنباع والحصين بن نمير . نحجة ابن بحدل في ترشيح ابن اخته واضحة ، انه يفضل ذلك ليبقى الامر بيده « فمروان أبو عشرة وابن عشرة » ونفس الرأي كان عند مالك ابن هبيرة شيخ اليمانية ، فلنسمع حديثاً له مع الحصين بن نمير في تفضيل ترشيح خالد على مروان الذي يميل اليه الحصين «... ويلك انك انسان تايه (تائه) قد ذهب عقلك ان آل مروان أهل بيت من قيس .. قد قاسوا قوت الحجاز وشدته والله لئن ملكوا ليحسدنك نقاء ثوبيك وجلاء صوتك وظل شجرة تستظل تحتها .. هلم فلنبايع هذا الغلام (يعني خالدا) الذي نحن ولدنا أباه وهو ابن اختنا فقد عرفت منزلتنا كانت من أبيه ... فانه يحملنا على رقاب العرب غداً»(٧٥) .

أما الذين يرشحون مروان بدلاً من خالد بن يزيد الفتى الحدث السن ، فحجتهم هي أن مروان شيخ بني أمية يستطيع الوقوف أمام ابن الزبير «ونحن نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي »(٧٦) أجل ان بعض المصادر تذكر أن مروان نفسه

رأى أن ينطلق الى ابن الزبير لمبايعته ... ويأخذ بهذا الرأي مؤرخون محدثون(٧٧) . ولكن هذا القول ماهو الا من قبيل ذر الرماد في العيون . فمروان طامع في الخلافة منذ زمن بعيد ، وهو في هذه المرحلة بالذات أخذ يسعى السعي الحثيث الذكي ، لا داخل مجلس الملأ فحسب بل خارجه أيضاً ، فهو يتقرب من أهل الشام الذين لم يكونوا على صلة قوية سابقة به . واستطاع أن يجذب الى جانبه شخصيات بارزة فئة ربطت بينهم المصالح المشتركة ، وقد مناهم مروان بالاماني ووعدهم بالكثير _ كما سيأتي _ فتذكر المصادر أن مروان وليس غيره كتب الى الحصين بن نمير وهو في محاربة ابن الزبير : « لا يهولنك ما حدث وأمض لشأنك » وما حدث هو موت يزيد بن معاوية(٧٨) . ولمـــــا قدم الحصين بن نمير ومن معه الى الشام اخبر مروان ما كان بينـــــه وبين ابن الزبير ، ثم خاطب الحصين مروان قائلاً : « نراكم _ بني أميـــــة _ في اختلاط فأقيموا أميركم » وحدثه للبيعة لنفسه(٧٩) . واشترط الحصين على مروان أن ينزل البلقاء من كان بالشام من كندة وان يجعلها لهم مأكلة(٨٠) . فأعطاه ذلك ، وجاء في كتاب التهذيب ان كلاماً كان يجري بين مروان بن الحكم وروح بن زنباع عندما طلب مروان الخلافة(٨١) .

جاء في كتاب « النقائض » أن مروان أخذ يتصنع فلزم سارية في المسجد يصلي اليها ولا يجلس مع القوم . ثم أخذ يتدارس الوضع « فيلقي الكلام الى الرجل ويضرب الامثال ويخبر بحلم آل أبي سفيان وعقولهم وجودهم ويقول : « وبنوا أبيهم منهم .. ويذكر الحاد ابن الزبير واستحلاله الحرم مع جمعه الاموال وبخله وقلة بذله(٨٢) .

وعن دور مروان وهو جالس الى سارية في المسجد نقرأ في النقائض ما يرويه روح بن زنباع مساعده الكبير في تلك الفترة الحاسمة فيقول : « فمررت بمروان وهو يصلي الى تلك السارية فسبح بي ، فملت اليه فسلم علي ثم أقبل علي فقال : يا أبا زرعة انك من هذا الامر بصدد واني لا اعلمك من أمري الا ما قد علمت . أنا ابن عم أمير المؤمنين وخليفته في الدار والذي أوصى به بعده . فلا تدع من ذكرنا ما أنت أهله ومهما نسيت من شيءٍ فلا تنسين أن تذكر سني ونظري وتجربتي وقرابتي لأمير المؤمنين عثمان مع الشدة في الحدود والعفاف في الاسلام وبذل ذات اليد مع قصب ابن الزبير وجمعه ومنعه . قال روح : أمرت بمعروف وأوصيت كافياً . قال روح : فجئت مجلس الملأ فقلت : ما يمنعكم من هذا الشيخ من قريش واشرت الى مروان ، وهو ابن عم أمير المؤمنين عثمان وقد أمر عشر مرات ونزع عشر مرات ، كل ذلك لا يسخط ولا يخالف ولا يعزل عن خيانة . قالوا : ابن الزبير اصلب منه وابن عمر افقه منه . قال روح : أما ابن عمر فرجل قد شغلته عبادته وأما ابن الزبير فمن أكثر منه غلظة وتهجماً وبخلاً وبني أمية اسمح اخلاقاً واعطى لهذا المال(٨٣) . وتأتي خطبة روح بن زنباع عند الطبري على هذه الصورة « أيها الناس انكم تذكرون عبدالله بن عمر بن الخطاب وصحبتهمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدمه في الاسلام وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف وليس بصاحب امة محمد الضعيف ، وأما ما يذكر الناس من عبدالله بن الزبير ويدعون اليه من أمره فهو والله كما يذكرون بأنه لابن الزبير حواري رسول الله وابن اسماء ابنة أبي بكر الصديق ذات النطاقين وهو بعد كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق ، قد خلع

خليفتين يزيد وابنه معاوية بن يزيد وسفك الدماء وشق عصا المسلمين وليس صاحب امر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، المنافق. وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان في الاسلام صدع قط الا كان مروان ممن يشعب ذلك الصدع ، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذي قاتل علي بن ابي طالب يوم الجمل »(٨٤) .

كانت هذه الخطب وتلك الحجج تقال في مجلس الملأ ولكن يبدو لنا انه بجانب مجلس الملأ الموسع كانت تعقد جلسات مصغرة تضم انصار البيعة لمروان ، الذين أصبحوا معروفين لدينا والذين يعملون لاثبات الخلافة لبني أمية ، وفي الشام ، ولنقلها الى مروان بن الحكم وأبعاد خالد بن يزيد أو غيره . فيذكر ابن عبد ربه أن هذه الجماعة « بعد ان قلبوا الرأي في خالد وغيره واذا خالد حدث ، خرجوا من عنده فأتوا من مروان بن الحكم فاذا عنده مصباح واذا هم يسمعون صوته بالقرآن فاستأذنوا فدخلوا عليه فقالوا : يا ابا عبدالملك ارفع رأسك لهذا الامر فقال لهم : استخيروا الله وأسألوه أن يختار لامة محمد صلى الله عليه وسلم خيرها واعدلها » ويكشف لنا صاحب العقد الفريد عن واحدة من الاساليب التي اتبعوها في الوصول الى هدفهم فيقول : « ان القوم جاؤوا مروان إبن الحكم فقال روح بن زنباع : « ان معي اربعمائة من جذام فانا آمرهم ان يتقدموا في المسجد غدا ، ومُر أنت أبنك عبدالعزيز أن يخطب الناس ويدعوهم اليك ، فاذا فعل ذلك تنادوا من جانب المسجد .. صدقت .. صدقت .. فيظن الناس أن امرهم واحد . فلما اجتمع الناس ، قام عبدالعزيز بن مروان فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ما أحد أولى لهذا الامر من مروان كبير قريش وسيدها ،

والذي نفسي بيده لقد شابت ذراعاه من الكبر . وقال الجذاميون : صدقت .. صدقت .. فقال خالد : الذي أدرك بعمق ما يجري من حوله «أمر دبر بليل »(٨٥) .

وحتى يتم حسم الموقف نهائياً اتخذ قرار بالذهاب الى ابن بحدل للتفاهم معه ، وكان الهدف الاول هو القضاء على التردد في موقف الضحاك بن قيس ثم حمل ابن بحدل على البيعة لمروان ، ولا يخفى أن في ذهاب الجماعة بأنفسهم الى ابن بحدل أمر فيه تبجيل للرجل واقرار بمكانته ، فأبن كثير يذكر « ان حسان بن مالك لما قدم عليه مروان أرض الجابية أعجبه اتيانه اليه »(٨٦) . فقال حسان : مخاطباً مروان _ أتيتني بنفسك اذا ابيت أن آتيك ، واللهلاجالدن عنك في قبائل اليمن او اسلمها اليك »(٨٧) .

ولتحقيق هذا الغرض تم ما يعرف بمؤتمر « الجابية » الذي سبقه تحضيرات كثيرة وتمهيدات واسعة ، وكان من المقرر أن يحضر الضحاك بن قيس هذا المؤتمر ولكن تحت ضغط القيسية يضطر الرجل الى التخلف عن الحضور « فصرف الضحاك الرايات الى مرج راهط واظهر بيعة ابن الزبير »(٨٨) وفي الجابية يتم اختيار مروان بن الحكم على ان لا يبايع مروان الا لخالد بن يزيد وله أمرة حمص ولعمرو بن سعيد وله امرة دمشق ، وكانت بيعة مروان بالجابية يوم الاثنين للنصف من ذي القعدة سنة ٦٤هـ(٨٩) . وتتم البيعة له بعد أخذ ورد شديدين ، وبعد أن استرضى حسان بن مالك الذي خاطب الجماعة قائلاً : « رأيي لرأيكم انما كرهت أن تعدل الخلافة الى ابن الزبير وتخرج من أهل هذا البيت »(٩٠) ، وهكذا صارت البحدلية مروانية ، ثم يضع حسان بدوره شروطه لمروان «يشترط حسان بن مالك _ وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام _

علـــى مروان ما كان لهـــــم من شروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد منها : أن يفرض لهم لالفي رجـــــــل الفين الفين ـ وان مـــــــات قام ابنه وابن عمه مكانه ـ على أن يكون لهم الأمر والنهي ، وصـــــــدر المجلس وكل ما كان من حل وعقد ، فمن رأي منهم ومشورة . فرضـــــــي مروان ذلك ، فانقاد اليه » ، عندما يقف حسان بالقوم خطيباً ومبايعـــــــاً لمروان بن الحكـــــم الذي « التفت اليه بنو امية فقالوا : الحمد لله الذي لم يخرجها منا »(٩١) .

وهكذا يقف أكبر مناصر لخالد بن يزيد ولبيت أبي سفيان الى جانب البيعة لمروان . ويقول ابن سعد : « فدعا حسان بن مالك خالداً بن يزيد فقال : « يا ابن اختي هواي فيك وقد أباك الناس للحداثة ومروان أحب اليهم منك ومن ابن الزبير ، قال : بل عجزت ، قال : كلا »(٩٢) .

ثم جاء دور معارض كبير آخر هو مالك بن هبيرة اليشكري الذي بات أمر استمالته لجانب مروان أكثر سهولة بعد موافقة حسان بن بحدل ، فأبن هبيرة يواجه مروان صراحة ويقول له : «...ليست في أعناقنا بيعة ، وليس نقاتل الا عن عرض الدنيا ، فان تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك ، وان تكن الاخرى فوالله ما قريش عندنا الا سواء . فأجابه مروان الى ما سأل »(٩٣) .

ينفرد صاحب كتاب « العنوان » بقصة طريفة لا يمكن أن تحمل محمل الجد مفادها : ان مروان بن الحكم اقترح على المجتمعين القرعة ... بأن قال : اعمدوا الى ثلثة أسهم فأثبتوا فيها أسماء ثلثة رجال منكم وتدفع السهام الى رجل لتحريكها ... فأثبتوا اسماءهم على ثلثة أسهم ودفعت الى الحسن (حسان) ابن مالك ، فأخذها بيده

وحركها تحريكاً شديداً ثم أخذ منها سهماً فألقاه في وسط الجماعة فتؤمل ، فاذا عليه اسم مروان بن الحكم فسلموا اليك الملك »(٩٤) .

بعد أن اجتمعت كلمة القوم على مروان في الجابية صار مروان الى مرج راهط _ وراهط رجل من قضاعة سمي المرج باسمه(٩٥) _ وكان مع مروان رجال بني كلب والسكاسك وغسان وغيرهم(٩٦)*.

وقد التقى هذا الجمع بالضحاك بن قيس الذي جاءه مدد من النعمان بن بشير أمير حمص ومن زفر بن الحارث الكلابي زعيم القيسية في قنسرين ، ومن ناتل بن قيس في فلسطين وتقابل الجيشان ودارت المعركة والقتال بين الطرفين أياماً وفي أثناء هذه المعركة جاء الخبر من دمشق أن رجلاً من غسان ، كان مختبئاً بدمشق ولم يشهد الجابية واسمه يزيد بن ابي النمس ثار وغلب عليها واخرج عامل الضحاك منها واستولى على بيت المال وأعلن بعته لمروان ، وأمد مروان بالأموال والسلاح والرجال ، « فكان أول فتح على بني أمية »(٩٧) ويبدو منطقياً أن ثورة الغساني ذه كانت مدبرة ومخطط لها اذ كان الرجل على علاقة سابقة بجماعة مروان(٩٨) .

وانتهى القتال بين الضحاك ومن معه من القيسية ومروان ومن معه من كلب واليمنية بنصر مروان وكلب ، وجيءَ له برأس الضحاك ، فقال وهو مغتم : « الآن حين كبرت سني ودق عظمي ، وصرت الى مثل ظِمْ الحمار أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض »(٩٩) .

---

* اذا ما دققنا النظر في المصادر والروايات التي بين أيدينا ، وجدنا أن جل القبائل اليمنية في بلاد الشام كانت بجانب مروان والامويين : الجذاميون (ابن عبد ربه ٤ : ٣٦٩ ، ثم قضاعة وجل الناس (أبو تمام نقائض ص ٥) القين وتنوخ (من شعر لمروان جاء في الطبري ٥ : ص ٥٣٧) الاشعريون وعذره واشراف أهل الشام (بلاذرى ٥ : ١٢٨ طبعة المثنى) وكانت تغلب بجانب مروان أيضاً وقد افتخر الأخطل بذلك :

وقد كان يوماً راهط من ضلالكم   فناء لاقوام وخطبا من الخطب
(النقائض ، ٩٨)

كانت معركة مرج راهط سبباً في رد ملك بني أمية « وقد زال عنهم الى بني أسد بن عبد العزي ـ ابن الزبير ـ ولذلك رأى قوم أن مروان أول من أخذ الخلافة بالسيف » يقول المسعودي : « وهذه الواقعة من الوقائع المشهورة والأيام المذكورة واليمانية تفتخر بها على النزارية ، وقد أكثرت شعراؤها الافتخار بذلك .

قال عمرو بن مخلاة الكلبي :

رددنا لمروان الخلافة بعدما جرى للزبيريين كل بريد

فألا يكن منا الخليفة نفسه فما نالها الا ونحن شهود (١٠٠)

من هذه الابيات نرى أن بني كلب كان يعزيهم عن اخفاقهم في الوصول الى الحكم ان مروان لم يظفر بالخلافة الا على سواعدهم(١٠١) .

بعدها ينتقل مروان بانصاره الى دمشق ويأخذ البيعة العامة ، ويبدأ حكمه بالعمل للقضاء على ابن الزبير . فهل بعد هذا يصح القول أن مروان وصل الى الخلافة بفضل اخراجه من المدينة ...؟ دون فضل اختص به ، وانه لم يكن يطمع في الخلافة(١٠٢) . يبدو لنا أن هذا الرأي ضعيف ، فان مروان لم ينجح في أن يصبح خليفة للمسلمين فحسب بل نجح في جعل الخلافة في بيته ، فرغم قصر مدة حكمه استطاع الرجل أن ينقل ولاية العهد لولديه من بعده ـ عبدالملك وعبدالعزيز ـ وان يبعد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد عما وعدا به يوم الجابية ، ولم يمارض حتى ابن بحدل نفسه في هذا النكث بالعهد ، بل تبرع حسان قائلاً لمروان : « انا اكفيك امرهما». ثم جمع حسان الناس وقام خطيباً فقال : «يبلغ أمير المؤمنين ويبلغنا ان رجالاً يتمنون الاماني ويدعون الاباطيل ويحدثون انفسهم بما لم يجعله الله لهم ، وما اولئك بالراشدين ولا

المسودين فقوموا أيها الناس فبايعوا لعبدالملك ابن أمير المؤمنين ولعبدالعزيز من بعده . فقام الناس فبايعوا مسارعين ، غير مثقلين من عند آخرهم حتى لم يبق منهم أحد »(١٠٣) وقد علق الناس على هذا « هو أعلم بابن أخته وما دعا الى بيعة عبدالملك الا لما يعرف من ابن اخته »(١٠٤) .

مات الخليفة مروان بن الحكم في ١٧ رمضان سنة ٦٥هـ / ٦٨٥م بعد أن ضمن أن الخلافة قد انتقلت الى ولده القدير عبدالملك الذي استطاع بدوره أن يقضي على خصومه وأن يوجد العرب ويعيد الهدوء والاستقرار الى أمصار الامبراطورية العربية ، هذا الاستقرار الذي ظهرت نتائجه في اصلاحاته الكبرى وأمهما تعريب الدواوين وصك النقود بالعربية .. وفيما بعد بموجة من الفتوحات الواسعة والاعمال العمرانية التي شهدتها خلافة ولده الوليد بن عبدالملك بن مروان .

المصادر والمراجع :

(١) ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٥م) كتاب الطبقات ج ٥ ص ٢٤ _ ٢٥ ، مكتبة المثنى _ بغداد .

(٢) العسكري ، ابو هلال الحسن (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) الاوائل ج ١ ص ٢٦٩ ، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب _ دمشق .

ابن قتيبة ، عبيدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) كتاب المعارف ص ١٩٥ تحقيق ثروت عكاشة ، دار المعارف بمصر .

(٣) العسكري ، الاوائل ج ١ ص ٢٩٦ .

(٤) ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٧ ، مطبعة السعادة _ مصر بلا تاريخ .

ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٤٠هـ / ١٤٠٦م) العبر ج٢ ص ١٠٤٦ ، القسم الاول ، المجلد الثاني ، بيروت ، دار الكتاب .

(٥) ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٢٥ _ ٢٦ .

(٦) خياط ، شباب (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م) ، كتاب التاريخ ص ١٨٥ ، تحقيق أكرم ضياء العمري _ بيروت ١٩٧٧ .

ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٢٩ .

(٧) البلاذري ، أحمد بن يحيى ، (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) أنساب الاشراف ج٥ ص ١٢٦ ، مكتبة المثنى _ بغداد .

(٨) الزبير بن بكار ، (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) الاخبار الموفقيات ص ١٧٥_١٨٦، تحقيق سامي العاني _ بغداد ١٩٧٢ .

(٩) العسكري ، الاوائل ج ١ ص ٣٤٦ .

(١٠) البلاذري ، أنساب الاشراف ج ٤ ص ٢٣ ، تحقيق احسان عباس _ بيروت ١٩٧٩ .

(١١) الطبري ، (ت ٣٦٠هـ / ٩٧٠م) ، تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٢٩٣_٢٩٤ ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم _ دار المعارف بمصر _ الطبعة الثانية .

(١٢) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) البيان والتبيين ج٢ ص ٨٣ _ ٨٤ ، تحقيق عبدالسلام هارون _ بيروت .

(١٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ص ٢٥٣ .

ابن الابـــار أبو بكر القضاعي . (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) . الحلية السراء ج ١ ص ٢٧ _ ٢٨ . تحقيق حسين مؤنس القاهرة _ ١٩٦٣ .

البلاذري . انساب ج ٤ ص ٥١٥ تحقيق احسان عباس .

الذهبي . محمد بن أحمد الحافظ . (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) العبر في خبر من عبر . ج ١ ص ٧١ . ٨٢ . تحقيق صلاح الدين المنجد _ الكويت ١٩٦٠ .

مجهول . (ينسب لابن قتيبة) . الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٧ . القاهرة _ ١٩٥١ .

ابن سعد . الطبقات ج ٥ ص ٤٥ .

(١٤) ابن سعد . الطبقات ج ٥ ص ٣٠ .

ابن عساكر . علي بن الحسن . (ت ٥٧١هـ / ١١٦٧م) تاريخ دمشق . مخطوط في مكتبة الظاهرية بدمشق . رقم ٥٢١ وعلم وأدب . ٢٥ ورقة ١٧٩ .

(١٥) البلاذري . انساب ج ٤ ص ٣٢٩ . تحقيق احسان عباس .

(١٦) أبو تمام . حبيب ابن أوس . (ت٢٣١هـ / ٨٤٥م) نقائض جرير والاخطل ص ١٢ . ١٣ . دار المشرق _ بيروت ١٩٢٢ . تحقيق الاب انطون صالحاني .

(١٧) الزبيري . أبو عبدالله المصعب . (ت ٢٣٦هـ / ٨٥١م) . كتاب نسب قريش ص ١٠٩ . ١١٠ . تحقيق ليفي بروفنسال _ الطبعة الثانية . دار المعارف _ القاهرة .

عدد ٥ _ ٦ ص ٢٠ _ ٢١ . عمان ١٩٧٩ .

الدوري . عبدالعزيز . كتاب الانساب وتاريخ الجزيرة _ مجلة مجمع اللغة العربية الاردني عدد ٥ _ ٦ ص ٢٠ _ ٢١ عمان ١٩٧٩ .

(١٨) البلاذري . انساب الاشراف ج ٤ ص ٦٥ _ ٦٦ . تحقيق احسان عباس .

الزبيري . نسب قريش ص ١١٠ .

(١٩) مجهول . (مؤلف من القرن الثالث الهجري) . الامامة والسياسة ج ١ ص ١٩٨ _ ١٩٩ . تحقيق سعيد صالح خليل . اطروحة ماجستير الجامعة الاردنية عمان ١٩٧٨ .

(٢٠) البـــــــلاذري . انساب الاشراف ج ٤ ص ٦١٥ _ ٦١٦ . تحقيق احسان عباس .

(٢١) البلاذري ، ن . م ج ٤ ص ٦١٥ _ ٦١٦ .
(٢٢) التوحيدي ، ابو حيان ، (ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م) الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٧٤ ، اشراف : أحمد أمين وأحمد الزين ، دار الحياة _ بيروت .
(٢٣) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٥ ، مطبعة المثنى _ بغداد .
(٢٤) التوحيدي ، الامتاع ج ٢ ص ٧٤ .
(٢٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ج ١٧ ورقة ١٧٠ _ ١٨١ مخطوط .
_ الزبيري ، نسب قريش ص ١٠٩ _ ١١٠ .
_ البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٦ ، مطبعة المثنى _ بغداد .
(٢٦) ابن كثير ، البداية ج ٨ ص ٢٥٨ .
(٢٧) الزبير بن بكار ، الموفقيات ص ١٨٣ .
(٢٨) مجهول ، الامامة والسياسة تحقيق سعيد صالح ج ١ ص ٢٧٧ .
الدوري ، عبدالعزيز ، النظم الاسلامية ج ١ ص ٣٨ ، مطبعة النيل ، بغداد ١٩٥٠ .
(٢٩) مجهول ، الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٣ ، طبعة القاهرة ١٩٥٧ .
(٣٠) مجهول ، الامام والسياسة ج ١ ص ٢٧٧ وما بعدها ، تحقيق سعيد صالح .
(٣١) المقدسي ، مطهر بن طاهر ، البدء والتاريخ ج ٦ ص ٦ ، تحقيق ك . هوار باريز .
(٣٢) البلاذري ، انساب ، ج ٤ ص ٣٠٢ ، تحقيق عباس .
(٣٣) مجهول ، الامامة والسياسة ج ١ ص ٢١٩ _ ٢٢٠ ، تحقيق سعيد صالح .
(٣٤) الامامـــة والسياسة ج ١ ص ٢١٧ _ ٢١٨ ، طبعة القاهرة ، سعيد صالح ج ١ ص ٢٢٨ .
(٣٥) عاقل ، نبيه ، خلافة بني أمية ، ص ١٣٣ _ ١٩٧٢ _ دمشق .
_ ماجد ، عبدالمنعم ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، عصر الخلفاء الامويين ، القاهرة سنة ١٩٦٠ ، ص ٩١ _ ٩٢ .
_ البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٠٢ ، تحقيق عباس .
_ مجهول ، الامامة والسياسة ، ج ١ ص ٢١٥ .
(٣٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ص ٣١٦ ، طبعة بيروت ١٩٦٥ .

ـ البلاذري . انساب الاشراف . تحـ . عباس ٤ : ٣٤٤ ، ٣٥٤ .
ـ طبري . تاريخ . ج ٥ ص ٤٩٩ .
(٣٧) ابن العبري ، هبرايوس المالطي أبو الفرج . (ت ٦٨١ / ١٢٦٨) . تاريخ مختصر الدول ص ١٩١ . المطبعة الكاثوليكية . بيروت ـ ١٩٥٨م .
ـ البلاذري . انساب ج ٤ ص ٣٢ . تحقيق احسان عباس .
ـ ابن قتيبة . المعارف ١٨١ . تحقيق عكاشة .
ـ ماجد عبدالمنعم . التاريخ السياسي الدولة العربية ص ٩١ ـ ٩٢ . عصر الخلفاء الامويين . القاهرة ـ ١٩٦٠ .
(٣٨) البلاذري . فتوح البلدان ص ٣٢١ . بيروت ـ ١٩٥٧ .
(٣٩) الطبري . تاريخ ج ٥ ص ٥٣٠ ـ ٥٣١ .
(٤٠) البلاذري . انساب ج ٤ ص ٣٥٦ . تحقيق احسان عباس .
ـ البلاذري . فتوح البلدان ص ٣٢١ .
(٤١) المسعودي . علي بن الحسين . (ت ٣٤٥هـ / ٩٥٦م) التنبيه والاشراف ص ٣٠٦ . مكتبة الخياط ـ بيروت (عن الطبعة الاوروبية) .
(٤٢) ابو تمام . نقائض ص ٥ ـ ٦ .
ـ المقدسي . البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٧ .
(٤٢) الذهبي الحافظ . العبر في خبر من عبر . ج ١ ص ١٩ .
ـ ١٩٦٠ .
ـ البلاذري . انساب ج ٤ ص ٣٥٩ . تحقيق احسان عباس .
(٤٤) ابن سعد . الطبقات ج ٥ ص ٢٧ .
ـ الطبري . تاريخ ج ٥ ص ٥٠٣ .
(٤٥) ابو تمام . نقائض ص ٤ .
(٤٦) ابو تمام . ن . م ص ٥ ـ ٦ .
(٤٧) البلاذري . انساب ج ٤ ص ٣٥٦ . تحقيق احسان عباس .
(٤٨) مجهول . الامامة والسياسة ج ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ . تحقيق سعيد صالح .
(٤٩) الذهبي . العبر في خبر من عبر ج ١ ص ٦٩ .
(٥٠) ابو تمام . نقائض ص ٥ ـ ٦ .
(٥١) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ٣٠٧ . مكتبة الخياط .

(٥٢) اليعقوبي ، أحمد (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٣٤ دار صادر _ بيروت ١٩٦٠ .

(٥٣) ابن العبري ، مختصر ص ١١١ ، بيروت ١٩٥٨ .

(٥٤) فلهاوزن ، يوليوس تاريخ الدولة العربية ص ١١٦ ترجمة محمد عبدالهادي ابو ريده القاهرة ١٩٦٨ (عن مصدر بيزنطي) .

(٥٥) ابن كثير ، البدايـــــة والنهاية ج ٨ ص ٢٣٦ ، يعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٣ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٠٣ وما بعدها .

(٥٦) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ص ٤٦٨ ، ٤٧٨ .

(٥٧) ابن الاثير ، عزالدين علي ، (ت ١٢٣٤م) الكامل ج ٤ ص ١٣٠ (بيروت ١٩٦٠) .

(٥٨) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٧ _ ٢٣٨ .

(٥٩) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٥٦ ، تحقيق عباس .

(٦٠) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٥٧ ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، القاهرة ١٩٦٧ .

(٦١) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٦١٢ .

(٦٢) المنبجي ، اغابيوس بن قسطنطين ، كتاب العنوان ص ٢٥٥ مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٧ .

(٦٣) القلقشندي ، أحمد بن عبدالله (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) صبح الاعشى ج ٣ ص ٢٥٦ ، القاهرة ١٩١٣ _ ١٩١٧ .

(٦٣م) يذكر الحصيني ، وهو من كتاب مطلع القرن العشرين ، ان زوجة معاوية الثاني قتلته ، ولكن الحصيني لا يذكر لقوله هذا مصدرا ، مما يحملنا على الشك فيه ، سيما وانه يغالط فيذكر ان مروان بن الحكم قبل البيعة مكرها استرسالا مع ميل بني أمية (منتخبات ، ص ٨٩ ، ٩١) .

_ الحصيني ، محمد أديب ، منتخبات التواريخ لدمشق ، تقويم كمال الصليبي ، ج ١ _ ٣ ، بيروت ١٩٧٩ .

(٦٤) ابن العبري ، مختصر ص ١١١ .

(٦٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩ ، مطبعة الصادر _ القاهرة (بلا تاريخ) .

(٦٦) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٥٨ تحقيق عباس .
(٦٧) عاقل ، نبيه ، خلافة بني أمية ص ١٢١ ، دمشق ١٩٧٢ .
(٦٨) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٧ _ ١٢٨ ، مطبعة المثنى _ بغداد .
(٦٩) ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٠م) العقد الفريد ج ٣ ص ١٤٤ _ ١٤٥ مطبعة الازهر _ الطبعة الثانية القاهرة ١٩٢٨ .
(٧٠) أبو تمام ، نقائض ص ١٢ _ ١٣ .
(٧١) أبو تمام ، نقائض ص ١ ، ٧ ، البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٨ _ ١٢٩ ، مكتبة المثنى _ بغداد .
(٧٢) الطبـــري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٢٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤١ ، ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٢٨ .
(٧٣) أبو تمام ، نقائض ص ١٤ .
(٧٤) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٠ ، ٥٣٢ .
(٧٥) أبو تمام نقائض ص ١٦ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٦ .
(٧٦) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٢ .
(٧٧) أبو تمام، نقائض ص ٦ تحقيق ج . فراتاج، اشعار الحماسة ، ص ٢١٨ ، بون ١٨٢٨ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٠ ، ٥٤٠ ، ابن سعد ، طبقات ج ٥ ص ٢٧، ابن كثير ، البداية ج ٨ ص ٢٣٩ _ ٢٤١ ، عاقل ، تاريخ بني أمية ، ص ١٢٨ .
(٧٨) يعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٣ .
(٧٩) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ٣٤٤ بيروت ١٩٦٥ .
(٨٠) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٤٤ .
(٨١) العسقلاني ، ابن حجر ، (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) تهذيب ج ١٠ ص ١٢ حيدر آباد ، الدكن ١٣٢٧هـ .
(٨٢) أبو تمام ، نقائض ص ١٢ ، ١٣ .
(٨٣) أبو تمام ، نقائض ١٣ .
(٨٤) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٦ _ ٥٣٧ .
(٨٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٣ ص ١٤٤ _ ١٤٥ .
مجهول ، الامامة والسياسة ج ١ ص ٢٤٦ _ ٢٤٧ ، سعيد صالح .
(٨٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٩ .

(٨٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ورقة ١٧٦ _ ١٧٧ (مخطوط) .

(٨٨) أبو تمام ، نقائض ص ١٥ ، الطبري تاريخ ج ٥ ص ٥٣٦ _ ٥٣٧ ، ابن كثير ، البداية ج ٨ ص ٢٤٠ ، مطبعة السعادة .

(٨٩) ابن سعد ، طبقات ج ٥ ص ٢٨ ، ٢٩ .

_ الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٧ .

(٩٠) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، مطبعة المثنى _ بغداد .

(٩١) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٦٦ _ ٦٧ القاهرة ١٩٣٨ .

_ البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٨ _ ١٢٩ ، مطبعة المثنى _ بغداد .

(٩٢) ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٢٨ _ ٢٩ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٧.

(٩٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦٦ _ ٦٧ .

(٩٤) المنجي ، العنوان ص ٣٥٤..

(٩٥) أبو تمام ، نقائض ص ١٧ .

_ اشعار الحماسة ص ٣١٧ ، تحقيق فرنتاج ، بون ١٨٢٨م .

(٩٦) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٧ .

(٩٧) الطبري ، ن . م . ج ٥ ص ٥٣٢ _ ٥٣٧ .

(٩٨) الطبري ، ن . م ج ٥ ص ٥٣٧ .

(٩٩) الطبري ، ن . م ج ٥ ص ٥٣٨ .

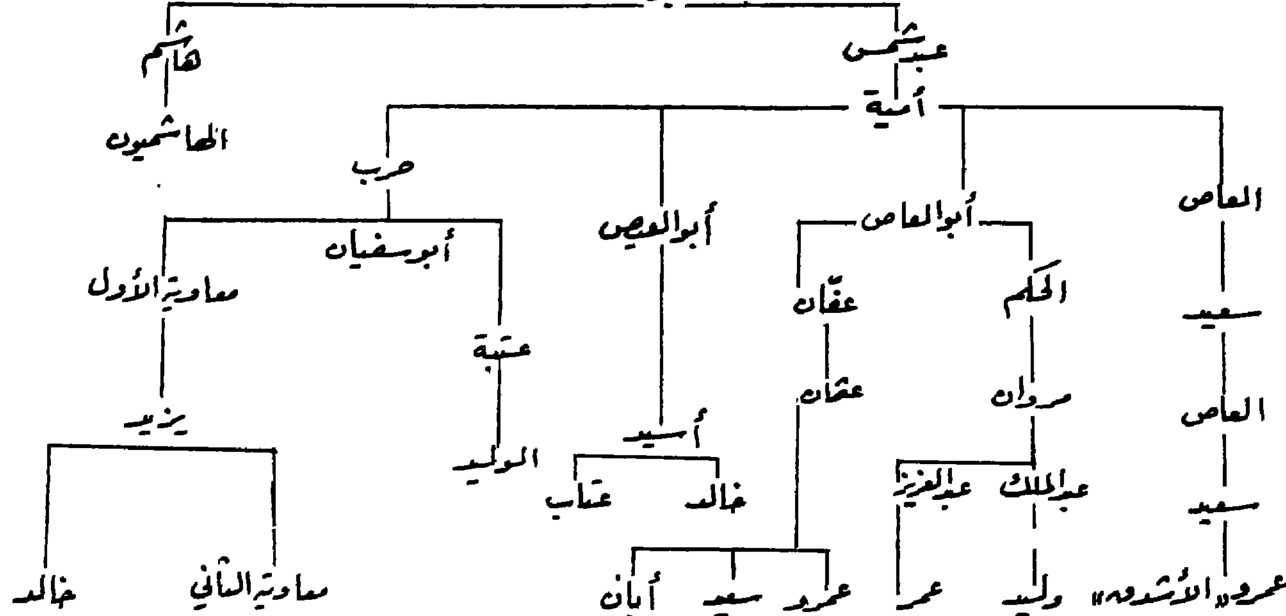
(١٠٠) المسعودي ، التنبيه والاشراف ص ٣٠٩ ، البلاذري ، انساب ، ج ٥ ص ١٣٥ مطبعة المثنى _ بغداد .

(١٠١) النص ، احسان ، العصبية القبلية واثرها في الشعر الاسلامي ص ٢٧٦، بيروت ١٩٦٤ .

(١٠٢) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٠ _ ٥٣٥ ، فلهاوزن ، تاريخ الدولة ص ١٧٨ . أبو ريده ، مترجم «تاريخ الدولة» لفلهاوزن هامش ١٧٨ .

(١٠٣) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٤٤٢ ، تحقيق احسان عباس .

(١٠٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، مخطوط ورقة ١٨٧ .



ملاحظة: هذه شجرة تمثل بني أمية، خاصة الشخصيات التي ورد ذكرها في البحث.

انظر: ١- الزبيري - نسب قريش ص ١١٧

٢- البلاذري - أنساب الأشراف تحقيق: احسان عباس - بيروت ١٩٧٩ - القسم الرابع

٣- كاسكل - جمهرة النسب لهشام بن محمد الكلبي ليدن - ١٩٦٦ ج١ لوائح ٨ - ١٠

روح بن زنباع الجذامي*
من رجالات الدولة الاموية

روح بن زنباع سيد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها(١) ، وهو تابعي جليل روى عن ابيه .. ويكنى بابى زرعة وقيل بابي زنباع الجذامي الفلسطيني(٢) لا تعرف على التحقيق سنة ولادته والارجح انه ولد في عهد الرسول (ص) وكان لوالده صحبة .. اما وفاته فكانت في الاردن زمن عبدالملك بن مروان سنة ٨٤هـ(٣) .

وجذام كما ذكرنا من اكبر قبائل العرب من جنوب بلاد الشام وقد خالطها في صفوفها ابناء عمومتها لخم ، ويبدو انه قامت بينهم وبين انباط بترا الذين كانوا قبلهم في نفس الاراضي حلف على الطريقة العربية المعروفة فاندمج الانباط بهم ، فجذام في الواقع مؤتلف قبائل واستطاعت ان تقف على قدم المساواة مع غسان وكلب وكنده من القبائل العربية الكبرى والقوية في ارض الشام وحسب ما يذهب اليه النسابون فجذام من قضاعة وقضاعة من اليمانية اما مساكن جذام في صدر الاسلام فتمتد من حجر في الجنوب الى ارض سوريا في الشمال حيث تحدها مساكن بني كلب ، وقد انتشرت بنو جذام في وادي القرى وحول عمان ومعان واذرح ومدين وغزة وكانوا يتعاطون التجارة بين مصر وسوريا والجزيرة(٤) .

كان موقف جذام السياسي بجانب معاوية بن ابي سفيان مثلها مثل غالبية عرب الشام وامتد تأييدها الى ولده يزيد ومن ثم للمروانيين الاوائل . نحن لا نعرف عن حياة روح بن زنباع المبكرة شيئاً ولكننا نراه في عداد الرجال الكبار الذين يعتمد عليهم معاوية بن ابي سفيان ويرسلهم لتمثيله هنا وهناك ، فنقرأ في انساب

---

* نشر في مجلة افكار الاردنية _ عدد ٥٢ : سنة ١٩٨١ _ عمان .

الاشراف للبلاذري ان معاوية وجه روح بن زنباع الجذامي الى بعض الملوك(٥) في صلح جرى بينهما ليكتب بينهما كتاباً فلما قدم روح على الملك تشدد في الشرط فقال له الملك : ما هذا التشدد وقد بلغني انك من صعاليك العرب (روح الجذامي من اشراف العرب وسادتها) وانك تريد الركوب الى صاحبك فتستعير الدواب ، وانك لست تبصر امرك ولا تقصد لما فيه الحظ لك فاصب من هذا المال واعمل لنفسك . فاعطاه عشرين الف دينار ولين له الشرط ، فلما قدم معاوية نظر في الشرط فقال : ويحك ما علمت الا علي ولقد خنتني وغششتني والله لاعاقبنك عقوبة اجعلك فيها نكالا لمن بعدك ، فقال روح انشدك الله يا امير المؤمنين لا تشمتن بي عدواً انت وقمته ولا تسؤن في صديقاً انت سررته ، ولا تهدمن ركناً انت بنيته هل اتى حلمك واحسانك على جهلي واساءتي فرق له معاوية وقال : خلوه اذا الله سنى حل عقد تيسرا(٦) وتذكر المصادر ان معاوية بن ابي سفيان قد ولى روح بن زنباع بعلبك واثناء حكمه لبعلبك يروي لنا البلاذرى هذه الحكاية انه رجم امرأة ورجلا وربما دون التأكد من ذنبهما فقال الشاعر :

ان الجذامي روحا في اقامته
حد الاله لمعذور وان عجــلا
لو كان رفه عن حسناء ناعمة
وعن اخي غزل لم يحسن الغزلا

فبلغ الشعر معاوية فكتب الى روح « لا تعجلن باقامة حد حتى تثبت في امره ، فتكون اقامتك اياه باقرار ظاهر او باربعة شهود ، اولى الامور بالتعجيل اداء حقوق الله(٧) .

وجاء في كتاب «البداية والنهاية» ان يزيد بن معاوية قد أمّر روح بن زنباع على جند فلسطين(٨) وهذا الامر يبدو طبيعياً جداً كون جند فلسطين هو موطن بني جذام وان روحاً هو سيد هذه القبائل واميرها .

ولقد شارك روح بعد ذلك في حرب يزيد بن معاوية ضد عبدالله بن الزبير بل كان من ابرز قادة جيش الشام الذي ارسل لقتال عبدالله بن الزبير بقيادة مسلم بن عقبة المري . فنقرأ عند البلاذرى ان مسلم بن عقبة بعد ان فرغ من قتال اهل المدينة ـ اي بعد وقعة الحرة ـ واراد السير الى مكة لقتال عبدالله بن الزبير المتحصن هناك خلف بعده على المدينة روح بن زنباع .

وحيث ان الاحداث الجسام في تلك الفترة العصيبة من تاريخ العرب المسلمين جرت بسرعة اذ توفي مسلم بن عقبة ـ قبل وصوله مكة المكرمة عند المشلل ـ وخلفه في إمرة الجيش الحصين ابن النمير .. وما ان تسلم هذا قيادة الجيش واخذ يستعد للهجوم على عبدالله بن الزبير العائذ بالبيت حتى جاءه نعي الخليفة يزيد بن معاوية فهم بالرجوع الى الشام .. فيذكر البلاذري انه عند انصراف الحصين واصحابه الى الشام فلما صار بالمدينة بلغه ان اهلها يريدون محاربته فقام روح بن زنباع على منبرها فقال : يا اهل المدينة ما هذا الذي بلغنا عنكم «فاعتذروا وكذبوا عن انفسهم ومضى الحصين ومن معه الى الشام(٩) .

عل اثر موت يزيد بن معاوية انتشرت الخلافات في الاقاليم وظهرت الفتن واستشرى امر العصبية القبلية . وكان طبيعياً ان ينال الخلافة معاوية الثاني ابن يزيد بن معاوية بعد ابيه ولكنه مات بعد حكم قصير جداً وتقول بعض الروايات الضعيفة انه تنازل عن

الخلافة قبل موته وبهذا انتهى عهد الحكم السفياني . وقد امتدت الاضطرابات الى بلاد الشام نفسها فقبائل قيس التي كانت مساكنها في شمال الشام وفي الجزيرة على جانبي نهر الفرات وفي قنسرين وقرقيسيا وحران ، هذه القبائل القيسية قد امتنعت عن مبايعة معاوية بن يزيد وكانوا حنقين على كل ما كان لكلب من شأن بسبب يزيد وابنه معاوية لان ام كل منهما كلبية _ وكان لحسان بن مالك بن بحدل الكلبي خال يزيد مركزاً قوياً في الدولة فكان كالمالك للامر ، وكان العباد الاكبر لمعاوية الثاني ، وكان اخوه سعيد اميراً على قنسرين . فرأت قيس ان اسناد الامارة عليهم وفي مدينتهم الى رجل من كلب امر لا يمكن ان يطاق .

فثار زفر بن الحارث الكلابي (حسب رواية عوافه بن الحكم عند الطبري)(١١) فقنسرين تبايع لعبدالله بن الزبير ، وبايع النعمان بن بشير الانصاري بحمص لابن الزبير وكان حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بفلسطين عاملاً لمعاوية بن ابي سفيان ، ثم يزيد بن معاوية بعده ، وكان يهوى هوى بني امية وكان سيد اهل فلسطين ، فدعا حسان بن مالك بن بحدل الكلبي روح بن زنباع الجذامي ، فقال : اني مستخلفك على فلسطين وادخل هذا الحي من لخم وجذام ولست بدون رجل اذ كنت عينهم قاتلت بمن معك من قومك . وخرج حسان بن مالك الى الاردن واستخلف روح بن زنباع على فلسطين . فثـــار ناتل بن قيس بروح بن زنباع فاخرجه فاستولى على فلسطين وبايع لابن الزبير وقــــد كان عبدالله بن الزبير كتب الى عامله بالمدينة ان ينفي بني آمــــــية من المدينة فنفوا بعيالاتهم ونسائهم الى الشام فقدمت بنو امية دمشق وفيها مروان بن الحكم .

فكان الناس الى فريقين : حسان بن مالك بالاردن يهوى هوى بني امية ويدعو لهم والضحاك بن قيس الفهري بدمشق يهوى هوى عبدالله بن الزبير ويدعو اليه ..

غير ان ابن بحدل كان يريد الامر لاولاد يزيد بن معاوية اولاد اخته ولكن رأت الجماعة وفيهم عبيدالله بن زياد ، والحصين بن النمير وروح بن زنباع ان يبايعوا شيخ بني امية مروان بن الحكم ليقف امام ابن الزبير فهو افضل من خالد بن يزيد الفتى اليافع .. ليقول الطبري : فلما اجتمع رأيهم للبيعة بمروان بن الحكم قام روح بن زنباع خطيباً فحمد الله واثنى عليه ثم قال ايها الناس انكم تذكرون عبدالله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدمه في الاسلام ، وهو كما تذكرون ولكن ابن عمر رجل « ضعيف » وليس بصاحب امة محمد الضعيف ، واما ما يذكر الناس من عبدالله بن الزبير ويدعون اليه من امره فهو والله كما يذكرون بانه لابن الزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن اسماء ابنة ابي بكر الصديق ذات الناطقين وهو بعد كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق ، قد خلع خليفتين: يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد ، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين وليس صاحب امر امة محمد صلى الله عليه وسلم المنافق واما مروان ابن الحكم فوالله ما كان في الاسلام صدع قط الا كان مروان ممن يشعب ذلك الصدع ، وهو الذي قاتل عن امير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذي قاتل علي ابن ابي طالب يوم الجمل ، وانا نرى للناس ان يبايعوا الكبير ويستثيبوا الصغير « يعني بالكبير مروان بن الحكم وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية » ثم قال : فاجمع رأي الناس على البيعة لمروان ، ثم لخالد بن يزيد من بعده(١٢) .

وكان موقف روح بن زنباع هذا انتصار لمروان وقد تمت على اثره البيعة له واصبح لروح مكانة مرموقة في البيت المرواني(١٣).

فدعا حسان بن مالك خالد بن يزيد فقال : ابني اختي (يقصد خالد واخاه) ان الناس قد ابوك لحداثة سنك ، واني والله ما اريد هذا الامر الا لك ولاهل بيتك وما ابايع مروان الا نظراً لكم ، فبايع لمروان وبايع الناس له وسار مروان الى الجابية في الناس حتى نزل مرج راهط على الضحاك في اهل الاردن من كلب واتته السكاسك والسكون وغسان ..

فقام قتال بين الضحاك ومعه القيسية ومروان ومعه كلب واكثر اليمانية .. وكان النصر بجانب مروان وكلب وجيءُ له برأس الضحاك فقال وهو مغتم الان حين كبرت سني ودق عظمي وصرت الى مثل ظمْ الحمار اقبلت بالكتائب اضرب بعضها ببعض .

وقال مروان حين بويع له ودعا الى نفسه :

لما رأيت الامر امرا نهبـــا

سيرت غسان لهم وكلبـــا

والسكسكيين رجالا غلبـــا

وطيئاً تأباه الا ضربـــا

والقين تمشي في الحديد نكبا

ومن تنوخ مشمخرا صعبـــا

لا يأخذون الملك الا غصبـــا

وان دنت قيس فقل لا قربا(١٤)

فيكون مروان اول خليفة في المسلمين يأخذ الخلافة بالسيف واستطاع مروان بن الحكم بعد ان وصل الخلافة ان يمهد الطريق لوصول ولده القدير عبدالملك الى الخلافة فاستطاع عبدالملك رغم

ان الفترة كانت مزدحمة بالاحداث السياسية العامة والمضطربة ان يوحد العرب ويعيد الهدوء والاستقرار الى العالم الاسلامي ذلك الاستقرار الذي ظهرت نتائجه في اصلاحات عبدالملك الكبرى وأهمها تعريب الدواوين .. وفيما بعد بموجه من الفتوحات الواسعة والاعمال العمرانية التي شهدتها خلافة ولده الوليد بن عبدالملك بن مروان(١٥) .

فبعد استتباب الامر لعبدالملك اثر انتصاره على خصومه السياسيين خاصة عبدالله بن الزبير نجد الخليفة امير المؤمنين عبدالملك بن مروان يتصرف كما ينبغي على الخليفة المسؤول ان يتصرف فارتفع بالبيت القرشي الاموي فوق الخصومات العشائرية والمنازعات القبلية فاثبت انه سياسي محنك ودبلوماسي بارع ورجل دولة من الطراز الاول ، وما هي الا فترة وجيزة حتى نجد في مجلسه اعداء الامس من زعماء القبائل مجتمعين يعملون تحت قيادته لخدمة امبراطوريتهم العربية الاسلامية فكان يرتاد مجلس عبدالملك من زعماء القيسية زفر بن الحارث وابناؤه ، وكان من أعظم الشخصيات اليمانية جاهاً في بلاط الخليفة ابن بحدل الكلبي وروح بن زنباع الجذامي ..

ويبدو لنا أن الخليفة قد وجد في شخص روح بن زنباع المستشار الذكي والوزير النابة فوجده أكثر تفهماً (للاوضاع الجديدة ولظروف الخليفة المتجددة دائماً) من ابن بحدل الذي وصف بالاعرابي والذي كان مزهوا بنفسه وبقبيلته ومآثرها وترداد ذكر اياديها عل البيت المرواني . لذا نجد ان الخليفة عبدالملك يرتاح اكثر لروح بن زنباع لدماثته وكياسته وفصاحته فيقدمه على غيره فيصبح روح بن زنباع بعد وقت قصير بمثابة وزيره وممثله

الشخصي . « وكان له اختصاص بعبدالملك الا يكاد يغيب عنه . وكان عبدالملك من جانبه يقول فيه: جمع روح طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز(١٦) .

وحين ولى عبدالملك اخاه بشرا العراق ضم اليه روح بن زنباع وأوصى اخاه بشرا قائلاً : ان روحاً عمك الذي لا ينبغي ان تقطع امراً دونه لصدقه وعفافه ومناصحته ومحبته لنا أهل البيت ولهذا احتشم بشرا منه ويخبرنا الجهشياري ان الامير بشر اغرى بالشراب ، فثقل عليه مكان روح بن زنباع ، فقال لاصحابه :ـ من يحتال لي فيه ؟ فقال سراقه البارقي : انا ثم صار سراقه الى دهليز روح فكتب على الحائط .

يا روح من لبنيات وارملـــه

اذا نعاك لاهـل المغرب الناعـي

ان الخليفة قد شالت نعامتـه

فاحتل لنفسك يا روح بن زنباع

فلما وقف روح على ذلك غدا الى بشر فاستاذنه في الرجوع الى الشام فجعل بشر يحبسه ويسأله ان يقيم فأب فاذن له فعاد الى دمشق فلما دخل على الخليفة عبدالملك قال : الحمد لله على سلامتك يا أمير المؤمنين ، قال وما ذاك ؟ فاخبره الخبر ، فقال له سخر منك بشر وأهل العراق لما ثقلت عليهم ، فاحتلوا في الراحة منك(١٧) .

دخل روح بن زنباع على الخليفة عبدالملك وعنده ابنه الوليد (ويقول ابن عساكر وكان روح ذا مكانة عنده) فقال : يا امير المؤمنين اعدني على الوليد فقال مالك وله . قال طلبت منه ان يسكني ضيعته الفلانيه التي بجانب ضيعتي فأبى . فقال عبدالملك

للوليـد : اعطه اياها بما فيها من العبيد والالات فاعطاه اياها .
وكان روح ابن زنباع اذا خرج من الحمام اعتق رقبة وله دار بدمشق(١٨).

واود ان اختم هـذا الحديث عن روح بن زنبـاع بقصة طريفة حدثت له مـع عمران ابن حطـان الخارجي والشاعر الكبير .

كان عمران من شعراء الشراه وطلبه الحجـاج .. فكتـب فيه الى اعماله والى عبدالملك فخرج عمـران هاربـاً من الحجاج .. ولم يزل يتنقل في احياء العرب ثم لحق بالشام فنزل بروح بن زنباع الجذامي فقال له روح : فمن انت . فقـال : من الازد .. فقال : وكان روح يسمر عند عبدالملك فاقبل له ليلة يا امير المؤمنين : ان في اضيافنا رجلاً ما سمعت منك حديثاً قط الا حدثني به وزاد فيما ليس عندي قال : فمن هو . قال : من الازد . قال عبدالملك : انـي لاسمعك تصف صفة عمران بن حطان لانني سمعتك تذكر لغة نزارية وصلاة وزهداً ورواية وحفظاً وهذه صفته فقال روح : وما انا وعمران ؟ ثم دعا عبدالملك بكتاب الحجاج فاذا فيه يطالب بالقبض عل عمران الذي افسد أهل العراق وحببهم بالشراة .. فراح روح الى اضيافه فاقبل على عمران فقال له : اني ذكرتك لعبدالملك فأمـرني ان اتيه بك ؟ قال : كنت أحب ذلك منك ، وما منعني من ذكره الا الحياء منك ، وانا متبعك فانطلق . فدخل على عبدالملك فقال له : اين صاحبك ؟ فقال : قال لي انا متبعك . قال : اظنك والله سترجع فلا تجده فلما رجع روح الى منزله اذا عمران قد مضى واذا هو قد خلف رقعة في كوة عند فراشه وفيها يقول :

يا روح كم من أخي مثوى نزلت به

قد ظن ظنك مــــن لخـــــم وغسان

حتى اذا خفته فارقت منزلـــــه

من بعد ما قيل : عمران بن حطـــان

قد كنت ضيفك حولاً لا تروعنـــي

فيه الطوارق من انس ولا جـــــان

حتى اردت بي العظمى فاوحشنـي

ما أوحش الناس من خوف ابن مروان

فاعذر اخاك ابن زنباع فان لـــه

فـي الحادثات هنات ذات الـــوان

يوماً يمـــان اذا لاقيت ذا يمـــن

وان لقيـــت معديـاً فعدنانـــي

ولو كنت مستغفراً يوماً لطاغيـــة

كنت المقدم فـــي سري واعلانـــي

لكن ابت ذاك آيـــــات مطهـرة

عند التلاوة من طـــه وعمـــران(١٩)

المصادر والمراجع :

١ ـ ابن حجر العسقلاني : (١٣٧٢ ـ ١٤٤٩م)
الاصابة في تمييز الصحابة : الترجمة ٧ : ٢٧ القاهرة .
٢ ـ ابن عساكر : (ت ٥٧١هـ) تهذيب تاريخ دمشق الكبير .
فقه الله علي بن الحسين هذبه ورتبه الشيخ عبدالقادر بدران ببيروت سنة ١٩٧٩م ج ٥ ص ٣٤٠ .
٣ ـ ابن عساكر : ن . م . ٥ ص ٣٤٠ .
٤ ـ الواقدي : (ت ٨٢٢م) كتاب المغازي ابو عبدالله محمد دار المعارف المصرية القاهرة ١٩٦٦ ج ٣ ص ٩٨٠ وما بعدها صالح الحمارنة : دور الانباط في الفتوح الاسلامية مجلة دراسات ـ العلوم الانسانية ـ المجلد السابع العدد ١ حزيران ١٩٨٠م ص ١٦٨ ـ ١٦٩ الجامعة الاردنية .
٥ ـ ان صحت رواية البلاذري هذه فنقدر ان الملك المقصود هو بيزنطي ولكن الجدير بالذكر ان البلاذري ينفرد في هذه الرواية اما المصادر الاخرى فتكتفى بالقول ان معاوية «عنف» روح بن زنباع او «هم» به معاوية دون ذكر للسبب . مراجع :
الجهشياري ، الوزراء ص ٣٦ .
ابن قتيبة ، عيون الاخبار ١ ـ ١٠٢ .
الجاحظ ، البيان والتبيين ١ ـ ١٥٨ .
ابن عبدربه ، العقد الفريد ٢ ـ ١٥٦ .
ابن عساكر ، تهذيب ٥ ـ ٣٣٨ .
٦ ـ البلاذري : احمد ـ انساب الاشراف تحقيق احسان عباس القسم الرابع ١ : ٦٨ بيروت ١٩٧٩م .
ـ الجاحظ البيان والتبيين تحقيق عبدالسلام مارون ١ : ١٥٨ .
٧ ـ البلاذري : احمد ـ انساب ٤ : ١٣٧ .
٨ ـ ابن كثير ـ البداية والنهاية جزء ٩ : ٥٨ ، ٦٠ تحقيق النجار الرياض.
٩ ـ البلاذري : انساب جزء ٤ : ٣٣٧ ، ٣٤٨ .

النصارى العرب في ارض الشام
في أوائل الحكم الإسلامي*

تواجد العرب في ارض الشام منذ اوائل الالف الاولى قبل الميلاد وعلى فترات متقطعة وقد ازداد تواجدهم بشكل ملحوظ منذ القرن الثالث ميلادي حتى ظهور الاسلام (١) فهذه الكتابات الصفوية الكثيرة تعطينا صورة عن تواجد الصفويين في ارض الشام حول دمشق من الجهة الشمالية والجنوبية منذ مطلع القرن الاول للميلاد ، ونرى ان سيل هجرتهم يستمر ، ففي القرن الرابع الميلادي سكنوا المناطق في جهة الازرق في شرقي الاردن وشمالي تدمر في سوريا وشمالي بعلبك في لبنان اليوم (٢) . وان الآثار التي وصلتنا عن الصفويين من كتابات ونقوش وصور تشير الى انهم بقوا على وثنيتهم وانهم قد تأثروا بالحضارات السامية المحلية السابقة وكذلك بحضارة العصر الروماني المتأخر (٣) وبما اننا نرى دليلاً ساطعاً على تواجد العرب في ارض الشام وفي منطقة فلسطين وحوران بالذات منذ القرن الرابع ميلادي ، فالآثار تشير الى ان هذه المنطقة كانت كثيفة السكان بدليل وجود آثار لثلاثمائة قرية ومدينة ترجع بتاريخها الى العصر الروماني المتأخر والعصر البيزنطي وبهذه المنطقة تقع النماره حيث وجدت اولى الكتابة العربية بالخط العربي المتصل الحروف والتي يرجع تاريخها الى ٣٢٨م وتذكر هذه الكتابة اسم امرؤ القيس ملك العرب اللخميين(٤).

---

* هذا البحث نشر ضمن كتاب «تاريخ الشام» الذي تضمن الاعمال الكاملة لمؤتمر بلاد الشام المنعقد في عمان ـ الجامعة الاردنية ٢٠ ـ ٢٥ نيسان ١٩٧٤ .

من هنا نرى كثيراً من العرب ناهيك عن الانباط والتدمريين الذين جاءوا هذه المنطقة وجاوروا اخوانهم الساميين السابقين ويلوح لنا ان هؤلاء العرب بقي قسم كبير منهم على وثنيتهم حتى بعيد مجيئ الاسلام . ونرجح انهم وبدوافع واضحة كانوا الى جانب العرب المسلمين في حربهم ضد البيزنطيين .

اما العرب الذين تنصروا فقد اخذوا ذلك عن ابناء عمومتهم الآراميين الذين سبقوهم الى النصرانية وايضاً بتأثير مباشر من البيزنطيين في الفترة اللاحقة ، نرى ان قبائل الضجاعمة العرب الذين سبقوا الغساسنة في سكنى منطقة البلقاء وكانوا ملوكاً في الشام قبل غسان قد تنصروا ايضاً قبل الغساسنة وقد جاء في الاخبار ان اسم احد امرائهم الذي تنصر داوود بن الهبومه المعروف باللثق وجعلوا مقامه مأدبا وذلك في أواخر القرن الثاني للمسيح(٥). ويذكر المسعودي «وكانت قضاعة بن مالك بن حمير اول من نزل الشام وانضافوا الى ملوك الروم ، فملكوهم بعد ان دخلوا في النصرانية على من(٦) حوى الشام من العرب (مسعودي مروج ١ : ٣٦٥) . ويستمر المسعودي « ثم وردت سليح الشام فغلبت على تنوخ وتنصرت فملكتها الروم على العرب الذي بالشام وهم من قضاعة ... فاستقام ملك سليح بالشام(٧) ن.م ص ٣٦٥ » .

وكما هو معروف ففي القرن الرابع ميلادي كانت مدينة البتراء ـ عاصمة ما يعرف بفلسطين الثالثة ـ وقد بلغ عدد(٨) الكراسي الاسقفية المسيحية فيها نيفاً واربعين كرسياً وهذا يدل بوضوح على الكثرة العددية للمسيحيين في المنطقة وعلى انتشار النصرانية هناك .

وتشير الدلائل الى ان الربة في جنوبي الاردن اخذت تزدهر وتأخذ مكان البتراء . وبقيت هذه المدينة على ازدهارها حتى نهاية القرن السابع ميلادي ، وكان رجال الدين في الربة يمارسون في كنائسهم استعمال اللغة اليونانية كلغة طقوس دينية وان اهاليها كان لديهم الحماس الكثير في بناء الكنائس والاكثار منها(٩) .

ونعود للحديث عن منطقة حوران حيث يذكر محمد كرد علي انه في اكثر امهات قرى حوران كنائس امتدت حتى العصر الاسلامي خربت بطول الزمن حتى قيل انه كان فيها ٣٤ اسقفية ناميك بما يقتضي لها من الكنائس(١٠) .

ويذكر الاب فيدرلين انه في مطلع القرن السادس ميلادي كان في نواحي الغور وعلى ضفتي نهر الاردن اديرة عديدة يعرف مواقع عشرين منها(١١) . وفي كتاب «مدينة النبو» يذكر الابوان سالر وبكاتي Saller and Bagatti انه يوجد اكثر من ١٤١ موقعاً مسيحياً في شرقي الاردن وذلك قبيل دخول الاسلام(١٢) .

اما بالنسبة لبني غسان ـ وهم من قبائل الازد ـ والذين جاءوا من جنوبي الجزيرة وسكنوا الشام عند الحدود البيزنطية في حوالي سنة ٤٩٠م «وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان ، وغيرهما من(١٣) غوطة دمشق واعمالها ، ومنهم من نزل الاردن من ارض الشام ... وببلاد مادبا من ارض البلقاء من بلاد دمشق وكذلك مدائن قوم لوط من ارض الاردن وبلاد فلسطين(١٤) . وهذه القبائل العربية قد قبلت المسيحية وكانت على علاقات ودية مع الامبراطورية البيزنطية وكانت تدفع ضريبة الحماية ولقب زعيم الغساسنة بالملك .Phylarch غير ان العرب الغساسنة اتخــــذوا المذهب المونوفيزيقي القائل بالطبيعة الواحــــدة

للسيد المسيح . وقد تحمس لهذا المذهب يعقوب البردعي مطران الرها(١٥) حتى صارت الكنيس المونوفيزية تعرف بكنيسة اليعاقبة .

وجدير بالذكر ان الفساسنة اليعاقبة كان لهم نشاط تبشيري كبير خاصة في الجزيرة وفي نجران بالذات وكان لهم حتى القرن الثامن ميلادي نشاط ملحوظ في العمران وفي بناء الاديرة ، ومن اديرتهم دير ايوب ودير الدهنا ، وكان بنو غسان يعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه ويجعلون من حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب . وقد حذا حذوهم المناذرة في الحيرة وبنو الحارث بن كعب في نجران . صحيح ان اكثرية الفساسنة اعلنت اسلامها ... ولكن كثيراً من العائلات المسيحية العربية في بلاد الشام حتى اليوم هم من بقاياهم (١٦) .

اما بالنسبة لبنيّ تغلب هذه القبائل العربية الابية والتي اخذت توطد اقدامها في القرن السادس ميلادي ـ على المجرى الادنى لنهر الفرات ، وكانت قصبة منازلهم في القرن الاول للهجرة وسط الجزيرة بين قرقيسيا ونصيبين والموصل شمالاً وتكريت وعانة جنوباً ، وجدير بالذكر هنا ان طريق الهند التجاري الشهير كان يمر بارضهم اذ كانت تمر آنذاك بالجزيرة الطرق التجارية في جميع الاتجاهات (١٧) .

لقد اتصلت تغلب بجيرانها من النصارى فتسربت لبني تغلب الديانة المسيحية وذلك قبل ظهور الاسلام بزمن ليس بالبعيد/ لم ترد في معلقة عمرو بن كلثوم اية إشارة الى النصرانية/ ويبدو انه لم يتغلغل دين المسيحية في قلوب بني تغلب ويروى عن الخليفة علي بن ابي طالب انه حين اشار الى احدى القبائل « وهي تغلب » التي تأصلت المسيحية فيها بأنها لم تأخذ عن النصرانية سوى

الخمر(١٨) . غير اننا نراهم قد استمسكوا به . (الدين المسيحي) فلم تفلح جميع المحاولات التي بذلها المسلمون في القرون الاولى من الهجرة لادخالهم في دينهم ـ يستثنى من ذلك جماعة صغيرة كانت تعيش في جوار طي ـ فنرى أنه حتى القرن الرابع هجري ـ العاشر ميلادي ـ بقي جزء كبير من بني تغلب على نصرانيتهم ، بدليل ان الكنيسة اقامت اسقفاً على هذه القبائل ففي القرن العاشر ميلادي(١٩).

ومأثور ان قبائل بني تغلب بدلاً من ان تدفع الجزية كانت تدفع الصدقة مضاعفة . فالمسلمون قد صادقوا هذه القبائل العربية لكسب جانبهم ، وذلك لاهميتهم البشرية والحربية والاقتصادية ثم لكونهم عرباً يعتزون بعروبتهم . فابن سلام في كتابه الاموال ينقل لنا ما يلي : قال النعمان او زرعة بن النعمان لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ان بني تغلب قوم عرب يأنفون الجزية وليست لهم أموال ، انما هم اصحاب حروث ومواشي ولهم نكاية في العدو . فلا تعن عدوك عليك بهم ، قال ، فصالحهم عمر على ان ضاعف عليهم الصدقة واشترط عليهم أن لا ينصروا اولادهم(٢٠) .

ويذكر الماوردي ان عمر بن الخطاب قد ضاعف الصدقة على تنوخ وبهراء زيادة على بني تغلب ، كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ، وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن(٢١) ، وجاء في كتاب الخراج لابن آدم ، «والمرأة والرجل من بني تغلب سواء في الصلح لانه ليس على رؤوسهم انما هو على اراضيهم(٢٢) .

نعم لقد جاء ان الرسول (ص) امر ان يقاتل العرب على الاسلام ، ولا يقبل منهم غيره وامر ان يقاتل اهل الكتاب حتى يعطوا

الجزية(٢٣) ، يقصد هنا العرب أهل الاوثان منهم ، فنحن نعلم تمام العلم ان الرسول الكريم صالح مجوس هجر وهم عرب على الجزية(٢٤) ، وقبلها من أهل نجران(٢٥) وهم نصارى ، واخذها ابو بكر من أهل الحيرة النصارى ايضاً ، وكذلك فعل خالد بن الوليد ببني تميم وغسان وتنوخ من عرب الشام(٢٦) . اذن نحن نواجه قبيل الاسلام وبعد الفتح بقليل شعوباً وقبائل عربية كثيرة سكنت أرض الشام واقامت سلطاناً وملكاً لها في كثير من نواحيه ، وهؤلاء العرب في الغالب اما وثنيون واما نصارى . ونجد ان الوثنيين منهم كانوا على صلة ضعيفة بالحضارة البيزنطية في حين انهم تأثروا بالحضارات السامية المحلية وبالحضارة الهيلينية بعض الشيئ . هؤلاء استقبلوا العرب المسلمين على العموم استقبالاً جيداً كذلك فعل النصارى ، كانوا في الغالب على خلاف حاد مع الكنيسة الملكانية الارثوذكسية في القسطنطينية . فهم اما يعاقبة كالغساسنة في الشام او نساطرة كأهل الحيرة . فكانوا بهذه العقلية اقرب روحاً الى المسلمين منهم الى الارثوذكسيين المسيحيين(٢٧) . وما مضى وقت قصير حتى قبل العرب الوثنييون الدين الحنيف الجديد واندمجوا في المجتمع مع احتفاظهم في البدء بدينهم وبالتدريج قبل غالبيتهم الاسلام . فنقرأ في كتب الفتوح وغيرها ما يؤيد ما ذهبنا اليه ... فالبلاذرى يذكر ان بني تنوخ وغيرهم ارسلوا الى خالد بن الوليد «انهم عرب وانهم انما حشروا مع الروم ، ولم يكن من رأيهم حربه «فقبل بهم وتركهم(٢٨) . ونقرأ في مكان آخر ، في الأموال لابن سلام قال «حدثنا هشام بن عبدالله بن قيس قال كنت فيمن تلقى عمر مع ابي عبيدة مقدمة من الشام ، بينما عمر يسير اذ لقيه المقلسون من أهل اذرعات بالسيوف والريحان(٢٩) .

ونعلم أيضاً ان جراجمة الشام حاربوا في صفوف المسلمين ، ونطالع في أوراق البردى العربية اسماء كثيرة للجند تدل على ان اصحابها من القبط والاراميين وغيرهم ، وقد تعاون النصارى في دمشق مع المسلمين ، فهذا المنصور بن سرجون (سرجيوس) قد تعاون مع المسلمين في تسليم دمشق للعرب ، ومنصور هذا ارامي الأصل وهو والد يوحنا الدمشقي المعروف(٣٠) .

ثم جاء الفتح الاسلامي فحمل معه الطمأنينة والهدوء للكثيرين الامر الذي سمح بالتقدم الاقتصادي في البلاد . وكان الدين الجديد متسامحاً مع الاديان الاخرى ، فلقد التزم المسلمون بالعهود التي اعطوها . وهنا يطيب لي التذكير بالعهود التي قطعها الصحابة المسلمون على أنفسهم ، فمثلاً نقرأ في العهد الذي اعطاه خالد بن الوليد لأهل دمشق . ـ بسم الله الرحمن الرحيم ... هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق بعد فتحها . اعطاهم امانا لانفسهم ولاموالهم وكنائسهم لا تهدم اذا ما اعطوا الجزية(٣١) . وذكر ابن عساكر انه كان في عهد دمشق خمس عشرة كنيسة . وكذلك اقام بدمشق بعد فتحها اثنا عشر بطريقا الى حين تم بدا لهم فهربوا من دمشق ، وتركوا تلك المنازل فصارت اقطاعاً لقوم من اشراف دمشق(٣٢) .

وحتى في وقت مبكر يرد في وصية ابي بكر الصديق لجنوده الذين خرجوا للفتح ونشر الدعوة قال «لا تهدموا بيعة ولا تقتلوا صبيا ، وستجدون اقواماً قد حبسوا انفسهم للذي حبسوها فذروهم وما حبسوا انفسهم له(٣٣) .

بل ننظر كم من التفهم والرحمة ما رواه الاوزاعي وجاء في كتاب ابن المساكر «التاريخ الكبير» ان عمر بن الخطاب كتب في

أهل الذمة ان من لم يطق الجزية خففوا عنه ، ومن عجز فأعينوه فانا لا نريدهم لعام او لعامين(٣٤) .

وروى نافع عن ابن عمر قال : كان اخر ما تكلم به النبي (صلعم) ان قال احفظوني في ذمتي(٣٥) وقال رسول الله (صلعم) من ظلم معاهداً او كلفه فوق طاقته فانا حجيجه الى يوم القيامة(٣٦) .

ونجد ان الامويين الاولين خاصة معاوية وولده يزيد قد اعتمدوا على نصارى الشام من كلب وتغلب وغسان ولخم وغيرهم بل أيضاً اعتمدوا النصارى من غير العرب . فقد توسع معاوية في الحاق المسيحيين بخدمته وحذا حذوه في ذلك افراد آخرون من البيت المالك (٣٧) .

وفي رأينا ان هذه السياسة الحكيمة الكريمة ليست من باب التسامح فحسب ، بل كان يفرضها ضرورة التعاون والتحالف ما بين الامويين وبين اخوانهم العرب في الشام خاصة اليمنيين الذين سبق لغالبيتهم ان استقروا وتحضروا بأرض الشام وفيها تنصروا . فهم قد عرفوا الحياة المستقرة وسكنى المدن والحياة الزراعية والتجارة . هذا زيادة على اعدادهم الكبيرة والتي كانت تفوق اعداد المسلمين ، وانهم قد اندمجوا في البلاد منذ زمن بعيد قبل الاسلام فهم في اعداد اهلها ... وهم كما هو معروف كانوا على خلاف مع البيزنطيين والكنيسة الارثوذكسية . كل هذا اوجب التحالف ما بينهم وبين الامويين الذين بدورهم _ زيادة على العدو الخارجي قد واجهوا معارضة شديدة من العرب في المدينة المنورة وفي العراق .

واذا ما استمرينا في استعراض صور التسامح الديني عند المسلمين خاصة في العصر الاموي فاننا نجد من ذلك الكثير . فمثلاً في سيرة يزيد بن معاوية الذي كان مثل ابيه متسامحاً متعاوناً وفوق

ذلك كانت امه ميسون الكلبية نصرانية ومن اليماقبة (٣٨) . فكان يزيد لينا مع المسيحيين وكان شاعره المفضل الاخطل التغلبي النصراني المشهور الذي قال فيه حماد الرواية (ما تسألونني عن رجل قد حبب الي شعره النصرانية)(٣٩) . وفي عهد هشام بن عبدالملك والذي كان عامله على العراق خالد القسرى المشهور بتسامحه الزائد مع النصارى في العراق فقد سمح لهم ببناء الكنائس الجديدة الكثيرة وكانت امه نصرانية(٤٠) .

في هذا العهـــــد نقرأ ان هشام بن عبدالملك اعاد شغل كرسي انطاكية بعد ان منعـــــوا من ذلك اربعين سنة ، ولكنه اشترط تعيين راهب بسيط هو اسطفـــــان الذي كان صديقاً له في كرسي انطاكية(٤١) . ومن علامات التسامـــح أيضاً كثرة البنائين النصارى الذين كانوا يعملون في أكثر المساجـــد الاسلامية وكثرة الاديرة التي بناها المسيحيون ، والدور البارز لهـــــذه الاديرة في الحياة الاجتماعية في صدر الاسلام مما نجد نماذج عن ذلك في أكثر كتب الادب والسير . وكيف ان هذه الاديرة كانت المكان المفضل الذي يلتقي فيه رجالات الادب والشعر والفكر والسياسة المسلمون. وكيف كانوا يطلبون في ظلالها الراحة والاستجمام . وقد حمل كثير من هذه الاديرة اسماء رجالات المسلمين البارزين مثل دير خالد قرب دمشق ، ويسمى أيضاً دير صليبا . ولا ننسى ان هذه الاديرة كان موطنها الاول بلاد الشام منذ القرن الرابع ميلادي وما بعده(٤٢) . وجدير بالذكر ان تاريخ الاديرة النصرانية (الديارات) في مصر وغربي آسيا قد صنفه كاتب مسلم هو علي بن محمد الشابشتي المتوفى حوالي عام ٣١٨هـ ـ ٩٩٨م(٤٣) . ونعلم أيضاً ان كبـــــار الكتاب المسلمين اعــــلام الثقافـــة العربيـــة الاسلاميـــة

أمثال المسعودي وابن حزم والبيروني والمقريزي قد اهتموا بالديانات الاخرى وكتبوا عنها الكثير .

ومعلوم ان أغلب نقلة الكتب اليونانية والسريانية الى العربية في العصور الاسلامية الاولى كانوا من النصارى عرباً وغير العرب . ومن اقدمهم اسطفان الكبير الذي استجاب لخالد بن يزيد بن معاوية فترجم له كتباً كثيرة(٤٤) . والمسلمون كما يقول ترتون كرماء في تقدير فضائل هؤلاء العلماء والمترجمين ممن على غير ملتهم حتى انهم كانوا يسمون حنين بن اسحق برأس اطباء عصره . ويعجب ابن خلكان من ان رجلاً في ذكائه وعبقريته لم يعتنق الاسلام(٤٥) . كذلك نجد ان أهل الذمة أخذت تدخل في جيوش المسلمين فالطبري يذكر ان مروان بن الحكم استعان بمائتي رجل من أهل ايلة وهم نصارى لضبط المدينة المنورة(٤٦) . وان أهل الذمة كانوا يؤثرون الخدمة الحربية على دفع الجزية(٤٧) .

وقد أقر عمر بن عبدالعزيز على حضور الذميين في معظم الجيوش(٤٨) . والبلاذري يذكر ان ابا زبيدة الطائي الشاعر النصراني حارب مع المسلمين في معركة الجسر ... حمية للمسلمين وسامم الى جانبهم(٤٩) .

أما مظاهر عدم التسامح والتشدد ضد المسيحيين وأهل الذمة عموماً والتي نقرأ عنها عند ابن عساكر(٥٠) والشعراني(٥١) والماوردي(٥٢) وغيرهم من الكتاب المسلمين المتأخرين نسبياً ، هذه المظاهر جاءت اما عن اجتهادات شخصية للحكام واما كانت بتأثير من العناصر المسلمة وغير العربية والتي توصلت للسلطة والتي لا يربطها مع العرب المسيحيين رابطة الدم واللغة والتقاليد المشتركة . فجاء هذا التشدد الذي ولا شك فرضته حالات اقتصادية

وسياسية معينة ووقتية . فنقرأ ان كثيراً من الخلفاء قد زادوا في الجزية والخراج على أهل الذمة ، زادها عبدالملك بن مروان(٥٤) وزادها ولده هشام بن عبدالملك (٥٤) ويروي الجهشاري عن سليمان ابن عبدالملك انه قال لعامله (مبلتك أمك احلب الدر فاذا انقطع فاحلب الدم والنجا)(٥٥) .

ثم في زمن يزيد بن عبدالملك (اشتد أيضاً اسامة بن يزيد التنوخي متولي الخراج على النصارى واوقع بهم واخذ أموالهم ووسم ايدي الرهبان)(٥٦) ويروي المقريزي ان عمر بن عبدالعزيز أمر باحصاء الرهبان فاحصوا واخذت الجزية منهم عن كل راهب ، وهي اول جزية اخذت من الرهبان(٥٧) . ويلخص الماوردي فيما بعد الشروط التي تفرض على أهل الذمة عند عقد الجزية فيما يلي (ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان مستحق مستحب . اما المستحق فستة شروط احدها ان لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له ، والثاني ان لا يذكروا رسول الله (صلعم) بتكذيب له ولا ازدراء . والثالث ان لا يذكروا دين الاسلام بذم له ولا قدح فيه . والرابع ان لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح . والخامس ان لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله و دينه . والسادس ان لا يعينوا اهل الحرب ولا يودوا اغنياءهم . فهذه الستة حقوق ملتزمة فتلزمهم بغير شرط ، وانما تشترط اشعاراً لهم وتأكيداً لتغليظ العهد عليهم ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم .

واما المستحب فستة أشياء احدها تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار . والثاني ان لا يعلوا على المسلمين في الابنية ويكون ان لم ينقصوا مساويين لهم . والثالث ان لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم . والرابع ان لا يجاهروهم بشرب خمورهم

ولا باظهار صلبانهم وخنازيرهم . والخامس ان يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة . والسادس ان يمنعوا من ركوب الخيل عناقاً ومجانا ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير) .

وهذه الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة حتى تشترط ... ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً(٥٨) . ويذكر الماوردي أيضاً (ولا يجوز لاهل الذمة ان يحدثوا في دار الاسلام بيعة ولا كنيسة ، فان احدثوها هدمت عليهم ، ويجوز ان يبنوا ما استهدم من بيعهم وكنائسهم العتيقة(٥٩) .

هذه الشروط المتأخرة وغير المتسامحة والتي وردت عند بعض المؤرخين المسلمين المتأخرين فعندنا الكثير مما ينقذها حتى ان الماوردي نفسه يذكر ان لكل قوم صلحاً ربما خالف ما سواه(٦٠) . اظهرت الاكتشافات الاثرية في الاردن وخاصة في منطقة مادبا أن المسيحيين وفي ظل الاسلام قد واصلوا بناء كنائس جدد لهم ودوراً للعبادة تخصهم وبقوا مع اخوانهم العرب في ظل الحكم الاسلامي آمنيين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بحرية التفكير الديني . وقد تمتعوا ـ خاصة في المدن ـ بحالة من الرفاهية(٦١) بل أكثر من ذلك. فنرى ان المسيحيين كانوا يحتكمون للخليفة في مسائلهم الدينية بل وتمنعهم السلطة الاسلامية من الاعتداء على بعضهم البعض ، فنجد ان اليعاقبة والموارنة كانوا يحتكمون الى معاوية في امورهم الدينية(٦٢) بل أكثر من ذلك فنقرأ في الأغاني انه كان للمسيحيين الحرية التامة في دخول المساجد الاسلامية(٦٣) ، والظاهر ان الذميين في عصور الاسلام الاولى كانوا يتحاكمون الى القاضي في المسجد ولطالما قام الأخطل مقام الحكم لقبيلة بكر بن وائل في المسجـــــد (٦٤) .

ومما يدل على مواصلة المسيحيين في بناء كنائسهم في العصر الاموي النقوش الفسيفسائية والموجودة في أرضية الكنائس المتعددة مثل كنيسة العذراء مريم في مادبا والتي يرجع تاريخها للعصر الاموي عام ٦٦٢ _ ٦٦٣م وكنيسة اخرى في ربة مؤاب ترجع الى عام ٦٨٧م . ونقرأ كذلك ان أحد النصارى من ذوي اليسار في مدينة الرها يدعى اتيناس قد بنى في عهد عبدالملك بن مروان (٦٨٥_٧٠٩) كنيسة جميلة وقفها على السيدة مريم ... كما أقام بناء للتعميد تكريماً لصورة السيد المسيح .

وهذا الرجل نفسه الذي انتقل بعد ذلك لمصر حيث أصاب ثراءً فاحشاً أثناء ولاية عبدالعزيز والي مصر من قبل أخيه الخليفة عبدالملك فقد بنى في مصر أيضاً كنيستين عظيمتين في الفسطاط(٦٥).

ويذكر محمد كرد علي انه ففي سنة ٦٧٠م أيام الامويين اضيفت كنيسة العذراء الى كنيسة الجلجلة في مدينة القدس(٦٦) . ويقول تيوفانس ان معاوية قد بنى بيعة للنصارى في الرها هدمها الزلزال(٦٧) ويذكر ارنولد انه من أعمال تيميتاوس الكبير بطريرك النساطرة انه سام استقف نجران وصنعاء واسمه بطرس في أواخر القرن الثامن ميلادي(٦٨) . ويذكر ابن النديم في كتابه الفهرست انه اجتمع براهب من نجران في اليمن يدعى حسان كان انفذه جاثليق النساطرة للصين فعاد منها سنة ٣٧٧هـ اي ٩٨٨م واخبره بعجائبها(٦٩) اذاً فالفتاوى التي تقول انه في المدن التي اخذت عنوة لا يصح للذميين ان يقيموا فيها دوراً للعبادة امر غير دقيق .

من جهة أخرى نرى ان تبادل الآراء والمناظرات والمناقشات كانت قائمة بين أصحاب مختلف الأديان فمثلاً منذ الوقت المبكر للاسلام نسمع ان عشرة من اساقفة نجران قدموا على الرسول

الكريم وجادلوه(٧٠) . وكانت عاصمة الامويين دمشق مسرحاً قامت عليه كثير من المناقشات الدينية ما بين المسلمين والمسيحيين ، ومن أكبر المناظرات التي قامت بين علماء الدينيين تلك التي سجلها يوحنا الدمشقي وتيودور ابو قره وهي معروفة . وقد رأى البعض أن المذاهب الاولى الخارجة على السنة في الاسلام نشأت من هذه المناقشات الدينية مثل الارجاء والقدرية(٧١) . ولهذه الخلافات الدينية اثر بارز في حياة عرب الشام الروحية ، فيرى المؤرخ كتياني ان كثرة الخلافات بين المذاهب المسيحية المتعددة قد جعلت كثيراً من العرب المسيحيين ينفرون من دينهم ويقبلون على الدين الجديد(٧٢) (لاكثر من سبب) .

وان انتشار الاسلام بين نصارى الكنائس الشرقية انما كان نتيجة شعور باستياء السلطة المذهبية التي جلبتها الروح الهيلينية الى اللاهوت المسيحي ، اما الشرق الذي عرف بحبه للافكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالاً عليه من الوجهة الدينية . ويستمر كِتِياني ويقول (لم تعد المسيحية قادرة على مقاومة اغراء الدين الجديد ...) الذي قدم مزايا مادية جليلة الى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل(٧٣) وحينئذ ترك «الشرق العربي» المسيح وارتمى في احضان نبي بلاد العرب .

المصادر والمراجع

١ـ عبدالعزيز الدوري العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام عن مقالته لمؤتمر بلاد الشام عمان ١٩٧٤ .

٢ ـ فوزي زيادين القيان في النقوش الصوفية مجلة «صوت الأرض المقدسة» العدد ٦٢ عمان ١٩٧٣ .

٣ ـ فيليب حتي تاريخ العرب ـ دار الكشاف للطباعة بيروت ١٩٦١ ج١ ص٩٢ .

٤ـ ابن حزم الاندلسي

جمهرة انساب العرب :

أـ تحقيق عبدالسلام هارون . دار المعارف القاهرة ١٩٦٢ ص ٤٧٠ .

ب ـ مجلة المشرق ١٤ / ٤٦٦ .

٥ـ مجلة المشرق ١٤ / ٤٦٠ .

٦ـ المسعودي ابو الحسن .

مروج الذهب . تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد القاهرة ١٩٦٦ ج١ ص ٣٦٥ .

٧ـ المسعودي . ن م جـ / ص ٣٦٥ .

٨ـ مجلة الشرق ١٤ / ٤٦٨ / ١٩١١ .

٩ـ فـــوزي زيادين F. Zayadine, un Seisme a Rabbat Moab D'apres une inscription Grecque du Vie S.P 139 -144.

١٠ـ محمد كرد علي خطط الشام دمشق ١٩٢٥ ص ٣٧ ـ ٣٨ .

١١ـ فيدرلين Federlin مجلـــــة الارض المقدسة ١٩٠٢ ـ ١٩١١ مشرق ١٤ / ٤٦٨ .

١٢ـ Saller and Bagatti, The town of Nebo, Jerusalem 1949.

١٣ـ المسعودي مروج الذهب ج١ ص ٣٦٧ .

١٤ـ المسعودي ن م ج ١ ص ٣٦٧ .

١٥ ـ حتي العرب ص ١٠٤ .
١٦ ـ محمد كرد علي خطط الشام ج ٦ ص ٣٧ .
١٧ ـ كندرمان دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ج ٥ ص ٤
٣٣٧ .
١٨ ـ دوزي تاريخ مسلمي اسبانيا الترجمة العربية القاهرة ١٩٦٣
٢٣ .
١٩ ـ كندرمان دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية
ص ٣٢٤ ـ ٣٣٧ .
٢٠ ـ ابن سلام ، ابو عبيد القاسم بن سلام ، كتاب الاموال ـ تح
محمد خليل القاهرة ١٩٦٨ ص ٣٩ ـ ٤٠ .
٢١ ـ الماوردي ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب ، الا
السلطانية والولايات الدينية الطبقة الثانية القاهرة ١٩٦٦ ص ١٤١ .
٢٢ ـ ابن آدم القرشي القاهرة كتاب الخراج سنة ١٣٤٧ ص ٦٧ .
٢٣ ـ ابن سلام ، الاموال ص ٤٠ .
٢٤ ـ ابن سلام ، ن . م ص ٣٧ .
٢٥ ـ ابن سلام ، ن . م ص ٣٨ .
٢٦ ـ ابن سلام ، ن . م ص ٣٩ .
٢٧ ـ آرنولد ، توماس الدعوة الى الاسلام ترجمة حسن ابراهيم ح
وغيره الطبقة الثالثة ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ٨٩ .
٢٨ ـ البلاذري ، ابو الحسن فتوح البلدان ص ١٤٤ .
٢٩ ـ ابن سلام ، الاموال ص ٢٢٣ .
٣٠ ـ حتي ، العرب ص ٢٠٣ .
٣١ ـ ابن عساكر ، ابو القاسم عبدالله بن الحسين ، التهذيب
ص ٢٤١ .
٣٢ ـ ابن عساكر ، ن . م ٢٤٠ ـ ٢٤٣ .
٣٣ ـ البلاذري فتوح ٩٤ ـ ١٠٧ .
٣٤ ـ ابن عساكر ، التاريخ الكبير ج ١ ص ١٧٩ .
وابن سلام ، اموال ص ٣٥٨ .
٣٥ ـ الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٤٣ .

٣٥ _ الماوردي . الاحكام السلطانية ص ١٤٣ .
٣٦ _ ابن آدم . الخراج ص ٧٥ .
٣٧ _ حتي . العرب ص ٢٥١ _ ٢٥٤ .
٣٨ _ حتي . العرب ص ٢٥٨ .
٣٩ _ الاصفهاني أبو الفرج . كتاب الاغاني ط . دار الكتب مصر . ج٨ ص ٢٨٤ .
٤٠ _ الطبري . ابو جعفر محمد بن جرير . تاريـــــخ الرسل ج٣ ص ١٦٥٣ .
فلهاوزن. الدولة العربية . ص ٣١٩ .
٤١ _ نبيه عاقل . خلافة بني ابيه . دمشق سنة ١٩٧٢ ص ٣٢٢ .
فلهازون . الدولة العربية ص ٣٣٤ .
٤٢ _ محمد كرد علي . خطط الشام ج٦ ص ٣ وما بعدها .
٤٣ _ هاملتون جب . دراسات في حضارة الاسلام دار العلم للملايين _ بيروت سنة ١٩٧٢ ص ١٦٥ .
٤٤ _ ابن النديم . كتاب الفهرست ص ٢٤٢ _ ٢٤٣ .
ترتون . امـــــل الذمة في الاسلام دار المعارف مصر سنة ١٩٦٧ ص ١٩٦ .
٤٥ _ ترتون . ن . م ص ١٣٢ .
٤٦ _ الطبري . تاريخ الرسل ج ١ ص ٢٦٦٥ .
٤٧ _ ترتون . امل الذمة ص ٢١٥ .
٤٨ _ ابن سعد . الطبقات ص ٥٠ .
٤٩ _ البلاذري . فتوح ص ٢٥٢ .
٥٠ _ ابن عساكر . تاريخ دمشق ج ١ ص ١٧٨ .
٥١ _ الشعراني . كتاب الميزان ج ٢ ص ١٦٢ .
٥٢ _ الماوردي . الاحكام السلطانية ص ١٤٥ وما بعدها .
٥٣ _ عبدالعزيز الدوري . العصر العبــــاسي الاول بغداد سنة ١٩٤٥ ص ٩ .
_ ابو يوسف . كتاب الخراج ط بولاق ص ٢٣ .

٥٤ _ المقريزي . الخطط ط . القاهرة سنة ١٣٢٦ ج٤ ص ٣٦٤ د . ن . م ج٤ ص ٣٩٥ .

٥٥ _ الجهشياري . كتاب الوزراء القاهرة سنة ١٩٣٨ ص ٥١ _ ٥٢ .

٥٦ _ المقريزي . خطط ج٤ ص ٣٩٥ .

٥٧ _ المقريزي . ن . م ج ص ٣٩٤ .

٥٨ _ الماوردي . الاحكام السلطانية ص ١٤٥ .

٥٩ _ الماوردي . ن . م ص ١٤٦ .

٦٠ _ الماوردي . ن . م ص ١٤٥ .

٦١ _ ت . أرنولد الدعوة الى الاسلام ص ٨١ وما بعدها .

٦٢ _ أرنولد . ن . م ص ٨٢ .

٦٣ _ الاصفهاني . الاغاني ج ٧ ص ١٧١ .

٦٤ _ ترتون . أمل الذمة ص ٢٠٦ .

٦٥ _ أرنولد الدعوة الى الاسلام ص ٨٤ _ ٨٥ .

٦٦ _ محمد كرد علي . خطط الشام ج٦ ص ٣ .

٦٧ _ فلهاوزن . الدولة العربية ص ٢٤٥ ؟

٦٨ _ أرنولد . الدعوة الى الاسلام ص ٨٧ .

٦٩ _ ابن النديم . كتاب الفهرست ص ٢٣٩ .

٧٠ _ الأصفهاني . الاغاني ج١٠ ص ١٤٨ .

٧١ _ فازيليف . العرب والروم ص ١٣ .

٧٢ _ عن أرنولد . الدعوة الى الاسلام ص ٨٩ .

٧٣ _ عن أرنولد . ن . م ص ٥٠ .

ثورة الفلاحين في فلسطين والأردن
أيام المعتصم سنة ٢٢٧هـ / ٨٤٢م

ان أقدم واشمل الروايات التي تخبرنا عن ثورة الفلاحين في فلسطين أيام المعتصم وصلتنا من الطبري (١) ثم من اليعقوبي (٢) وتبعهما أخرون مثل ابن الأثير (٣) وابن كثير (٤) وابن خلدون (٥) وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم في سياق الحديث .

ذكر الطبري خبر ثورة الفلاحين نقلا عن بعض اصحابه دون ذكر لأسمه وأكتفى الطبري بوصف صاحبه بانه «خبير بأمره» أي بأمر قائد ثورة الفلاحين أبي المبرقع اليماني . بودي في مطلع حديثي أن انقل سطورا من رواية الطبري هذه لتكون المرتكز الذي سنعتمدعليه في تحليلنا لهذه الثورة الاجتماعية في فلسطين في بداية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي . ولنطلع من خلالها على بعض الأوضاع في جند فلسطين خاصة وبلاد الشام عامة في تلك الحقبة من الزمن .

يقول الطبري في سبب خروج ابي حرب اليماني على السلطان «أن بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها وفيها اما زوجته أو أخته – ابن كثير يقطع بأنها امرأته (٦) – فمانعته ذلك ، فضربها بسوط كان معه فاتقته فأصاب السوط ذراعها فأثر بها وأرته الأثر الذي بذراعها من ضربه فأخذ ابو حرب سيفه ومشي الى الجندي وهو غار فضربه به حتى قتله (٧) . ثم هرب وألبس وجهه برقعا كي لا يعرف (٨) . هذا هو السبب المباشر الذي دفع بأبي حرب اليماني للخروج على السلطان فالتجأ الى أحد الجبال في الأردن وأخذ يدعو الناس ويحرضهم على الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر ويذكر السلطان وما يأتي الى الناس ويعيبه «ويستمر الطبري» فما زال ذلك دأبه - المبرقع - حتى استجاب له القوم من حراثي أهل تلك الناحية وأهل القرى . وكان يزعم أنـــه أموي فقال الذين أستجابوا له : هذا هو السفياني فلما كثرت غاشيته وتباعه من هذه الطبقة من الناس . دعا أهل البيوتات من أهل تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية . . . . فاتصل الخبر بالمعتصم وهو عليل علته التي مات فيها فبعث اليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء الف من الجند فلما صار اليه وجده في عالم من الناس . . . زهما مائة الف - فكرة رجاء مواقعته وعسكر بحذائه وطاوله حتى كان اول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم وأنصرف من كان من الحراثين مع أبي حرب الى الحراثة وأرباب الأرضيين الى أرضيهم ، وبقي أبو حرب في نفر زهاء الف أو الفين ، فناجزه رجاء . . . وأخذه أسيرا الى السجن المطبق في سرّ من رأى (٩).

عند مقارنتنا هذه الرواية مع رواية اليعقوبي نجد بعض الاختلافات منها أن اليعقوبي يعطينا اسم المبرقع وهو تميم اللخمي ويعرفنا بأهم القبائل التي قامت معه وهي لخم وجذام وعامله وبلقين . . . ويشير الى ثورات أخرى قامت في أرض الخلافة في نفس الفترة مثل قيام ابن بيهس في دمشق ، وعزيزة الختاني في طريق الحج الحجازي وقيام قوم مـــن البربر ومعهم قوم من قريش ببرقة وثبوا بعاملهم عبدوية بن جبلة (١٠) .

أن الشيءُ الذي يلفت النظر في ثورة المبرقع اليماني / الذي ثار في البدء للأسباب شخصية / أن دعوته قد لاقت قبولا واسعا وسريعا عند الفلاحين وأهل القرى وقد أتبعه خلق كثير من

الحراثين وأنه كان في عالم من الناس ثم أستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية . وهكذا نرى أن الثورة التي بدأت في صفوف الفلاحين والحراثين والفقراء من الناس اتسعت لتصبح حركة سياسية واجتماعية واسعة يقوم على قيادتها رؤوساء اليمانية في الشام المناهضين لحكم بني العباس في العراق .

لذا سوف أتعرض في هذا البحث الى مسألة ادعاء صاحب الثورة بأنه أموي . وان رؤوساء اليمانية بانضمامهم الى الثورة أرادو الكسب السياسي لاسترجاع مافقدوه من امتيازات كانت لهم أيام الحكم الأموي . وسأتعرض كذلك وبشيءٍ من التفصيل الى فكرة السفياني المنتظر وكيف بدأت هذه الفكرة منذ أيام خالد بن يزيد وكيف تطورت لتصبح صيحة أهل الشام، أشرافهم والعامة منهم على حد سواء، لأن هذا «السفياني» سيعيد مجد الشام الذي فقده اشرافها ويملأ الارض عدلا هذا العدل الذي ينتظره عامة الناس يمنها وقيسها.

هذا وقد ربطت ثورة الفلاحين في فلسطين بغيرها من الثورات التي ظهرت في تلك الفترة لنلقى ضوءا على وضع الفلاحين الأجتماعي في القرن الثالث الهجري وكيف ان هذه الاوضاع الاجتماعية المتردية كانت الدافع لهم للانتفاض على السلطان كما تعرضت لوضع الارض ، ولقضايا الاستيطان ، وبيوع الأراضي وبروز الملكيات الواسعة لدى الأشراف وظهور الملكيات الصغيرة وصغار الفلاحين ثم عن توزيع القبائل العربية في الأرض الشامية في مختلف القرى والمدن كما ترد في المصادر العربية الاسلامية خاصة عند اليعقوبي في كتابه البلدان (ليدن ١٨٩١ — ص ٣٢٤ — ٣٣٠).

زعم قائد ثورة الفلاحين أنه أموي – مع أنه لخمي كما سبق وذكرنا – أما الذين استجابوا له فقالوا هذا هو السفياني . اذن لا بد من الوقوف عند هذا «الشعار» الهام الذي له دلالته السياسية والدينية الكبيرة في أحداث بلاد الشام وفي ملاحمها وأساطيرها . فالدعوة الى السفياني هي صيحة الشام ضد العراق بعد ان فقدت الشام مركزها الكبير في قيادة الأمة الأسلامية وبعد أن اصبحت مجرد ولاية من ولايات الخلافة العباسية .

أن الدعوة للسفياني قامت في أيام الأمويين المروانيين وكانت أنذاك دعوة للفرع السفياني من بني أمية ضد الفرع المرواني الذي تسلم الخلافة منذ أيام مروان بن الحكم وحرم خالد بن يزيد بن معاوية من الخلافة وأبعد عنها بل زيادة على ذلك انتقص من جانبه وأمين (١١) فمنذ تلك الفترة وبتشجيع من خالد نفسه وضعت أحاديث تتنبأ بمجيء السفياني فقد تابع خالد حركة الشيعة وأخذ يحذو حذوها في خلق الأحاديث عن السفياني المهدى المنتظر . بل ان هذه الدعوات أخذت طابعا محددا مفاده «وينشأ رجل من قريش أخواله من كلب فيبعث اليهم بعثا» (١٢) وحين قويت هذه الدعوة وزاد نفوذ الفرع السفياني اضطر المروانيون للرد على هذه لتكونن الدعوة نفسها في صالحهم لا في صالح السفيانيين – ولا في صالح شيعة ابناء علي كذلك – فأخذوا يشيعون أحاديث أن المهدي فيهم فمدح الفرزدق سليمان بن عبدالملك بهذا المعنى ويذكر ابن سعد – على لسان سعيد بن المسيب «هل رأيت الاشج عمر بن عبد العزيز القاعد على السرير . . فهو المهدي «قال

محمد بن علي» النبي منا والمهدي من بني عبد شمس ولا نعلمه الا عمر بن عبد العزيز» (١٣) اذن فالخلاف قائم مابين الفرع السفياني والفرع المرواني على الخلافة ويعود ذلك الى الساعة التي توفي فيها معاوية بن يزيد الذي كما يذكر المسعودي «تنوزع في سبب وفاته . فمنهم من رأى أنه سقى شربه ومنهم من رأى أنه مات حتف أنفه ومنهم من رأى أنه طعن وقبض وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ودفن بدمشق واكثر من ذلك يذكر المسعودي ايضا أنه صلى - على معاوية بن يزيد - الوليد بن عتبه بن أبي سفيان ليكون الأمر له من بعده . فلما كبر الثانية طعن فسقط ميتا قبل تمام الصلاة وهكذا «زال الأمر عن آل حرب» (١٤) .

وحين انقسم الفرع المرواني على نفسه انقساما واضحا وعميقا على يد الجيل الذي يتمثل في أحفاد عبد الملك بن مروان هذا الأنقسام الذي أتخذ شكلا مأساويا في الحرب التي دارت مابين الوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد عندما نجد الفرع السفياني ينشط ويحاول أن يستعيد نفوذه وبالتالي السلطة التي فقدها . فيقف السفيانيون بقوة بجانب الوليد بن يزيد ضد يزيد بن الوليد وأخيه ابراهيم وخرج على يزيد - بن الوليد - عام ١٢٦ هـ ابو محمد السفياني - وهو زياد بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية فأخذ اسيرا مع اخوته وسجن في دمشق . . . وحين دخل مروان بن محمد دمشق أخرجه من السجن وأعلن السفياني الطاعة لمروان (١٥) واذا ما تتبعنا نشاط هذا السفياني نراه حتى بعد هزيمة مروان بن محمد في معركة الزاب الكبرى عام ١٣٢ هـ / ٧٤٩م أمام العباسيين وبعد ان يدخلوا بلاد الشام منتصرين نرى هذا السفياني يترأس انتفاضة بعض مدن الشام ضد العباسيين فيذكر

الطبري «أن أهل قنسرين وكذلك حمص وتدمر قد «بيضوا» والتفوا «حول «أبي محمد »- زياد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية وقالوا : «هذا هو السفياني الذي كان يذكر» وهم في نحو أربعين الف» (١٦)

وبعد أن يستتب الأمر لبني العباس ويصبح الخليفة العباسي هو خليفة المسلمين نرى ان الدعوة للسفياني تأخذ طابعا جديدا أوسع وأشمل عما كان عليه في السابق فقد صارت دعوة لبني أمية جميعها لالفرع من فروع البيت الأموي بل أكثر من ذلك تصبح هذه الدعوة الصيحة السياسية لأهل الشام ورمزاً للشوام الذين فقدوا مجدهم الغابر أيام الأمويين وفقدوا كثيرا من امتيازاتهم ونفوذهم وأصبحت بلاد الشام ولاية عباسية لاغير . ولقد تمثلت حركة الولاء لبني أمية في العصر العباسي الأول في الحركات السياسية التي كان يقوم بها رؤوساء القبائل -خاصة اليمانية - وفي الدعوة «للسفياني المنتظر هذه الدعوة التي أخذت تلبس لبوسا دينيا وتدعو الى ظهور السفياني» الذي يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر» والذي سيعيد للشام مجدها ويقيم سلطانا أمويا جديدا وما ثورة المبرقع اليماني قائد الفلاحين في جند فلسطين والأردن الا مثلا بارزا على ذلك ، فالثورة كانت اجتماعية وسياسية . اجتماعية لأنها كانت تطالب بمطالب اقتصادية للفلاحين وضد الغبن الواقع عليهم، وسياسيه اذ رفعت قياداتها من رؤوساء اليمانية شعار السفياني والسعى لأوجاع السلطة الى أرض الشام . لاشك ان هذه الثورة هي بمثابة امتداد لانتفاضات رؤوساء القبائل في الشام الذين كانوا يهبون بين الحين والحين مطالبين باسترجاع امتيازاتهم السابقة ويطمحون لاسترداد نفوذهم الغابر ولكن يلوح لنا ان التوقيت الذي قامت به ثورة الفلاحين هذه يعطيها صبغة مميزة أخرى تتلخص في صرخة أمل

.لشام ضد تزايد سلطة الأعاجم في الخلافة العباسية وضد نفوذ قادة الأتراك في البلاط العباسي.وأستطردُ هنا لأذكر بعض هذه الحركات خاصة تلك التي قام على قيادتها احد السفيانيين مدّعيا أنه هو السفياني المنتظر . فالذهبي يذكر لنا خبرا مفاده انه «في سنة ١٣٧ هـ قد قتل أحد الأشراف بدمشق وهو عثمان بن سراقة الأزدي . وكان قد توثب عند موت السفاح ، وسب بني العباس على منبر دمشق وأقام في الخلافة هاشم بن يزيد بن خالد بن زيد بن معاوية الأموي فبلغهم مجيءُ صالح عم السفاح فلم يقو لحربه واختفى هاشم وضربت عنق ابن سراقه» (١٧) .

ومثل آخر على استمرار الدعوة للسفياني وتتمثل بشكل قوي هذه المرة في خروج العميطر ففي حوادث سنة ١٩٥ هـ يذكر ابن الأثير «في هذه السنة خرج السفياني وهو علي بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية وامه نفيسة بنت عبيدالله بن العباس بن علي بن ابي طالب وكان يقول : أنا ابن شيخيّ صفين – يعني عليا ومعاوية – وكان يلقب بأبي العميطر ، لانه قال يوما لجلسائه اي شيءٌ كنيه الحرذون ؟ قالوا لاندري قال : هو ابو العميطر فلقبوه به . ولما خرج دعا لنفسه بالخلافة . . وقوي على سليمان بن المنصور عامل دمشق وكان اكثر أصحابه من كلب . . . وكان اصحابه يدعون الناس في اسواق دمشق قائلين : قوموا بايعوا مهدي الله .

وأحتل السفياني الخضراء – قصر معاوية ، فكان اذا خرج منها مشى في موكب بين يديه ٥٠٠ رجل على رؤوسهم القلانس الشاميات وفي أيديهم المقارع . . . وقد استتب له الأمر اذ دامت ثورته سنين (١٨) . . . ويذكر ابن الأثير ان منافسا خطيرا وقف وجه السفياني بل وقهره يتمثل بزعيم القيسية محمد بن صالح بن

بيهسي الكلابي ... الذي قضى عليه عبدالله بن طاهر قائد العباسيين حين جاء دمشق وأخذه أسيرا لبغداد حيث مات (١٩).

ويعلق الدكتور شاكر مصطفى على ثورة ابي العميطر فيقول «ان أبا المعيطر دون شك قد استغل انشغال الأمين بحرب أخيه، ذلك القلق الذي وقعت فيه الخلافة العباسية في السنوات الاخيرة في القرن الثاني للهجرة . والتفت حول المعيطر اليمانيون فقاومه القيسيون في دمشق » (٢٠) ان الأمين ادراكا منه لنقمة أهل الشام بأن السلطة أصبحت بيد الخراسانيين الذين كان المأمون مقيما بين ظهرانيهم وعليهم أعتمد في صراعه ضد أخيه فقد حاول الأمين ان يستميل لجانبه أهل الشام «أن أهل الشام قوم ضرستهم الحروب وأوتهم الشدائد حلمهم منقاد الي مسارع الى طاعتي» ... ولكن يظهر أن الخليفة الأمين فشل فس مسعاه وأن أهل الشام تجنبوا الأصطدام بأهل خراسان وقال أحدهم گ «انكم تعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم اعتزلوا الشر قبل ان يعظم وتخطوه قبل ان يضطرم شأنكم داركم الموت الفلسطيني خير من العيش الجزرى (٢١) .

هذا الوضع في الشام قد فهمه بعمق المأمون والقصة التالية تؤكد صحة هذا القول :-

«تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال ياأمير المؤمين أنظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان فقال المأمون اكثرت ياأخا أهل الشام والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد . واما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط . وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه

ولم يخرج اثنان

الا خرج أحداهما شاريا ، أغرب فعل الله بك» (٢٢) .

لم يقتصر الأمر في الدعوة للسفياني والي بني أمية على بلاد الشام وحدها ولم يقتصر كذلك على انتقاضات رؤوساء القبائل من يمنية أو قيسية بل أن الأمر مع الأيام تعدى ذلك كله وأخذ طابعا جديدا طابعا مماشيا لعملية التطور الفكرى والسياسي في المجتمع الاسلامي ومسايرا لمختلف الاتجاهات والمدارس التي نشطت في تلك الفترة . ففي القرن الثالث الهجري نشطت حركة سياسية فكرية تدعو لبني أمية وكان مجال نشاطها في أرض الخلافة نفسها في العراق كما في غيره من الأمصار وهذه الحركة هي حركة « النابتة» حركة فكرية سياسية تنتصر لبني أمية وتؤكد حقهم في الخلافة وترد على خصومهم من المعتزلة والشيعة وغيرهما . ومن العجب أن خير مصدر لنا عن هذه الحركة نجده عند ألد خصومها عند أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٥ - ٢٥٥ هـ) خاصة في رسالته عن النابتة (٢٣) هذه الرسالة الموجهة الى أبي الوليد بن أحمد بن أبي داوود قاضي بغداد المعروف . وموضوع رسالة الجاحظ هذه هو طعن في حركة النابتة وهجوم عليها ونقد للأمويين ونقض لحقهم في الخلافة وذم لهم . ولكن من بين سطور رسالة الجاحظ نطلع بعض الشيء على وجهات نظر النابتة ومدى تغلغل أفكارهم وكثرة أنصارهم وخطرهم في الدولة العباسية وقد استفحلت أفكار النابتة في الفترة التي قامت بها ثورة الفلاحين بقيادة المبرقع اليماني في فلسطين واستمرت هذه الحركة بعد ذلك حتى أيام المتوكل وكانت هذه الحركة تمثل جيلا جديدا جيلا من الشباب النابتة بدأ ينمو وينبت في المجتمع العربي الاسلامي

وكانت حركته بمثابة رد فعل للمظاهر السياسية والفكرية والاجتماعية الاخرى المعاصرة لها .

يذم الجاحظ في رسالته بني أمية وينتقض حقهم في الخلافة اذ يقول «ان معاوية استبد وكانت خلافته غصبا قصرويا . . الى ان كان من اعتزال الحسن عليه السلام . . فعندما استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين فيالعام الذي سموه عام "الجماعة" وما كان عام الجماعة بل كان عام فرقة وقهر وجبر وغلبة والعام الذي تحولت فيه الامامة ملكا كسرويا والخلافة غصبا قيصريا» (٢٤) ، ويهاجم الجاحظ بمرارة حركة النابتة التي تقف للدفاع عن معاوية فيقول : «على ان كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك اكفاره (معوية) وقد أربت عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا فقال : لاتسبوه فان له صحبة وسب معاوية بدعه ومن يبغضه فقد خالف السنة» ويعجب الجاحظ من حجج النابتة فيرد عليها قائلا : «فزعمتَ ان من السنة ترك البراءة فمن جحد السنة ؟ ويصيح الجاحظ» «والنابتة . . اكفر من يزيد وأبيه وأبن زياد وأبيه لأن جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك وقد كانت هذه الأمة لا تجاوز معاصيها الاثم والضلال حتى نجحت النوابت وتابعتها هذه العوام فصار الغالب على هذا القرن الكفر» (٢٥) من غضب الجاحظ هذا تدرك مدى عمق تغلغل حركة النابتة وتأثر الناشئة بالعوة الأموية والتفاف العامة حولها ويظهر لنا ان الجو الذي خلقته حركة النابتة من الأسباب التي كانت وراء نجاح المتوكل في ضرب المعتزلة وتقريبه للفقهاء من أهل السنة الذين التف الحزب العربي في الخلافة حولهم...لذلك فكر المتوكل بنقل مركز حكمه الى دمشق لكي يتخلص بالتالي من نفوذ الأتراك وسيطرتهم

حيث أن دمشق تكرمهم وتتعصب الى السنة ضد العلويين . (٢٦)

ويذكر المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف «رأيت في سنة ٣٢٤هـ بمدينة طبرية من بلاد الاردن من أرض الشام عند بعض موالي بني أمية ممن ينتحلوا العلم والادب ويتحيز الى العثمانية كتابا فيه نحو من ثلثمائة ورقة بخط مجموع مترجم بكتاب «البراهين في أمامة الامويين» . ونشر ما طوى من فضائلهم ابواب مترجمة ودلائل مفصلة» ويعكس هذا الكتاب فكرة السفياني المنتظر وقد انقلبت الى نظرية كاملة بأحقية الامويين في خلافة المسلمين . (التنبيه والاشراف ص . ٣٣٦ ، بيروت ، ١٩٦٥) .

بعد أن أستعرضنا حركة السفياني والدعوة لبني أمية . . بودي هنا أن أتعرض للطابع الأجتماعي لثورة الفلاحين ومدلولها العميق في توزيع الأراضي واستملاكها وتحول المقاتلة العرب التدريجي الى فلاحين وسكان قرى ومدن ثابتين .

أن الصفة البارزة في ثورة الفلاحين في فلسطين هي أنها كانت ثورة ذات طابع اجتماعي واقتصادي واتخذت من الشعارات السياسية لبوسا بادعاء صاحبها أنه أموي وأن أصحابه آمنوا بأنه السفياني المنتظر وأنه «يدعو للمعروف وينهي عن المنكر» وهب رؤوساء العشائر وكبار الملاكين على رأس هذه الثورة فصبغوها بالصبغة الشامية المنافسة لدولة بني العباس.وقد سبقها بوقت قصير جدا ثورات فلاحية مماثلة ، ففي مصر«ثارت القبائل العربية من اليمانية ، والقيسية بناحية الجوف (اسفل مصر) سنة ٢١٤ (٨٢٩م) وكانت ولاية مصر آنئذ لأبي اسحق (المعتصم فيما بعد) وقد كان لسياسة الولاة المالية الأثر الأكبر في قيام هذه الثورة اذ أن نائب الوالي على الخراج ظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم فانتقض أهل اسفل

الأرض وعسكروا (٢٧) ثم أعقبها ثورة أخرى أكبر منها في مصر (ايضا) سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) وكانت عنيفة في المناطق الزراعية المكتظة بالسكان في مصر السفلى، واشتركت جماهير القبط مع العرب فيها محتجة على سياسة العباسيين المالية وعسف الجباه فيروي المقريزي «فانتقضت أسفل الأرض (مصر السفلى) عربها قبطها في سنة ٢١٦ هـ واخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلفوا الطاعة» (٢٨) . وفي شرق الخلافة (وفي الوقت نفسه) كانت قائمة ثورة (بابك الخرمي)في أذربيجان وما جاورها من الأقطار هذه الثورة الجامحة التي كان الفلاحون عنصرا بارزا فيها وكان لها طابعها الاجتماعي والاقتصادي بجانب خلفياتها الأخرى (٢٩) . أن الشيء الذي يستدعي الأنتباه في ثورة الفلاحين في فلسطين هو هذه الأعداد الكبيرة من الفلاحين والمزارعين الذين اشتركوا فيها وأن قائد الثورة كان «في عالم من الخلق» . ترى من هم هؤلاء الفلاحين ؟ ومن هم سكان القرى الذين ثاروا ؟ ان اليعقوبي يجيب على هذه التساؤلات بوضوح تام يقول «ووثب بفلسطين . . . تميم اللخمي . . ويلقب بالمبرقع ، في لخم وجذام وعامله وبلقين» (٣٠) وأن أتباعه كما يذكر الطبري من الفلاحين بتلك النواحي وأهل القرى وأن بعضهم من أرباب الأرضين» (٣١) فالفلاحون الذين ثاروا بقيادة المبرقع اليماني هم أبناء القبائل العربية الذين استقروا ببلاد الشام وصاروا أصحاب القرىوالعاملين في أراضيها . . . وتفسير هذه الظاهرة الأجتماعية الهامة في حياة بلاد الشام وأماليها يرجع بنا الى الوراء قليلاالى الهجرات العربية المتتالية من أرض الجزيرة العربية الى بلاد الشام وكذلك الى ايام الفتوحات الاسلامية الكبرى . فالخلافة الاسلامية منذ قامت شجعت الهجرة الى

الأمصار واعتبرت ذلك أساسا للخروج من الأعرابية والأنتماء للأمة اذا وطن الأعراب مصرا من أمصار المسلمين فقد خرج من الأعرابية وصار من أهل الأمصار (٣٢) وأن الاستيطان كان سياسة مرسومة للخلافة منذ أيام عثمان (٣٣) . أن هجرة القبائل العربية الى بلاد الشام والجزيرة والتي تحدثنا عنها مصادرنا العربية الاسلامية بشئ من التفصيل كانت الهجرة استيطانية وأن القبائل المهاجرة قد أعطيت أراضي للزراعة والرعي . كما وأن القبائل القديمة – قبل الفتوح الاسلامية – أعطيت بدورها أراضي جديدة وكان لاعتبارات اقتصادية أو استراتيجية وكانت هذه الاراضي أما أراضي جلا عنها أهلها نتيجة لظروف الفتح او من أراضي الموات (٣٤) ويعبر ابو حفص الشامي عن ذلك بوضوح حيث يقول «كل عشري بالشام فهو من جلا عنه أهله فأقطعه المسلمون فأحيوه بأذن الأمام» (٣٥) ويشير الأستاذ الدوري بمقالته القيمة «العرب والأرض في سوريا» أن القبائل العربية بعد الفتوح الاسلامية أخذت تستقر على الارض في القرى في أواخر العصر الأموي وأن هذا الاستقرار أخذ شكلا واضحا في العصر العباسي الأول (٣٦) وعلى هذه الصورة فأن العرب قد انتقلوا من دورالمقاتلة الخالصه الى الاهتمام بالزراعة ومزاولتها وقد شمل هذا الأمر كذلك المقاتلة في الثغور وعلى الحدود . فالبلاذري يذكر أن معاوية في عهد خلافة عثمان قد أقام حاميات قوية على طول ساحل البحر وحول الموانئ الأساسية . وأقطع جنود هذه الحاميات قطائع يضمن استمرار بقائهم وكانت هذه القطائع من الأراضي التي جلا عنها أهلها (٣٧) واستمر الأمر على هذه الشاكلة ففي أيام هارون الرشيد عمل على توظيف مقاتلة الثغور في الأراضي التي يدافعون عنها في الثغور وعلى الحدود مع

البيزنطيين (٣٨) . وكان جل ملاكي هذه القرى من الأمراء الأمويين وبينهم بعض الأشراف من رؤوساء القبائل ومؤيديهم . وقد تكونت الأقطاعات الكبيرة وملكيات الأراضي الواسعة ، وظهرت كذلك طبقة من الملاكين الجدد نتيجة الاقطاع المستمر للأراضي – خاصة الصوافي – ومنحها للعمال المتعاقبين والأعوان والأشراف والقواد العسكريين ونتيجة لعمليات البيع والشراء / التي كان معمولا بها بشكل واسع ، حتى أن الأشراف من العرب كانوا يشترون الأراضي الخراجية – التي تحولت الى عشرية – وعلى نطاق واسع ، مما أجبر على ابقاء الخراج على الأرض بصرف النظر عن المالك ، ويضاف الى ذلك ظاهرة الالجاء التي استغلها اصحاب النفوذ استغلالا ظاهرا (٣٩) .وطبيعي أن هذه الضياع الكبيرة والملكيات الواسعة تحتاج الى ايدي الفلاحين والعمال الزراعيين الذين اخذوا يتكونون بأعداد كبيرة ويعيشون في مكان عملهم ورزقهم . بجانب ذلك فأن الملكيات الصغيرة أصبحت مألوفة في قرى يتوفر فيها الماء ، سيما وأن عامة القبائل قد تحولوا الى زراع في مجتمعات قروية (٤٠) فيها ممتلكاتهم أو فيهـــــا تعيش عائلاتهم . ومع نشاط التجارخاصة كثر ايضا شـــــراء الأراضي وبيوعها . اذن فالتحول نحو الأرض قــــد تم عند القبائل العربية وعلى نطاق واسع فأصبح هناك الأقطاعات الكبيرة وملاكو الأراضي الواسعة من جهة ومـــن جهة أخرى تكونت الملكيات الصغيرة يملكها الفلاحـــون الصغار المنتشرون في القرى المتعددة وفي المنتجعـــــات حيث الحياةومساقط الأمطار والجداول الصغيرة والمروج وأن هـــذا التحول قد تعمق مع الزمن ، ولا ننسى هنا أن نذكر أن كثيرا جـــدا من أمـــلاك بني أميه في بلاد الشـــام قد انتقل الـــى البيت العباسـي ، ففي مدينة الرملة نفسها حيث

بدأت ثورة المبرقع اليماني أنتقلت بعض أملاك بني أمية فيها الى صالح بن علي بن عبدالله بن العباس (٤١) . فلا غرابة اذن أن نرى هذه الاعداد الكبيرة من الفلاحين الذين اشتركوا في ثورة المبرقع اليماني في فلسطين هؤلاء الفلاحين الذين أصبح كسبهم يأتي عن طريق الأرض وزراعتها ، وأصبحت الأرض مصدر رزقهم الرئيسي ، لذا أخذوا يطالبون بخفض الخراج عنهم ورفع الضرائب أو تخفيفها عن كاهلهم . مما حمل المسؤولين الى اعادة النظر في الضرائب المعمول بها خاصة الخراج والعمل على تخفيفه وترغيب الفلاحين على أن يبقوا في الأرض ولا يغادروها . وهذا ماحدث فعلا في سنة ٢١٠هـ فقد ذكر اليعقوبي أن الخراج قد خفض بنسبة الربع (٤٢) ويذكر البلاذري أيضا أنه «في أيام الرشيد رفضت ضياع في فلسطين وتركها أهلها فوجه الرشيد هرثمة بن أعين لعمارتها ، فدعا قوما من مزارعيها وأكرتها الى الرجوع اليها على أن يخفف عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم فرجعوا ، فاولئك أصحاب الردود» (٤٣)

ويبدو أن هذا الأجراء تبعه اجراءات أخرى أيام المأمون اذ أمر بمسح أجناد الشام من جديد لاعادة النظر في ضرائب الأرض وذلك عام ٢١٤هـ حتى اول تعديل وهو اجراء تطلبه تحول في وضع الزراعة في الأرياف (٤٤) . وهنا نأتي الى نقطه أخيره وهامه كانت ولا شك سببا في تذمر العرب وهي ان الخليفة المعتصم قد «اسقط العرب من الديوان وقطع اعطياتهم » .

وهذه هي ثورة الفلاحين في فلسطين عند نهاية حكم المعتصم والتي قامت لمطالب اقتصادية وارتبطت بالتالي مع أصحاب المصلحة الكبرى في بلاد الشام الذين يرمون الى اعادة نفوذهم وسلطانهم فرفعت الثورة شعار السفياني المنتظر الذي سيعيد مجد

الشام واذا ما ربطنا هذه الثورة بما سبقها من انتقاضات وتمردات وقعت في بلاد الشام منذ زوال الدولة الاموية ، نرى أن أرض الشام بقيت غاضبة على زوال مجدها أيام العباسيين وأن الحس الأقليمي ثم الحس العربي فيها كان شديدا وعميقا ، فأهل الشام ساخطون على ضياع مكانتهم ثم غاضبون لتمكن الأعاجم من فرس اولا وترك ثانيا من السلطة العباسية فنرى الأمين يتقرب لأهل الشام ليبعد اخاه ولكنه فشل ، وكذا فعل المتوكل ليتخلص من نفوذ الأتراك وتغلغلهم ففكر جديا بنقل مركز خلافته الى دمشق ولكنه فشل هو الآخر ودفع حياته ثمنا لذلك . وأخيرا ماذا تعني هذه الثورة ؟ أن من أبرز منجزات الدولة الاموية هو تعريب الدواوين الذي بدأ أيام عبد الملك بن مروان ، فعملية التعريب بسطت سلطان اللغة العربية في كل دواوين الدولة وفي كل مناحي حياتها الثقافية والاجتماعية . وهذا العمل الحضاري الكبير رافقه ايضا تعريب الأرض باثبات العرب فيها وتمكنهم منها . العرب الذين اتوا بلاد الشام قبل الاسلام والعرب الذين دخلوا تحت راية الدين الحنيف مجاهدين في سبيل الله واعلاء كلمته . فهؤلاء المقاتلة مع الأيام هم وابناءهم ثبتوا في الأرض وتحولوا من مقاتلة الى فلاحين ومزارعين في غالبيتهم العظمى ومن بين أشرافهم خرج كبار الملاكين وأصحاب القرى والملكيات الواسعة .

١) الطبري : ابو محمد بن جرير : (٢٢٤هـ — ٣١٠) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة — دار المعارف) جـ٩ ص ١١٦ — ١١٨ .

٢) اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب : (ت ٢٨٢هـ) تاريخ اليعقوبي ، (بيروت — دار صادر ١٩٦٠) جـ٢ : ص ٤٨٠ .

٣) ابن الأثير : محمد بن عبد الكريم ، (ت ٦٤٠هـ) : الكامل في التاريخ (بيروت ١٩٦٥ — دار صادر ١٩٦٠) جـ٦ : ص ٥٢٢ — ٥٢٣ .

٤) ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ) ١٣٧٣ م ، البداية والنهاية في التاريخ ، جزء ١٠ ص ٣٣٤. ٥) ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، (بيروت ١٩٥٧ — دار الكتاب البناني) جزء ٣ ص ٥٧٢ — ٣ .

٦) ابن كثير : جزء ٣ ص ٥٧٢ — ٣ . البداية جـ ١٠ ص ٣٣٤ .

٧) صالح أحمد العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة (القرن الاول الهجري) بيروت — دار الطليعة ، ١٩٦١ ص ٢٢ .

٨) الطبري : تاريخ جـ ٩ ص ١١٦ — ١١٧ .

٩) اليعقوبي : تاريخ جـ ٢ : ص ٤٨٠ .

١٠) اليعقوبي : تاريخ جـ ٢ : ص ٤٨٠ .

١١) الطبري : تاريخ جـ ٥ : ص ٦١٠ — ٦١١ .

١٢) الاصفهاني : ابو الفرج : الاغاني : الطبعة الاوربية جـ ١٦ ص ٨٨ ، ابن عساكر : تاريخ دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد جـ ١ ص ٢٨٠ .

١٣) ابن سعيد : محمد بن سعيد / (ت ، ٢٣ جـ / ٨٤٥ م) كتاب الطبقات الكبرى ، مكتبة المثنى بغداد جـ ٥ : ٢٤٥ . الفرزدق : همام بن غالب ، (ت ١١٤ جـ / ٧٢٣ م) : ديوان الفرزدق ١ : ٢٢٦ ، (بيروت — دار صادر ١٩٦٠)

١٤) المسعودي گ (ت ٣٤٦ جـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد جـ ٢ : ٥٧ القاهرة ١٩٦٧ .

١٥) الازدي : ابو زكريا يزيد بن محمد ، (ت ٣٣٤ — ٩٤٥ م) : تاريخ الموصل من ٥٨ (القاهرة ١٩٦٧) الطبري جـ ٧ : ص ٢٧٠ وما بعدها .

١٦) الطبري : ج ٧ ص ٤٤٣ — ٤٤٧ .

١٧) الذهبي : شمس الدين محمد بن احمد . (ت ٧٤٨ هـ) : العبر في خبر من عبر / تحقيق صلاح الدين المنجد . (الكويت ١٩٦٠) جـ١ ص ١٨٧ .
١٨) ابن الاثير : جـ٦ : ص ٢٤٩— ٢٥٠ .
١٩) ابن الاثير : ن . م جـ ٦ : ٢٤٩— ٢٥٠ .
٢٠) شاكر مصطفى : دولة بني العباس . (الكويت ١٩٧٣) جـ١ ص ٢٧٠ .
٢١) فاروق عمر : مجلة المؤرخ العربي (بغداد ١٩٨٠) عدد ١٠ ص ١٣٥ .
٢٢) ابن طيفور : (ت ٢٨٠ جـ) : كتاب بغداد . تحقيق محمد الكوثري (القاهرة ١٩٤٩) ص ١٤٤— ١٤٠ .
٢٣) الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر . (١٥٠— ٢٥٥ هـ) : رسائل الجاحظ— رسالة من النابتة . (الجزء الثاني القاهرة ١٩٦٠) م ٧— ٢٣ .
٢٤) الجاحظ : ن م . ص ١٠— ١١ .
٢٥) الجاحظ : ن م ١٢ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢٠ .
٢٦) الطبري : تاريخ جـ٩ : ص ٢٢٢ وما بعد .
٢٧) المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (القاهرة ١٣٢٦) جـ ٢ ص ٩٩— ١٠٠ .
٢٨) المقريزي : ن م جـ ٢ ص ١٠٠ ، الدوري : العصر العباسي الاول . (بغداد ١٩٤٥) ص ٢٢٠ .
٢٩) الطبري : تاريخ جـ٩ ص ٥٢ وما بعدها .
٣٠) اليعقوبي : تاريخ جـ٢ : ص ٤٨٠ .
٣١) الطبري : تاريخ جـ٩ : ١١٦— ١١٨ .
٣٢) الشيباني : محمد بن الحسن . (ت ١٨٩هـ) : السير الكبير جـ١ ص ٩٤— ٩٥ تحقيق صلاح الدين المنجد . (القاهرة ١٩٥٧) .
٣٣) البلاذري : (ت ٢٧٩ هـ) فتوح ص ١٨٠ ، أنساب جـ٤ : ١٤٤ . الدوري ، عبد العزيز ، العرب والارض في بلاد الشام من صدر الاسلام ، كتاب المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٤ ص ٢٥— ٣٤ .
٣٤) الدوري : ن م ص ٢٧ ، د . نييت : الجزية والاسلام . ترجمة فوزي جادالله (بيروت ١٩٦٠) ص ١٠٧ .
٣٥) البلاذري : فتوح ص ١٥٢ .

٣٦) الدوري : ن م ص ٣٢ — ٣٤ .

٣٧) البلاذري : فتوح ١٥٢ . د . نييت : الجزية ص ١٠٧ .

٣٨) فاروق عمر : مجلة المؤرخ العربي عدد ١٥ ص ١١١ ، (بغداد ١٩٨٠).

٣٩) البلاذري : فتوح ١٣٨ ، ٢٤٩ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٣: ٣٤ ، ابن عساكر : تاريخ دمشق ، تحقيق المنجد جـ ١ : ٥٨٧ — ٥٨٨ .

٤٠) الدوري : العرب والارض ص ٣٠ .

٤١) لي سترايغ گ فلسطين في العهد العباسي ، ترجمة محمود عمايرة عمان ١٩٧٠ ص ٢٥٣ .

٤٢) اليعقوبي : تاريخ جـ ٢ ، ١٤٦ ، البلدان ص ٣٢٤ — ٣٣٠ ليدن ١٨٩١ .

٤٣) البلاذري : فتوح ص ١٤٩ — ١٥٠ (القاهرة مطبعة السعادة ١٩٥٩) ، محمود كرد علي : خطط الشام ، جـ ٥ ، ص ٥٩ ، (بيروت ١٩٧١) .

٤٤) ابن عساكر : تهذيب جـ٤ ص ١٠٧ ، الدوري : العرب والأرض ص ٣٢ .

٤٥) الكندي : الولاه ص ٢٤

محمد بن يوسف دار صادر بيروت

الناس و الارض

في العصر العباسي الاول

بحث قدم الى المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام

«بلاد الشام في عهد بني العباس ١٣٢هـ // ٧٥٠م – ٤٥١هـ ١٠٧١م

الجامعة الاردنية – عمان

الفترة من ٤ – ٨ آذار ١٩٩٠ م

مواقع ومدن في جنوب بلاد الشام ودورها في العصر العباسي الاول

درج كثير من الباحثين على المقولة بان بلاد الشام قد تراجعت من الناحتين الاقتصادية والعمرانية ومن ثم أمملت بعد انتقال مركز الخلافة من دمشق الى بغداد ومن البيت الاموي الى البيت العباسي . وتبعا لذلك تناقص عدد سكانها وعاد الكثير منهم الى البادية والحياة الرعوية . «تاخرت احوال بلاد الشام الاقتصادية كثيرا» . عما كانت عليه ايام الامويين (١) .

لابل ان عبد المنعم ماجد لا يقتصر حديثه عن بلاد الشام بل يؤكد تراجع العرب جميعا حيث يقول «لا يجب المبالغة في الكلام عن قوة العرب ايام العباسيين ، بسبب انه بعد سقوط الدولة الاموية كانت قد ذهبت ريحهم وعادوا سيرتهم قبل الاسلام «قبائل» ولم يكونوا «امة» .(٢)

اما جيمس سور فيقتصر حديثه عن الارض الاردنية فيقول ما يمكن ترجمته «هكذا يبدو واضحا ان الهزة الارضية التي حصلت عام٧٤٧م ثم انهزام الامويين امام العباسيين سنة٧٥٠م قد اوقع ضربةقاسية بالاردن مع نهاية العصر الاموى ، فالمركز السياسي للاسلام قد انتقل للعـــــراق والحجاج قـــد اتخذوا طريقا اخر مابين العراق

---

* اني مدين في اعداد هذا البحث لمؤسسة فولبرايت _ FULBRIGHT CIES لاعطائي منحة دراسية عام ١٩٨٨ قضيتها في جامعة شيكاغو UNIVERSLIY OF CHICAGO وجامعة كاليفورنيا بيركلي UNIVERSILY CALIFORNIA - BERKELEY . (مخطوط عريضة)

والعربية السعودية ، ولذا اصبح الاردن معزولا ، وباستثناء قلعة عمان فاكثر المدن الكبيرة قد هجرت ، ماخلا اماكن سكنية صغيرة في الريف خاصة في وادى الاردن (٣) .

وهذه امثلة صغيرة بسيطة وهناك الكثير منها ، يضيق بحثنا هذا للتعرض لها جميعا وطبيعي فلقد تصدى بعض الباحثين للرد على هذه المقولة ، فكان ان تراجع بعض اصحاب هذه النظرية عنها بعض الشئ وذلك في ضوء الاكتشافات الاثرية التي تعزز الوجود العباسي في عدد من مواقع جنوب البلاد الشامية ومنها الارض الاردنية اليوم ففي مقالة ولمسي « walmsley » ، دلالات على استمرارية التاريخ الحضارى في الاردن حيث يقول : «لقد ظهر نتيجة للحفريات في قلعة عمان (٤) واعمال التنقيب الاثرى في بيت راس وطبقة فحل (٥) والموقر (٦) وكذلك في اربد (٧) وايلة (العقبة) (٨) . ظهر مدى الازدهار التجارى والاجتماعي الذي تمتع به الاردن في الفترة مابين القرن السابع والعاشر الميلاديين مما غطى فترة «الفراغ» الحضاري الذي كان يعتقد بوجوده ، من قبل ، بعد سقوط الدولة الاموية ، وفسح المجال لاعادة تقييم التاريخ الحضاري للاردن الاسلامي من خلال المصادر التاريخية والادلة الاثرية . (٩)

صحيح ان السلطة السياسية قد انتقلت من الامويين الى العباسيين ، من بيت قرشي الى بيت قرشي آخر ومن الشام الى العراق من ارض عربية الى أرض عربية اخرى ، وصحيح انه في العصر العباسي الاول قد اتسعت المشاركة في الحكم فشملت المسلمين من غير لعرب فكانت مشاركتهم اوسع وابعد . وصحيح ايضا ان دمشق قد اصابها في البدء بعض الضرر وقد اضطرب

لبعض الوقت حالها . . . ولكن سرعان ما استعادت نشاطها وحيويتها ولو بشكل جديد . وهكذا فقد ظلت مدينة كثيفة الساكان ومن قراءتنا لابن عساكر نتبين ان مساحة العمران فيها قد اتسعت حيث واصلت دورها كمركز انتاج زراعي وصناعي ضخم ، تشتهر بانتاج الفواكة والاعناب ، ولا سيما المشمش الدمشقي الذى ظلت مشهورة به ، فكانت مربياتها تصدر لاقاصي البلاد . هذه الصناعة المرتبطة بصناعة السكر التي اصبحت متقدمة في البلاد الشامية في هذه الفترة . كما وان دمشق قد واصلت انتاج المصنوعات الفولاذية والادوات والاواني النحاسية المرصعة حسب الطريقة الدمشقية المشهورة ، ثم الاقمشة الشامية (Damasees) المصنوعة من القطن والحرير ، فزراعة القطن قد تاقلمت في شمال الشام وفي جنوبه حتى اصبحت المنطقة خلال القرون الوسطى المنتجة الرئيسية للقطن بالنسبة لمجموع عالم البحر الابيض المتوسط . وكانت مزارع القطن في سوريا الشمالية والوسطى تروى بفضل قنوات باطنية اقتبست تقنيتها عن بلدان اسيا الوسطى وتسمى الان «السرايات في منطقة منبج «او القنوات الرومانية في سوريا الوسطى كما يطلق عليها في عُمان الافلاج» (١٠)

ولم يقتصر الامر على دمشق ، لابل فان المنطقة جميعها بقيت تمارس جاذبية شديدة بفضل موقعها المتوسط ومدنها الكبرى التي كانت مقرا لحضارة عمرانية عريقة جدا .وميزة اخرى لهذه المنطقة انها لم تقطع ابدا علاقاتها مع جزيرة العرب . ولم تفقد أهميتها الخاصة التي تعود لموقعها الجغرافي المتوسط بين العراق والمناطق الغربية من الدولة،وحدودها الطويلة مع الروم (بيزنطة) بل اصبحت مدن الثغور والموانئ الشامية مسرحا للمواجهة مع البيزنطيين ، فاهتم العباسيون بالثغور والموانئ أيما اهتمام .

ناميك عن انتشار الفتن والاضطرابات في البلاد الشامية عند بداية الحكم العباسي كما سياتي معنا لذا فقد قام الخلفاء العباسيون الاوائل بزيارات عدة للشام والجزيرة واقام بعضهم فيها فترة من الوقت ، كما انهم حرصوا على ارسال افضل رجالاتهم لتولي الامور فيها .

فكانت الشام والجزيرة تضم في بداية الخلافة العباسية سبعة اقسام ادارية ، وهي فلسطين والاردن ودمشق ، وحمص وقنسرين ، والجزيرة والموصل ، ثم جند العواصم الذى اضافه الرشيد (١١) .

وفي بحثنا هذا نود ان نركز على بعض المواقع والمدن التي لعبت دورا كبيرا او صغيرا في جنوب بلاد الشام في العصر العباسي الاول . وطبيعي اننا لا نستطيع في بحث محدود الصفحات قليلها ان نتعرض لكل المواقع .

وقد اتخذنا من هذه المواقع نماذج نحكم من خلالها على نشاط المنطقة في هذه الفترة التي هي موضوع البحث . ولقد اعتمدت في استخلاص النتائج على ما توصلت اليه الحفريات الاثرية الاولية، ثم على ماترويه المصادر التاريخية الجغرافية من حقائق وحوادث في تراثنا العربي الاسلامي ثم ما يمكن ان نستشفه عن صورة الواقع الذى نعيشه بالمقارنة بما كان في الماضي الذى نتصوره .

وسأبدا في الحديث عن موقع زراعي وتجاري لعب دورا مميزا في الفترة العباسية المبكرة واعني به الحميمة ، فموقع الحميمة معروف منذ ايام الرومان وباسم اثارا Auara فلقد كان من المراكز الرئيسية في منطقة حِسما في جنوب الاردن اليوم ، وقامت هذه البلدة منذ ايام الملك النبطي الحارث الثالث ٨٦-٦٢ ق . م لتكون مستقرا زراعيا هاما وسوقا عامرة على طريق ممر القوافل

بين شمال وجنوب البلاد ، هذه الطريق التي سميت – فيما بعد – بطريق تراجان – وعند العامة اليوم بالطريق السلطاني (١٢) اما الذي يهمنا فان الحميمة من أرض الشراه في جنوب الاردن كان منها منطلق الدعوة العباسية حيث فيها اقام الهاشميون – العباسيون الاوائل ، وعلى رأسهم علي بن عبدالله بن العباس . بعد ان خرج من الطائف إثر موت والده وذلك ايام خلافة عبد الملك بن مروان الاموي حوالي ٦٨هـ / ٦٨٧م على الارجح فقد نزل في البدء مدينة أذرح ، ثم اعتزلها وبنى في الحميمة قصراً (١٣) لان الحميمة تقع ضمن نطاق مدينة أذرح . هذه البلدة التي وقع فيها التحكيم المشهور مابين الامام علي بن أبي طالب ومعاوية بن ابي سفيان عام ٣٧هـ . وباذرح تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان عام ٤١هـ . عام الجماعة كما يقال (١٤) .

وتبدو لنا اذرح في (الفترة العباسية المبكرة) بلدة مزدهرة وكبيرة ومركزا لمنطقة الشراه ونستند بذلك على ماتذكره المصادر العربية مما سياتي تفصيله ، ونستطيع ان نفهم ذلك اذا ماتذكرنا ان اذرح ومنذ ايام الرومان والبيزنطيين كانت مدينة مزدهرة يدلنا على ذلك كثرة مافيها من أثار باقية للكنائس والابراج والاسوار من تلك الفترات فأذرح تقوم في موقع ادروا القديمة التي كانت معسكرا للفيالق الرومانية (١٥) .

واذرح في اللغة مفردها ذريع والذرائع هضبات تنبسط على الارض ، ويضيف اليعقوبي واهلها موالي بني هاشم وبها "الحميمة" منازل علي بن عبدالله وولده (١٦) .

ويذكر صاحب كتاب «اخبار العباس وولده » كيف اختار علي ابن عبدالله بن العباس موقع الحميمة فيقول : «انطلق علي بن

عبدالله بن العباس ، يرتاد ويطلب حتى اتى رستاقا بين الشام والمدينة ، فاشترى فيه قرية يقال لها الحميمة فنزلها ونزلها ولده فكانوا بها ، وقل قدومهم المدينة (١٧) . ويبدو لنا ان عليا بن عبدالله قد بنى قصرا له في الحميمة وسكنه وبنى اولاده مساكن لهم من حوله . . . ثم بنى مسجدا وكان يلزم ذلك المسجد ويصلي فيه . . . وكان لا يمر به احد يريد الشام من الحجاز او يريد الحجاز من الشام الا اضافه ووصله (١٨) وهذا مؤشر هام على اهمية موقع الحميمة على الطريق ما بين الحجاز والشام . واقام علي بن عبدالله بالحميمة حتى وافته المنية عام ١١٧هـ ، وله من العمر ثمان وسبعون سنة وذلك في ايام هشام بن عبدالملك ، وجميل ان نذكر هنا انه في الحميمة ولد الخليفة محمد المهدي وعلى الارجح ولد فيها ايضا والده الخليفة ابو جعفر المنصور والخليفة العباسي الاول ابو العباس عبدالله السفاح ، كما وولد فيها غيرهم من أبناء العمومة اثناء اقامة بني العباس في الحميمة والتي امتدت من ٦٨ – ١٣٢هـ /٦٨٨ – ٧٥٠م . (٢٠)

ويبدو لنا ان اراضي الحميمة خصبة ومشهورة منذ ايام الانباط بزراعة الكرمة والزيتون لان مياهها كثيرة ومقننة وطرق

ويفصل صاحب اخبار العباس خبر نزول علي بن عبدالله الحميمة فيقول «لما مات عبدالله بن عباس ، وقد اوصى الى علي ابنه ان يلحق بعبد الملك بن مروان بالشام حفظ وصيته فشخص بعد موته (عبدالله) الى الشام فقدم علي على عبد الملك فاكرمه واجلسه معه على سريره . وقوى بمكانه على أبن الزبير ، وقال لوجوه الشام : هذا ابن عم محمد (ص) قد اتاني عارفا بأني اولى بالامر من ابن الزبير فزاد ذلك في بصائرهم وقال له عبدالملك : ارتد منزلا تضم فيه اهلك وخاصتك . . . فنزل الشراه من البلقاء ونزل من الشراه الحميمة (١٩) .

الري فيها منضبطة ، لذا واصلت تقدمها الزراعي فنقرأ ان محمداً بن علي بن عبدالله كانت له خمس مئة شجرة من الزيتون يصلي تحتها . . . (٢١) وحين اخذت الدعوة العباسية تنشط وتشتد واخذ الدعاة يأتون لزيارة محمد بن علي في الحميمة ويجتمعون اليه ويتلقون منه التعليمات ويطلعونه بدورهم على اوضاع البلاد التي ينشطون بها وعلى سير الدعوة في الامصار خاصة في خراسان والعراق ، فلقد درج الدعاة المجيْ للحميمة في طريقهم للحج للديار المقدسة وذلك عند ذهابهم أو عند عودتهم .

بل واحيانا كان الدعاة يأتون لزيارة محمد بن عبدالله كلما اقتضت الحاجة لذلك ، فكانوا يأتون بزي التجار ، فيخبرنا صاحب كتاب اخبار العباس عن مجيْ بكير بن ماهان وهو من كبار الدعاة الاوائل في خراسان : جاء بزي تاجر للعطور فيقول : « فشخص بكير (من خراسان) ومعه كتب الدعاة ، حتى أتى دمشق ثم ابتاع عطرا ، وحمله على بغل ابتاعه . وخرج حتى اتى الشراه في هيأة عطار يبيع عطره وأتى بعض قراها فباع بعض مامعه حتى شهر بذلك ثم توجه الى الحميمة فلما دخلها طلب منزلا ينزله فبصر ابراهيم بن سلمه ، وكان يعرفه . . . بالكوفه ، فقال له وهو متلثم : يافتى هل من منزل ؟ قال : نعم هذا منزل الضيفان ، فخرج به حتى أدخله رحبة واسعة فيها ، فنزل محمد بن علي وقد اطاف بالرحبة منازل اخوته وولده ومواليهم ، وفيها مسجد لهم فيه مجتمعهم ، ومتحدثهم واكثر طعامهم . فادخل بكير بيت الضيفان وادخل متاعه . . ثم اسفر عن وجهه وعرفه القوم . . . (٢٢) .

من هذه الرواية نلاحظ ان بكير بن ماهان القادم الى الشراه بزي التجار ليبيع العطر في قراها ، نفهم من كلمة قراها ان

المنطقة عامرة بالقرى ولما كانت بضاعته العطر فيدل هذا ايضا على ان الناس في عيش حسن وبحبوحة ، فالعطر من البضائع المترفة ، كما توحي الرواية ان قرية الحميمة كبيرة وعامرة . وهي تابعة لمدينة أذرح ، وأذرح تأتمر بأمر صاحب البلقاء (٢٣).

ويبين المسح الاثري للمنطقة ان الطريق الروماني كان يصل الى الحميمة بدليل وجود اثار عدة أنصبة على جانبي الطريق ، كما اكتشفت اثار رجوم وقلاع . اما الفخار المكتشف فهو يرجع الى الفترات التاريخية الرومانية والبيزنطية والاسلامية . وتكشف الحفريات التي قام بها J. Oleson . E . Eadie عن نظام للري في الحميمة وفي المنطقة يدل على ازدهار زراعي كبير فيها يمتد من الفترة النبطية حتى العصر الاسلامي ، وهناك مؤشرات على ازدهار التجارة تبعا لذلك (٢٤) .

هذا وقد أُكتشفت آثار قناة تمتد من رأس النقب الى الحميمة واكتشف كذلك في المنطقة المصاطب الزراعية التي اشتهر بها الانباط . ومنطقة رأس النقب التي ترتفع حوالي اربعة الاف قدم فوق سطح البحر هذه الهضبة التي تنتهي فجاة عند شقيف عظيم ينحدر هابطا الى السهل الساحلي على انخفاض الف قدم تقريبا ، وفي الجنوب الشرقي تظهر جبال رم ذات الحجارة الرملية ، والى الجنوب الغربي تظهر سلسلة جبال الشراه – جبل سعير – التي تمتد منحدرة حتى العقبة ويطلق على هذه المنطقة كلها اسم حسما . معروف ان منطقة حسما كانت في صدر الاسلام منازل قبائل جذام العربية الشهيرة . هذه القبائل – او مؤتلف القبائل على الاصح – الجذامية قد لعبت دورا بارزا في الفتوح الاسلامية والعصر الاموي ثم العباسي . ولقد برز من صفوف هذه القبائل رجالات عظام لعبوا

دورا بارزا في دولة الخلافة الاسلامية ، وكان الجذاميون أهل ابل وزرع ثم تجارة (٢٥) .

ونرى في الجذاميين امتدادا للوجود النبطي العربي . . . وقبله الادومي . . . ونحسب ان قبائل الحويطات التي تسكن المنطقة في الوقت الحاضر هم من نسلهم ، وخاصة عشائر البدول وعائلات الحساسيين والمكايله والصويلحين وغيرهم .

أردت من هذا الاسترسال في وصف منطقة الشراه وحسما وفي شرح عمارتها وتقدمها الزراعي وتقنيتها العاليةفي الري ، لأقدم بهذا مثالا على التقدم الزراعي في منطقة من أقصى جنوب بلاد الشام وفي الفترة العباسية هذا التقدم الذي حمل الجغرافي المقدسي الكبير الى جعل منطقة الشراه كورة خاصة قائمة بذاتها في البلاد الشامية ويتحدث عن كل قرية او مدينة فيها على حدة ولو بسطر حيث يقول : «وقد قسمنا اقليم الشام الى ست كور . . . قنسرين ثم حمص ثم دمشق ثم الاردن ثم فلسطين ثم الشراه . . . . وبعد ان يتحدث عن مدن كل قسم مما هو معروف يقول . . . » اما الشراه فجعلنا قصبتها صغر ومدنها مآب ومعان وتبوك واذرح ويله (ايله) ومدين . وفي هذا الاقليم قرى اجل واكبر من اكثر مدن الجزيرة (مكذا) .

ويستطرد المقدسي فيقول : «فصغر انما هي البصرة الصغرى . . . والمتجر المربح . . . وهي على البحيرة المقلوبة . . . والجبال منها قريبة . ومآب في الجبل كثيرة القرى واللوز والاعناب قريبة من البادية ومؤته من قراها . وأذرح مدينة متطرفة حجازية – شامية وعندهم بردة الرسول . (٢٦)

لاشك ان مقولة المقدسي هذه ذات دلالة عميقة على تقدم كورة الشراه من الارض الاردنية في هذه الفترة.وحسُن ان نقرن موضعا زراعيا اخر هو الموقر الذى يقع على بعد حوالي ٣٠ كم للجنوب الشرقي من عمان وقد جاء ذكر الموقر في معجم البلدان «الموقر موضع بنواحي البلقاء من نواحي دمشق وكان الخليفة يزيد بن عبدالملك ينزله (٢٧) وقد بينتْ التنقيبات الاثرية المحدودة التي اجريت في الموضع ان مساحة كبيرة من بلدة الموقر الحالية تحتوى على مواقع اثرية بالاضافة للبناء الرئيسي للقصر . ويدل وجود ثلاثة احواض ضخمة (برك) لجمع مياه الامطار والعشرات من الابار على نشاط زراعي مكثف . وتشير الدراسات الاولية (٢٨) للفخار الذى تم العثور عليه في الموقع على وجود استيطان اموى كثيف في المنطقة مع وجود كميات كبيرة من الفخار العباسي مما يؤكد استمرارية الاستيطان في الفترة العباسية . بعكس الراى السائد بان المنطقة كانت قد هجرت بعد انتهاء الخلافة الاموية وبعد ان اصبحت بغداد مركزا للدولة العباسية .

ويبدو واضحا من دراسة البقايا المعمارية وجود مرحلتين معماريتين في الموقر الاولى من الفترة الاموية والثانية من الفترة العباسية مع امكانية وجود مرحلة تعود الى الفترة الايوبية في الطبقات العليا من المنطقة ، وهـذا يؤكد استمرارية التواصل الحضارى بعد سقوط الدولة الاموية . (٢٩) فعلى بعد ٢٥ كم من منطقة الشراه الزراعية الخصبة ننتقل الى الجنوب لنصل الى ميناء ايله – العقبة ، هذا الميناء التجارى الهام – ثغر الاردن على البحر الاحمر .

لقد كانت ايله في قمة خليج العقبة تقوم بدور نشيط في حركة التجارة الشرقية والرسول الكريم قد عرف القيمة الاستراتيجية والاقتصادية التي تتمتع بها مدينة ايله . فسعى الى فتحها . . . وكذلك فلقد ادرك اسقف ايله انذاك يوحنه بن رؤبه الجذامي واهلها ان مصلحتهم تكمن في ان تكون الطرق البرية المارة من مدينتهم آمنة مع حرية الملاحة والتجارة في البحر الاحمر وجنوب بلاد الشام لذا جنحوا للسلم مع الرسول(ص) مقابل (٣٠٠) دينار (٣٠)

واصلت ايله دورها التجارى في الفترة الاسلامية فكانت تؤدى دورها في تجارة البحر الاحمر والمحيط الهندى . طيلة العصر العباسي وعظم دورها اكثر في فترة جنحوا الفاطميين للسيطرة على البحر الاحمر فاليها كانت تاتي سلع الهند والجنوب العربي ومن ثم تنتقل الى الموانئ الاخرى في جنوب بلاد الشام خاصة في غزة ويافا وعكا . قال المقدسي . وويله (ايله) مدينة على طرف شعبة بحر الصين . عامرة . جليلة . ذات نخيل واسماك . فرضة فلسطين يسمونها ايله . وايله قد خربت على قرب منها وفي ايله تنازع بين الشاميين والحجازيين والمصريين . . . واضافتها الى الشام اصوب لان رسومهم وارطالهم شامية (٣١) . ويضيف ياقوت الحوى حقيقة مهمة ان في ايله مجتمع حج الفسطاط والشام وبها قوم يذكرون انهم من موالي عثمان بن عفان (٣٢) .

ويبرز الحميرى كذلك دورها في التجارة والحج غير انه يوسع الدائرة لتشمل المغرب حيث يقول : بها (ايله) يجتمع حاج مصر والمغرب . وبها التجارة الكثيرة واهلها اخلاط من الناس «ثم يشير الى نهضتها العلمية والزراعية فيقول / وبها علم كثير وآداب ومتاجر واسواق عامرة . وهي كثيرة النخيل والزرع . واصلح فائق

مولى خمارويه بن احمد بن طولون / حوالي ٨٨٤م وسوّى طريقها وردم ما استردم فيهـــا ، وبايله اسواق ومساجـــــد وفيها كثير من اليهود (٢٣) .

ويصف الحموى حركتها العلمية فيذكر انه ينتسب الى ايله جماعة من الرواه منهم يونس بن يزيد الايلي صاحب الزهرى توفي بصعيد مصر سنة ١٥٢هـ ، واسحاق بن اسماعيل بن عبد الاعلى بن عبد الحميد بن يعقوب الايلي ، روى عن سفيان بن عيينه وحدث عنه النسائي مات بايله سنة ٢٨٧٢ .

ويهمنا بالدرجة الاولى الفترة التي نحن بصددها بالنسبة لنشاط ايله – العقبة – التجارى والعمراني على البحر الاحمر الذى تعكسه مصادرنا العربية . والذى سار موازيا لنشاط خليج البصرة على الخليج العربي . فلقد دأبت الخلافة العباسية منذ القرن الثامن وأواسط القرن العاشر على تنشيط مدنها الضخمة البصره وبغداد فعملت على تفوق الخليج العربي . . . غير ان هذا التقدم لم يتعارض مع نشاط ميناء العقبة على البحر الاحمر ولم يكن على حسابه.ويجـــب الالتفات الى امر مهم وهو ان ميناء البصرة – الابله – على اميته وعظمته وعظيم الدور الذى كان يقوم به . . . كثيرا ما تعرض للتوقف لا بل للدمار والخراب لسنين طويله وذلك بسبب الحوادث السياسية والفتن والثورات التي كانت تأخذ من منطقة الخليج العربي ميدانا لنشاطها .

وليس المكان هنا للحديث باسهاب عن تلك الحركات ولكن يكفي للدلالة التي نتوخاها من ذكر اسمائها فقط . ففي منطقة الخليج اندلعت ثورة الزنج التي امتدت خمسة عشر سنة تقريبا (٢٥٤ – ٢٦٩هـ / ٨٦٨ – ٨٨٣م) أصـــاب البصرة بسببها كثير مـــن

الخراب وتعطل ميناؤها . وقبلها اندلعت ثورة الزط التي انقطع بسببها عن بغداد ما كان يحمل اليها من البصرة في السفن (٣٤) . وذلك عام ٢١٩هـ / ٨٣٣م .

ناهيك عن الحركة العلوية التي قامت ضد العباسيين والتي قادها محمد بن عبدالله (المحض) العلوى المعروف بالنفس الزكية والذى ثار في المدينة عام ١٤٥هـ / ٧٦٢م وثار أخوه ابراهيم في البصرة بنفس السنة (٣٥) .

فاذا عرفنا هذا كله فنستطيع ان نجزم ان خليج العقبة قد واصل دوره التجارى النشيط والمهم والكبير في العصر العباسي الاول ، خاصة اذا اخذنا بعين الاعتبار الارتباط القوى ما بين ميناء العقبة والموانئ المصرية من جهة ومع ميناء جدة في الجزيرة العربية من جهة أخرى كانت العقبة ترتبط من خلال الفسطاط بميناء الاسكندرية الذى واصل دوره كمركز هام في التجارة العالمية في هذه الفترة .

وواصلت السفن التجارية سيرها في ميناء البحر الاحمر فكانت تفرغ بضاعتها في ميناء القلزم وفي ميناء ايله – العقبة ، ومنها كانت تحمل الى شواطئ البحر الابيض المتوسط كما اسلفنا .

ومن هنا نستطيع ان نؤكد ان الدولة في العصر العباسي الاول استطاعت ان تضع تحت نفوذها الطرق التجارية العالمية الهامة الثلاث ونعني بها :

١. الطريق البرى عبر اسيا خاصة ما يسمى الطريق الغربي مع الجزيرة العربية والشام ومصر وشمالي افريقية .
٢. الطريق البحرى في الخليج العربي ، وكان الطريق البحرى من البصرة الى البحر الاحمر صالحا للملاحة فـي جميع الفصول .

٣. الطريق البحرى الثاني عبر البحر الاحمر

وبهذا سيطر العباسيون على طرق التجارة خلال القرنين الثاني والثالث هـ (٨ – ٩م) ولا ننسى ان ننوه هنا ان ميناء ايله قد لعب دورا خاصا في العلاقات التجارية مع بلدان افريقيا الشرقية ومع المحيط الهندى واستمر ذلك حتى العصر الفاطمي في القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) حيث توسع هذا الدور وازداد (٣٦).

اما الذى يعزز كل ما ذهبنا اليه هو الحفريات الاثرية النشطة والناجحة التي تقوم بها دائرة الاثار العامة بالتعاون مع جامعة شيكاغو Chicago التي يمثلها الدكتور الباحث Donald Whitcomb دونالد وبتكومب (والذى كان لنا معه حديث طويل التقت فيه وجهات نظرنا ، من حيث اهمية مدينة العقبة في الفترة العباسية المبكرة ومعها جنوب الشام .

فان الحفريات التي قامت في الفترة ٨٦هـ- ١٩٨٧مً قد كشفت عن مدينة في القرون الوسطى في العقبة وكانت تقوم هذه المدينة على مرتفع بسيط على الساحل بالقرب من المدينة الحديثة والموقع الذى تقوم فيه المدينة الاثرية يسمى «الوادى» كشفت فيه الحفريات عن مدينة مسورة ارتفاع جدرانها اربعة امتار وهذه المدينة شكلها مستطيل ١٢٠ X ١٦٠م ، ومحاط بجدار حجرى مع ابراج بعلو ٥ر٤ متر .

والشئ الهام جدا ان المعالم التاريخية المكتشفة والادوات التي وجدت تعطينا تاريخا متسلسلا ومستمرا للموقع يمتد من الفترة التي سبقت الامويين – اى من منتصف القرن السابع الميلادى وحتى الفترة الفاطمية وجدير بالذكر ان آثار مدينة

العقبة في الفترة العباسية تختص بميزة غناها الكبير حيث وجد فيها فخار مزجج (صفة بارزة في الفخار العباسي) وهي جرار مزججة لامعة وجرار زرقاء اللون مائلة الى الخضرة .

ومذه حقائق لا تدحض(كما قال ويتكومب)تدل على مساهمة «فرضة فلسطين» العقبة بالتجارة العالمية كما في بلدان الخلافة الشرقية كذلك مع المغرب الاسلامي وحتى مع الاراضي الصينية . حيث يقول ويتكومب بما يمكن ترجمته : ان الفترة العباسية والفاطمية في العقبة تمثل اضافة كبيرة ومهمة الى تاريخ الاردن .. وهذه الحقيقة الفريدة للاثار المكتشفة من هذه الفترة تدل بوضوح كم كانت اثار هاتين الحقبتين (العباسية الفاطمية) مهملة او غائبة بالحرى وخلاصة القول كان لميناء العقبة دور بارز في الرفاه والتقدم في الفترة العباسية فيما يتعلق بجنوب بلاد الشام وبمصر والعراق والشرق الاقصى . (٣٧)

ولقد اطلعت على أحدث تقرير غير منشور للدكتورة خيرية عمرو المنقبة في دائرة الاثار العامة – عمان – بتاريخ ١٩٩٠/١/١٩ يحمل نفس المعنى جاء فيه ان في المنطقة الجنوبية الشرقية من العقبة – قامت حفريات خلف بوابة الحجاز حيث البرج الجنوبي وُجِدتْ فيه طبقة كثيفة من الحجارة منحدرة باتجاه الجنوب الغربي – من سور المدينة – تعلوها طبقات غنية بالفخار الصيني وانواع مختلفة من الفخار المزجج المستورد . ولقد اسفر حفر هذا البرج عن الحصول على تتابع ممتاز من الفخار يمتد من بداية الفترة الاموية او ما قبلها بقليل وحتى العصر الفاطمي» (تقرير لدائرة الاثار العامة).

وحيث ان طبيعة البحث تقتضي الايجاز فانني اصمت عن التحدث عن مواقع هامة كثيرة مثل موقع خربة فارس او عن المسحين الاثريين في منطقتي حسبان ووادي الحسا او التفصيل في الحديث عن النتائج الباهرة للحفريات في طبقة فحل (التي سبق وان اشرنا اليها ، وذلك لضيق المقام . لاخذ القارئ وبسرعة الى موقع اخر ، الى مدينة طبرية التي كانت عاصمة جند الاردن لكي نرى دورها الكبير في الفترة العباسية الاولى ودور المنطقة التي تمثلها طبرية «فطبرية الجليلة بالدخل والقرى قصبة الاردن ، بلد وادي كنعان بين الجبل والبحيرة ، والجامع في السوق كبير حسن فرشه مرفوع بالحصى على اساطين حجارة موصولة ويقع في سوقها التجاري . . . وحول البحيرة كله قرى متصلة ونخيل فيها سفن كثيرة تذهب وتجيء ، كثيرة الاسماك ومدينة حيفا هي فرضة طبرية وبحيفا مرسى حسن لارساء الاساطيل وغيرها . (٣٨)

من طبرية خرج وزير المهدي القدير معاوية بن ابي عبيده الذي قلده الخليفة وزارته ودواوينه عام ١٥٦هـ ، وكان له دور كبير في العصر العباسي الاول (٣٩) .

فهذه صفة مدينة طبرية العامرة والمحاطة بالقرى وفرضتها مدينة حيفا المرسى الحسن وحول صناعة السفن يضيف ياقوت الحموي «كانت صناعة السفن بمصر فقط ، فأمر معاوية بن ابي سفيان بجمع الصناع والنجارين فجمعوا ورتبهم في السواحل وكانت الصناعة في الاردن بعكا وعكا فيها أرحاء ومستغلات غير ان هشام (بن عبد الملك) نقل الصناعة الى صور ، واتخذ بصور فندقا ومستغلا . قال الواقدي : لم تزل المراكب بعكا حتى ولي بنو مروان فنقلوها الى صور فهي بصور الى اليوم وامر أمير المؤمنين

المتوكل على الله سنة سبع واربعين ومائتين (٢٤٧هـ) بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة (٤٠) .

ان الانتشار الكبير للقرى في جند الاردن واجناد الشام الاخرى يشير بما لا يقبل الشك الى كثرة السكان والى ثبات القبائل بالارض ، والى اشتغالهم بالزراعة وهذا الامر استمر بعد سقوط الدولة الاموية بخلاف المقولة التي تذهب الى ارتداد الناس للبداوة .

وان استقرار القبائل الكثيف في الارض لم يقتصر على المراكز الهامة في بلاد الشام كدمشق التي توسعت ايام العباسيين توسعا ملحوظاً – بل شمل الاستقرار جند الاردن وجند فلسطين وحمص وغيرها (٤١) .

وما كثرة الاضطربات والثورات التي كان يقوم بها اهل الشام ضد السلطة العباسية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين الا دليل مهم على كثرة السكان وكثافتهم وعلى ثباتهم في الارض وتحولهم لفلاحين تثقلهم كثرة الضرائب . نذكر منها على سبيل المثال ثورة ابي الهيذام سنة ١٧٤هـ ، ثورة اليمانية في حمص ٢٤٠هـ ، ثورة نصر بن شبث في الجزيرة ١٩٨هـ ، ثورة ابي العميطر بدمشق ١٩٥هـ وابن بيهس بنفس الفترة . ثم ثورات القبط والعرب بمصر ٢١٦هـ .

واود ان اقف مرة اخرى عند واحدة من هذه الثورات اتخذتها نموذجا لعمق دلالتها الاجتماعية والسياسية والتي من خلالها نستطيع ان نحكم على الاوضاع في جنوب البلاد الشامية في العصر العباسي الاول .

قاد هذه الثورة رجل من اليمانية بسيط عرف بأبي حرب اليماني (وكان قد التجا الى احد الجبال في الاردن مختفيا لقتله احد جنود السلطان وكان الجندى قد اعتدى على امراة في بيت اليماني) .

واخذ ابو حرب يدعو الناس ويحرضهم على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذكر السلطان وما ياتي الى الناس ويعيبه فما زال ذلك دابه حتى استجاب له القوم من حراثي تلك الناحية واهل القرى (اهل القرى المقصود بهم سكان البلاد الشامية ماقبل الفتح الاسلامي ، من عرب وسريان وانباط) وكان يزعم انه اموى – ضد العباسيين – فقال الذين استجابوا له «هذا هو السفياني» فلما كثرت غاشيته من هذه الطبقة (الفلاحين الفقراء) من الناس . . . دعا اهل البيوتات من اهل تلك الناحية ، فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية فاتصل الخبر بالمعتصم وهو عليل علته التي مات فيها فبعث اليه رجاء بن ايوب الحضارى في الف من الجند ، فلما صار اليه وجده في عالم من الناس . . . زهاء مائة الف فكره رجاء مواقعته وعسكر بحذائه وطاوله حتى كان اول عمارة الناس الارضين وحراثتهم وانصرف من كان من الحراثين مع ابي حرب الى الحراثة وارباب الارضين الى اراضيهم ، وبقي ابو حرب في نفر زهاء الف او الفين فناجزه رجاء . . . واخذه اسيرا الى سجن المطبق في سر من راى (٤٢) .

وعند مقارنتنا هذه الرواية مع رواية اليعقوبي ، نجد بعض الاختلافات منها ان اليعقوبي يعطينا اسم المبرقع وهو تميم اللخمي ويعرفنا باسم القبائل التي قامت معه وهي : لخم ، وجذام ، وعامله ، وبلقين (٤٣) .

ان الشيء الذى يلفت النظر في ثورة المبرقع اليماني والذى ثار في البدء لاسباب شخصية هي :

اولا : ان دعوته قد لاقت قبولا واسعاوسريعاً عند الفلاحين واهل القرى ، وقد اتبعه خلق كثير من الحراثين وانه كان في عالم من الناس ، ثم استجاب له جماعة من رؤساء اليمانية وهكذا نرى ان الثورة التي بدات في صفوف الفلاحين واهل القرى والحراثين الفقراء اتسعت لتصبح حركة سياسية اجتماعية واسعة يقوم على قيادتها رؤساء اليمانية في الشام المناهضين لحكم بني العباس ، رافعين شعار «عودة السفاني» .

ثانيا : لاشك ان هذه الثورة هي امتداد لانتفاضات أهل الشام الذين كانوا يهبون بين الحين والاخر مطالبين باسترجاع امتيازاتهم السابقة ويطمحون لاسترداد نفوذهم السابق أيام الامويين ولكن يلوح لنا ان التوقيت الذى اختارته ثورة الفلاحين هذه يعطيها صبغة مميزة اخرى تتلخص في ان صرخة اهل الشام هذه جاءت تعبيرا ضد تزايد سلطة الاعاجم في الخلافة العباسية وضد نفوذ عسكر «الاتراك» في البلاط العباسي في سامراء .

ثالثا : جاء هذا الغضب بسبب اسقاط العرب من الديوان ، حيث يذكر الكندى «ان المعتصم اسقط العرب من الديوان في مصر حيث قبائل لخم وجذام وهي نفس القبائل التي ثارت مع المبرقع اليماني (٤٤) .

ان الاعداد الكبيرة من الفلاحين الذين اشتركوا في ثورة المبرقع اليماني تعطينا صورة واضحة كيف ان العرب في هذه

المرحلة قد انتقلوا من دور المقاتلة الخالصة الى الاهتمام بالزراعة ومزاولتها . واصبحوا فلاحين وزراع .

وجدير بالذكر ان هذا الامر قد شمل المقاتلة في الثغور وعلى الحدود ، وهنا ناتي الى قضية هامة اخرى ، لابد من الاشارة اليها لاهميتها وهي شحن الثغور وانتعاش الموانئ فرغم ان غالبية الموانئ تقع في شمال وغرب البلاد الشامية فلقد كان لشحنها تاثير اقتصادى وسكاني كبيرين على عموم بلاد الشام . فالبلاذرى يذكر ومنذ وقت مبكر ان معاوية في عهد خلافة عثمان بن عفان قد اقام حاميات قوية على طول ساحل البحر وحول الموانئ الاساسية واقطع جنود هذه الحاميات قطائع تضمن استمرار بقائهم وكانت هذه القطائع من الاراضي التي جلا عنها اهلها (٤٥) . واستمر هذا الوضع وبشكل اقوى واهم في العصر العباسي الاول . صحيح اننا هنا نعالج الوضع في جنوب الشام ولكن لدلالة موضوع الثغور في البلاد الشامية في العصر العباسي الاول ، لابد من وقفة قصيرة جدا. فالموضوع هام وبعيد الاثر ، ففى مطلع الحكم العباسي قام المنصور بتتبع السواحل ومدنه فعمرها وحصّنها . وبنى ما احتاج الى البناء منها وفعل مثل ذلك بمدن الثغور فبنى المنصور مرعش والمصيصة ثم حصن اهم ثغور الجزيرة وهي ملطية . فيروى البلاذرى ان المنصور امر ببنائها سنة ١٣٩هـ وجمع الصناع من كل بلد للاشتغال فيها فتم البناء في ستة اشهر ثم يصف لنا ترتيب سكنى المقاتلة فيها قائلا «وبنى للجند الذين اسكنوها لكل عرافه بيتان سفليان وعليتان فوقهما اصطبل . والعرافة عشرة نفر الى خمس عشر رجلا ، ثم يستطرد «واسكن المنصور ملطية اربعة الاف مقاتل من اهل الجزيرة لانها ثغورهم ووضع فيها شحنتها من السلاح واقطع الجند المزارع.

كما بنى المنصور مدينة الرافقة على الفرات سنة ١٥٥هـ على طراز مدينة بغداد (٤٦) . واستمر الامر على هذه الشاكلة طيلة العصر العباسي الاول ففي إيام هارون الرشيد مثلا عمل على توظيف مقاتلة الثغور من الاراضي التي يدافعون عنها على الحدود مع البيزنطيين فيذكر البلاذرى ان الخليفة المهدى وابنه الخليفة الرشيد هما اللذان بنيا طرسوس وحصناها وحشدا فيها الحاميات من الجند (٤٧) .

ويروى ان مدينة طرسوس دائما ١٠٠٫٠٠٠ فارس وعندما زرتها يقول ابن حوقل في مثل هذا العدد (٤٨) .

نلاحظ مما يذكره المؤرخون العرب ان الموانئ في السواحل الشامية الممتدة على طول الساحل حتى الحدود مع البيزنطيين كانت تواجه انتماشا وازدهارا في العصر الاسلامي مثل صيدا وصور وعكا (٤٩) .

ويقول الدكتور مصطفى الحيارى الذى اهتم بموضوع الثغور «تميزت الفترة الممتدة من الثمانينات من القرن الاول الهجرى وحتى نهاية القرن الثاني للهجرة باهتمام الخلافة الاسلامية سواء اكان مركزها دمشق او بغداد بعمران مناطق الحدود الطويلة من اراضيها واراضي الامبراطورية البيزنطية لتكون مراكز دفاع امامية تصد عن بلاد العالم الاسلامي الغارات المتكررة» (٥٠) .

ونحب ان نؤكد ان هذا التوسع في العمران في الثغور والموانئ رافقه بلاشك حركة اقتصادية نشطة واحتكاك واسع مع الشعوب الاخرى التي تعيش في الثغور في العادة .

ويكفي ان نشير هنا الى صفة مدينة صور عند اليعقوبي لاثبات مانرمي اليه : «ولجند الاردن من الكور صور ، وهي مدينة السواحل

وبها دار الصناعة ، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم . وهي حصينة جليلة ، واهلها اخلاط من الناس (٥١) .

اما وقد تعرضنا لقصبة الاردن مدينة طبرية ، والموانئ والقرى في جند الاردن ، التي بها قامت ثورة الفلاحين وحيث ان هذه الثورة شملت جند فلسطين ايضاً فلابد من وقفة عند مدينة الرملة حيث نلاحظ هنا بعض الاجراءات المالية والضرائبية التي اتخذها العباسيون خاصة الخليفة المامون .

فالرملة قصبة فلسطين منذ ايام سليمان بن عبدالملك فيها الجامع الكبير والاسواق الواسعة والتجارات . تحيطها الاف القرى والضيع (٥٢) .

ويروى البلاذرى ان الخليفة الوليد نصب اخاه سليمان حاكما على جند فلسطين فاقام في اللد ، وبعدما اسس سليمان مدينة الرملة وجعلها عاصمة له ، وكان اول بناء شيد فيها هو قصر سليمان ثم دار الصباغين والذى يهمنا نحن ما يذكره البلاذرى بالنسبة للفترة العباسية « وقد آلت دار الصباغين في الرملة عن طريق الارث لورثة صالح بن علي بن عبدالله بن العباس لانها قبضت مع اموال بني امية (٥٣) .

قالوا : وكان بنو امية ينفقون على ابار الرملة وقناتها بعد سليمان بن عبدالملك ، فلما استخلف بنو العباس انفقوا عليها وكان الامر في تلك النفقة يخرج في كل سنة من خليفة بعد خليفة ، فلما استخلف امير المؤمنين ابو اسحاق المعتصم بالله أسجل بتلك النفقة سجلا فانقطع الاستثمار وصارت جارية يحتسب بها العمال فيحسب لهم .

وهنا بالذات يستطرد البلاذرى فيقول : وبفلسطين فروز بسجلات من الخلفاء مفردة من خراج العامة ، وبها التخفيف والردود ، وذاك ان ضياعا رفضت في خلافة الرشيد وتركها اهلها فوجه امير المؤمنين الرشيد هرثمة بن اعين لعمارتها فدعا قوما من مزارعيها واكرتها الى الرجوع اليها على ان يخفف عنهم من خراجهم وليّن معاملتهم فرجعوا ، فاولئك اصحاب التخافيف وجاء قوم منهم بعد فردت عليهم ارضهم على مثل ما كانوا عليه فهم اصحاب الردود (٥٤) ويذكر اليعقوبي انه سنة ٢١٠هـ وذلك في خلافة المامون ان الخراج قد خفض بنسبة الربع (٥٥) .

ويبدو ان هذا الاجراء تبعه اجراءات اخرى من قبل المامون اذ أمر بمسح اجناد الشام من جديد لاعادة النظر في ضرائب الارض وذلك عام ٢١٤هـ وهو اجراء تطلبه تحول في وضع الزراعة في الارياف . (٥٦)

وقبل ان نخلص الى استنتاجات بحثنا يجدر بنا ان نتعرض الى موقع اخر لدلالته على أوضاع جنوب بلاد الشام في الفترة العباسية المبكرة وهذا الموقع هو ام الرصاص . ففي أم الرصاص اكتشف العلماء فسيفساء في ارضية كنيسة يعود تاريخها الى سنة ٧٨٥م .

وام الرصاص قرية صغيرة في موقع ميفع (ميفعة) التي يذكرها البكرى : فانها قرية في ارض البلقاء من الشام (٥٧) وتقع ام الرضاص على بعد ٣٠كم جنوب شرق مادبا . سكنها عائلات حمولة السلايطة اثناء نزوحها من الكرك حوالي ١٨٨٠م وهي تقع ضمن اراضي بني صخر وعشائرهم الكثيرة والقوية في الاردن .

ولقد قامت دائرة الاثار العامة ومنها السيد تيسير عطيات باجراء حفريات في السنوات الثلاث الاخيرة وشارك فيها معهد

الفرنسيسكان للدراسات التوراتية باشراف الدكتور الاب ميشيل باتشـــــريللو M. Piccirillo وقـــد توصلت حفـــرية عـــام ١٩٨٦ - ١٩٨٧ الى اكتشاف هام جدا في ارضية كنيسة تحمل اسم القديس اسطفان ، ففي هذه الارضية فسيفساء تحمل تاريخين هامين وكلاهما من العصر العباسي الاول ٧٥٦م اى ايام خلافة ابي جعفر المنصور والثاني تحمل تاريخ ٧٨٥م اى اخر سنة من خلافة المهدى بن المنصور (٥٨) . وارضية هذه الكنيسة في ام الرصاص غنية جدا بالرسومات والكتابات والاشجار فهي بحق تعتبر تحفة نادرة لا يضاميها في جميع اثار المدن الفسيفسائية الا خريطة مادبا . وفيها ايضا اسماء ثماني مدن في ارض فلسطين منقوشة اسماؤها في الرواق الايسر وهي المدينة المقدسة ، ونابلس وسبسطية وقيصرية وديوبوليس (اللد) والفتزوبوليس (بيت جبرين) وعسقلان وغزة .

وتسع مدن الضفة الشرقية للاردن ، وتقع في الرواق الايمن وهي : قلعة ميفع (ام الرصاص) فلادلفيا (عمان) مادبا واسبونتا (حسبان) وبلمونتا (بعل ماعين) واريوبوليس (الربة) وكرك موبا (الكرك) ودبلتين وهي مدينة غير محددة قرب ذيبان وربما مدينة ذيبان نفسها .

ان قرأة الكتابات لهذه الارضية الفسيفسائية تكشف لنا ثلاث نقاط هامة :

١ - تذكر اسم ام الرصاص القديم وهو ميفع (حصن ميفعة)

ب - ان تاريخ الفسيفساء العائد الى عام ٧٨٥م يمدد عصر الفسيفساء فـــي اردن لاكثر من مئة سنة عما كان معروفا من قبل .

جـ - يؤكد وجـــود جماعة مسيحية ذات ادارة دينية محلية لها نشاطها وفعاليتها وذلك في ظل الدولة العباسية (٥٩) .

لاغرابة من كثرة الكنائس في الديار الشامية ، فارض الشام مي موطن المسيحيين الاول ومنه قامت دور العبادة النصرانية . ففي البدء كانت الجماعات المسيحية تقيم صلواتها في المساكن بالسر عن السلطة الرومانية ثم اقيمت دور العبادة التي كانوا يسمونها «بيت صلاة» الكلمة الارامية العربية .

ثم اخذوا يبنون الكنائس بهندسات مختلفة ، وتكثر في جنوب البلاد الشامية بقايا مثل هذه الكنائس ، وحسب معرفتي فان أقدم كنيسة شيدت وبقيت بشكل متواصل بيت عبادة هي كنيسة المهد في بيت لحم ، وبعدها كنيسة القيامة في القدس ، وكلتاهما من القرن الرابع الميلادى .

ويكفي ان اشير انه يوجد في الاردن اثار عدد كبير من الكنائس شيدت في الفترة الاموية ناميك عن عدة كنائس ظلت مستعملة في ذلك العصر وباستمرار . مما يعطي صورة عن انتعاش للنصارى العرب الذين واصلوا دورهم في حياة بلادهم الاقتصادية والثقافية وفي ظل الدولة العربية الاسلامية وحافظوا على حريتهم الدينية .

ومن الكنائس نذكر كنيسة القويسمة ، الشونة الجنوبية ، وكنيسة العذراء مريم في مادبا من سنة ٦٦٣م ، وكنيسة ماعين من القرن الثامن ميلادى . (٦٠)

ونخرج مما سبق بالملاحظات التالية :-

اولا - ان القبائل العربية التي خرجت مع الفتح الاسلامي ، قد استقرت في الارض مع اهل القرى السابقين عليهم ، وهذا

الاستقرار اخذ شكلا واضحا منذ اواخر الدولة الاموية والعصـــر العباسـي الاول ، وبهذا انتقل العرب من دور المقاتلة الخالصة الى الاهتمام بالزراعة ومزاولتها .

ويجب ان نلاحظ ان اصحـــاب الارضين من كبار الملاكين فـــي بلدان الشرق الاسلامي كانوا يقيمون في المدينة ويسيطرون علـــى الحياة الاقتصادية فيها ، وعلى ناتج الارض ، فهم في نفس الوقت تجار الحبوب والمنتوجات الاخـــرى ، مـــن الناحية الاجتماعية حافظت المدينة في الاسلام على العادات والاعراف القبلية . . . هذه الصفة قد لازمت الوضع فـــي العالم الاسلامي لا كما هو في الغرب الاقطاعي حيث كان الاقطاعيون يشكلون ممتلكات اقطاعية مستقلة يعيشون فيها .ومكتفية اكتفاء ذاتيا تقريبا (٦١) .

ثانيا – مع قيام دولة الخلافة وتوحيد بلدانها : الجزيرة العربية والبلاد الشاميـــة ، والعراقية والمصرية تحت ظل دولة الخلافة ، فقد سمح هذا لخلق سوق واسعة شاسعة مشتركة ومتناغمة تمتد من اسيا الوسطى الى المحيط الهندى ومن السودان الى الغرب والى منطقة الانهار الروسية ، مما سمـــح وبقوة لهذه البلدان لاستئناف نهضة عمرانية كانت راكـــــدة قبيل الاسلام . ونتج عن هذا الازدهار ازدهار دمشـــق ، وبغـــداد ، والبصـــرة والفسطاط وطبرية والعقبة وغيرها .

ثالثا – يجب ان نلاحظ انه منذ بداية خلافة هارون الرشيد ١٩٣هـ / ٨٠٨م اخـذت تقوم أسر حاكمة مستقلة عن الخلافة فعليا لا اسميـــا – واحيـــانا اسميا ايضا – فالرشيد يبدو على

عكس ســـــابقية مـــن الخلفاء قد استساغ قبول سياسة الاستقلال الاقليمي كوسيلة للحفاظ على سلطة الخلافة ولو اسميا .

ونـــرى ان الذي دفع هذا الاستقلال فيما دفع المخلفات الحضارية البعيدة التي توارثها السكان فوق الارض التي نشـــاوا عليهـــا وواصلوا فيها العيش بالطريقة السابقة تقريبا وبنفس التقنيات التي توارثوها وهكـــذا اخذت تبرز هذه الخصائص وتتجسد بالتالي في دول ، وفي أُسر حاكمة محلية .

وظـــــاهرة قيام مثل هذه الدول يطلق عليها لومبارد (٦٢) ظاهـــــرة «التمايز» ، هذه الظاهرة التي دعيت خطا فيما نتصور بـ «تفكك الخلافة العباسية» ونحن نرجح تسميتها بنـــاء العالم الاسلامي اى الانتقال من حقبةالدولة الوحيدة الى مفهوم بلاد الاسلام الواسع .

وهنـا نجد تفسيرا قيام دولة الطاهريين ، والصفاريين ثم الســامانيين في الشرق والادارسة والاغالبية وغيرها في المغـرب ثم الطولونية والاخشيدية في مصر وثم الشام والمحاولات التي قام بها اهل الشام من مثل حركة عيسى بن الشيخ ٢٥٧ / ٨٧٠م وبالتالي قيام دولة الحمدانيين .

رابعا — وهكذا فبدلا من الطبقة الارستقراطية العربية التي كانت تحكـــــم في الدولة الاموية قامت وبجانبها طبقة حاكمة جديدة من ابناء الفئة العليا من الشعوب المختلفة ذوى النفوذ والامـلاك ، فاصبحت الثورة هي مفتاح المناصب الحكـــومية الرفيعة التي لم تكن تقتصر على الراتب

الكبير ، بل توفر لها فرص عديدة في الاعمال التجارية والسمسـرة والمشاريع الاقتصادية في الزراعة والمناجم والاشغال وغيرها

هــذا بالتالي قاد الى نموالطبقة الوسطى – فمما يمكن ترجمته عن غوتن فان طبقة التجار والبرجوازية الصغيرة فـي الفترة الاسلامية المبكرة ، قد اخذت تتطور بالتدريج فــي المئة والمئة والخمسين سنــة الاولى من الحقبة الاســلامية وظهرت تاريخيا وبوضوح مع نهاية القرن الثاني للهجرة واعترف بها اجتماعيا في القرن الثالث ، ومــع القرن الرابع الهجرى اصبحت قوة اجتماعية – اقتصادية ومع هذا لم يتم لهذه الطبقة كيان خاص بها لا ولــم تصبح هي القوة السياسية بالرغم من ان كثيرا من ممثليها قد حصلوا على مناصب رفيعة في الدولة (٦٣) .

وفــي الفتـرة اللاحقة تتراجع هذه الطبقات في معظم العالم الاسلامي امام تعاظم قوى الاقطاع والعسكر وذلك بعــد القرن الخامس الهجرى . وهذا الامر الهام خارج نطاق بحثنا هنا .

وختاما – بودى ان اشير الى مدى تغلغل نفوذ البلاد الشامية الفكرى والمعنوى في ارض الخلافة ففي القرن الثالث الهجرى ، فان الشام اخذت تمثل السلطان العربي ضد تغلغل الاعاجم والعسكر مستشهدا بذلك بحركة فكرية سياسية هي حركة "النابتة" وهي حركة تدعو لبني امية وتتوجـه بالدرجة الاولى للاحداث . وكان مجال نشاطها فـي ارض الخلافة نفسها في العراق ، فكانت النابتة

تنتصر لبني امية وتؤكد حقهم في الخلافة وترد على
خصومهم من المعتزلة والشيعة وغيرهما ، ومن العجب
ان خير مصدر عن هذه الحركة نجده عند ألد خصومها
عند ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٩ – ٢٥٥هـ
/ ٧٧٥ – ٨٦٨م) خاصة في رسالته عن النابتة (٦٤) .

هذه الرسالة الموجهة الى ابي الوليد بن احمد بن ابي داوود قاضي بغداد المعروف ، وموضوع رسالة الجاحظ هذه هو الطعن في حركة النابتة والهجوم عليها ونقد الامويين ونقض حقهم في الخلافة وذم لهم .

ولكن الذى يهمنا هو ان القارئ يستطيع وبسهولة ان يستشف من بين سطور الجاحظ وجهة نظر النابتة ومدى تغلغل افكارهم وكثرة انصارهم وبالتالي خطرهم على الدولة العباسية . ولقد انتشرت افكار النابتة في الفترة التي قامت بها ثورة الفلاحيين بقيادة المبرقع اليماني في جنّدى فلسطين والاردن واستمرت هذه الحركة بعد ذلك حتى ايام الخليفة المتوكل – هذا الخليفة الذى حاول فعلا نقل مركز الخلافة لدمشق .

وكانت هذه الحركة تمثل جيلا جديدا من الشباب النابتة الذى بدا ينمو وينبت في المجتمع العربي الاسلامي وكانت حركته هذه بمثابة رد فعل للمظاهر السياسية والفكرية والاجتماعية المعاصرة له .

ويذكر المسعودى في كتابه التنبيه والاشراف (٦٥) ، رايتُ في سنة ٣٢٤هـ بمدينة طبرية من بلاد الاردن (هذه المدينة التي بقيت دارا للعلماء والكتاب كما اسلفنا .

قال «رايت عند بعض موالي بني أمية ممن ينتحلوا العلم والادب ويتحيز الى العثمانية كتابا فيه نحو من ثلثمائة ورقة بخط مجموع مترجم بكتاب «البراهين في امامة الامويين ونشر ما طوى من فضائلهم ابواب مترجمة ويعكس هذا الكتاب فكرة السفياني المنتظر وقد انقلبت الى نظرية كاملة بأحقية الامويين في خلافة المسلمين .

المصادر والمراجع :

١ . البيطار ، امنية ١٩٨٠

الحياة السياسية واهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ١٣٢هـ ٢٢٨هـ (٧٥٠م – ٩٦٨م) ص ٥٩ دمشق .

٢ . ماجدعبد المنعم : ١٩٧٣

العصر العباسي الاول جزء ١ ص ١٥٥ ، القاهرة .

٣ .

Sauer James : 1982
The Pottery of jordan in Early Islamic Periods, Hadidi . A (ed.) Studies in the History and Archaeology of Jordan I.Amman

٤ .

A . Northedge : 1983
the Fortifications of Qala at Amman (Amman Citadel ,)
Annual of the Department of Antiquities of Jordan (ADAJ) No. 27, PP. 417 - 461 .
Qala at Amman in Early Islamic Period's .
Unpublished Ph.D . thesis, School of Oriental and African studies University of London .

٥ .

A. G Walmsley , 1989
" Early Islamic and Abbasid Pella (Fihl) (635 - c - 900 A . D) in D. Homes - frederick and J.B Hennessy (eds.) . The Archaeology of Jordan 2, Jeuren, PP. 436 - 440 .

1989 Fihl (pella) and the cities of Cities of North Jordan . During the Umayyad and Abbasid Periods .
In Studies in the History and Archaeology of Jordan , Vol . 4 , Amman (Forthcoming)

٦ .

M. Najjar , 1989
Abbasid Pottery fromel – Muwaggar , ADAJ , Vol . 33 , pp . 305 – 323 .

٧ .

C.J.Jenzen : Irbid and Beitras : Inter Connected Settlememts . A.D. 100 – 900 . in Studies in the History and Archaeology of Jordan , Vol.4. Amman (Forthcoming)

٨ .

Whitcomb , D . 1987
Excavations in Aqaba First Preliminory report ADAJ . 31 , pp . 247 – 266
Mahesh Ware : Evidence of Early Abbasid Occupation from Southern Jordan ADAJ Vol . 33 . Amman 1989 .

٩ .

A.G.Walmsley : 1990
Architecture and Artefacts From Abbasid Fihl : Implieations for the Cultural History of Jordan .

ورقة قدمت للمؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام : بلاد الشام في العصر العباسي المنعقد في عمان – الجامعة الاردنية ٤ – ٨ آذار ١٩٩٠ .

١٠ . لومبارد موريس : بلا تاريخ

الجغرافية التاريخية للعالم الاسلامي خلال القرون

الاربعة الاولى . ترجمة عبد الرحمن حميده . دار
الفكر دمشق ص ٤٣ ، ١٧٧ . سيشار اليه :
لومبارد : الجغرافية التاريخية .

١١ . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، دار احياء التراث ، جـ٤ ، ص ١٦٢ ،
بيروت ١٩٧٩ . سيشار اليه عند وروده : ياقوت :
معجم

ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن ، ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م
خطط دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ،
مطبوعات المجمع العلمي بدمشق جـ ٨ ص ٢٠٩.٠ .
١٩٥١ — ١٩٥٤ .

وايضا تهذيب تاريخ دمشق ، عبد القادر بدران — دار
المسيرة دمشق ١٩٧٩

١٢ .

Olezon . J . 1986
The Humayma Hydraulic Servey .
Perliminary report of the 1986 Season ADAJ ,
Vol . 30 , pp . 253 - 260 .

Mac . Burton - and others ; 1983
The Wadi el-Hasa Archaeological Survey
1982 a Preliminary report . ADAJ Vol . 27 pp
311 - 323

١٣ . اليعقوبي ، ابن واضح : ١٩٧٠
الكاتب ت ٢٨٤هـ تاريخ جزء ١+٢ دار بيروت جـ٢، ص ٢٩٠،
٢٩٧ ، ٣٢١ . وساشير اليه يعقوبي : تاريخ .
ياقوت : معجم جـ١ ، ١٢٩ — ١٣٠ . جـ٢ ص ٣٠٧
البلاذرى : ابو الحسن ، أنساب الاشراف ، القسم الثالث ، تحقيق
احمد بن يحي ، عبـــد العـــزيز الدورى ص ٧٤ وما بعدها
بيروت وساشير اليه البلاذرى :

١٤ . خليفة بن خياط «ابو عمرو ١٩٧٧
— شباب
تـــاريخ خليفة بن خياط . تحقيق محمد العمري بيروت ص ١٩٢ .

المسعودي . ١٩٦٧
مـــروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق محـي الدين عبد الحميد . جـ٢ . ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .
وســـاشير اليه : المسعـــودي : مـــروج — القاهرة .

١٥ .

A.C.Killick : 1983
Udruh – 1980 , 1981 seasons , A Preliminary Report ADAJ , Vol . 27

J . P . Oleson : 1988
Ibid , p . 256 .

١٦ . البكري . ت ٤٨٧هـ ١٨٧٧
معجم ما استعجم
جـ١ . ص ١٣٠ . نشـــر وستنفيلـــد . غونتجن
وساشير اليه الكبرى : معجم ما استعجم .

مجهول ١٩٧١
اخبار الدولة العباسية
وفيه اخبار العباس وولـــده . ت عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي ص ١٠٧ وما بعدها بيروت .

اليعقوبي تاريخ ، جـ٢ ، ص ٢٩٠ ، ٢٩٧ .

١٧ . مجهول اخبار العباس ص ١٠٨ .

١٨ . البلاذري انساب ص ٧٥ ، ت الدوري .

١٩ . مجهول اخبار العباس وولده ص ١٥٠

ابن كثير البداية والنهاية في التاريخ ، مطبعة السعادة في مصر القاهرة ، بلا تاريخ ، جـ١٠ ، ص ١٢٤ .

حسن ابراهيم ١٩٦٢ تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي جـ٢ ص ٤٠ ، القاهرة .

٢٠ . البلاذري انساب الاشراف تحقيق الدوري ص ٨٧ .

٢١ . مجهول اخبار العباس وولده ص ١٥٤ .

٢٢ . مجهول ن . م ص ١٥٥

٢٣ . الطبري محمد بن جرير ١٩٨٧ تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ، القاهرة جـ٤ ص ٣٤٤ وما بعدها . وساشير اليه : الطبري : تاريخ

٢٤ .

Eadie 1984
Humayma 1983 : The Regional Survey ADAJ . Vol 28 , pp . 211 – 224 .

٢٥ . صالح حمارنة ١٩٨٥

دور جذام فـــي الفتوح الاســلامية ، مجلة دراســـات تاريخية جامعة دمشق ، العددان ١٩ ، ٢٠ ، ص ١٥٠— ١٥١ . دمشـــق ، نيسان— تموز ١٩٨٥ .

٢٦ . المقدسي ، ابو عبدالله البشارى ت ٢٨٧ هـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ،طبعــة ليدن ١٩٠٦ ص ١٥٥ ، ١٧٨ . وساشير اليه : مقدسي : احسن التقاسيم .

٢٧ . ياقوت ، معجم ، جـ٥ ، ص ٢٢٦ .

٢٨ .

M.Najjar 1989
Abbasid Pottery from El – Mu,waqqar ADAJ Vol . 33 pp . 305 – 322 .

M.Najjar 1989
Ibid pp . 316 – 322

٣٠ . البلاذرى فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٧١ ، وساشير اليه البلاذرى— فتوح .

صالح حمارنة ١٩٨٥
دور جذام ص ١٥٩ .

٣١ . المقدسي احسن التقاسيم ، ص ١٧٩ .

٣٢ . ياقوت — معجم ، جـ١ ، ص ٤٢٢ .

٣٣ . الحميرى ، عبد المنعم — ١٩٧٥

الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق احسـان عباس ص ٧٠ — ٧١ ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٨٧٥ . وسـاشير اليه : الحميرى : الروض .

٣٤ . البلاذرى — فتوح البلدان ، ص ٣٦٨ — ٣٦٩

٣٥ . الطبرى — تاريخ

جـ٧ ص ٦٢٢ — ٦٤٩

المسعودى — مروج الذهب ، جـ١ ، ص ٦١٩ — ٦٢١

٣٦ . ابن رسته — الاعـلاق النفسية ، ليدن ١٨٩١ ص ٨٦ — ٨٧

لومبارد — الجغرافية التاريخية ص ١٩٠

الدورى ، عبد العزيز — ١٩٨٦ .

تاريخ العراق الاقتصادى في القرن الرابع الهجرى ص ١٤٩ — ١٥٠ ، بيروت

٣٧ .

D. Whitcomb 1987
Excavations in Aqaba . ADAJ , Vol 31 , P . 247 - 289

٣٨ . مقدسي — احسن التقاسيم ص ١٦٢

ياقوت — معجم جـ٤ ، ص ١٨ — ١٩ .

الحميرى — الروض ، ص ٣٨٥

٣٩ . الجهشاوى ، ابو عبدالله ١٩٨٠ محمد بن عبد القدوس ت . ٣١٠ هـ كتاب الوزراء والكتاب . تحقيق مصطفى السقا ورفاقه مكتبة الحلبي الطبعة الثانية القاهرة ، ص ١٤٥ .

٤٠ . ياقوت معجم جـ٤ ، ص ١٨ — ١٩ .

البلاذرى فتوح البلدان ص ١٢٤ — ١٢٥ .

٤١ .

Fred . Mc . 1981
Donner . The Early Islamic Conquests Prineston , New Jersey pp. 221 – 245

ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق ، جـ٦ ، ص ١٢٥ وما بعدها تهذيب ، جـ١ ، ص ١٧٥ .

اليعقوبي ١٨٩١ البلدان ، الطبعة الاوروبية ص ٢٢٦ وما بعدها .

٤٢ . الطبري تاريخ ، جـ٩ ، ص ١١٦ — ١١٨ .

٤٣ . اليعقوبي تاريخ ، جـ٢ ، ص ٤٨٠

٤٤ . الكندى ، محمد بن يوسف ت ٣٥٠ ولاة مصر ، تحقيق حسين نصار ، دار صادر بيروت ، ص ٢١٧ .

المقريزى ، تقي الدين احمد ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار القاهرة ١٣٢٦هـ ، اربعة اجزاء ، جـ١ ، ص ١٩٤ .

٤٥ . البلاذري — فتوح ، ص ١٥٠ وما بعدها

د . دينيت — الجزية والاسلام ، ترجمة فوزى جاد الله بيروت . ص ١٠٧ .

٤٦ . البلاذري — فتوح ص ١٦٨— ١٧١ ، ١٩٥— ١٩٧ .

الدوري ، عبد العزيز ١٩٤٥ — العصر العباسي الاول ، ص ٧٤ ، بغداد

٤٧ . البلاذري — فتوح ، ص ١٧٣— ١٧٥

٤٨ . ابن حوقل ت ٣٨٠ هـ ١٩٣٨ — صورة الارض ، الطبعة الثانية ، ليدن ، ص ٣٠٥

٤٩ . لومبارد — الجغرافية التاريخية ، ص ١٧٧— ١٧٨

٥٠ . الحياري ، مصطفى ١٩٨١ — حياة الناس في مدن الثغور— طرسوس — تاريخية ، جامعة دمشق العدد ٤ ص ٢٠ .

٥١ . اليعقوبي ، ابن واضح الكاتب ت ٢٨٤ ١٨٩١ — كتاب البلدان مع كتاب الاعلاق النفسية لابن رسته ليدن ص ٣٢٧ .

٥٢ . المقدسي — احسن التقاسيم ، ص ١٦٤— ١٦٥

٥٣ . البلاذري — فتوح ص ١٤٩— ١٥٠

٥٤ . البلاذري — ن . م ١٤٩— ١٥١

٥٥ . اليعقوبي — تاريخ جـ٢ ص ٤٥٩ وما بعدها

اليعقوبي — البلدان ، ص ٣٢٤— ٣٢٠ (طبعة ليدن)

٥٦ . ابن عساكر ١٩٧٩

تهذيب تاريخ مدينة دمشق ، عبد القادر
بدران ، دمشق ، جـ٢ ، ص ١٠٧

محمد كرد علي خطط الشام ، دار العلم للملايين ، بيروت
جـ٥ ، ص ٥٩ .

الدوري ، عبد العزيز ١٩٧٤
العرب والارض في بلاد الشام ، كتاب
مؤتمر بلاد الشام الاول ، عمان ، ص ٣٢
وساشير اليه العرب والارض .

٥٧ . البكري معجم ما استعجم جـ٤ ص ٥٦٩

٥٨ . تيسير عطيات حفريات الموسم الاول في مدينة ام
الرصاص «ميفعة» ص ٢٣— ٢٨ .

٥٩ .

M. Piccirillo 1986
The Complex of Saint – Stephen at Umm – er Rasas , First , Campaign ADAJ Vol . 30 , pp . 34 – 352 .

M . Piccirillo , 1984
The Umayyad Churches of Jordan ADAJ Vol . 28 . pp. 333 – 343 .

٦١ . امرون كوهين ١٩٧٠
الشرق العربي ، ترجمة جبرا نقولا عكا
دار الجليل ، ص ٣٦ .

الدوري ، عبد العزيز العرب والارض ، ص ٢٠ وما بعدها

٦٢ . لومبارد الجغرافية التاريخية ، ص ٢٦— ٢٧ ، ١٦١

٦٣ .

S . Gaitein 1956
The rise of the Near Eastern Bourgeoisie in Early Islam . Journal of the World History Vol . 3 p . 584 Boudry – Switzerland .

Lapidus Ira 1969
Middle Eastern Cities California University Press . Berkeley – London pp . 47 – 97 .

٦٤ . الجاحظ ، عمرو بن بحر ١٩٦٠
٢٥٥هـ ١٩٦٠ رسائل الجاحظ – رسالة عن النابتة
الجـــزء الثاني تحقيق عبد السلام
هارون ، القاهرة ، ص ٧ – ٢٣ .

٦٥ . المسعودى ١٩٦٥
التنبيه والاشراف ، بيروت ، ص ٣٣٦

زراعة قصب السكر عند العرب المسلمين
عند العرب المسلمين
— نظرة خاصة . في بلاد الشام —

ألقي هذا البحث في الندوة العالمية الأولى لتاريخ
العلوم عند العرب جامعة حلب من (٥ – ١٢ / ٤ / ١٩٧٦

زراعة قصب السكر وصناعته
عند العرب المسلمين

تعود معرفة الانسان لقصب السكر لفترة مبكرة جدا الى حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد وقد عرف هذا القصب أولا ببلاد الهند وربما شاركها هذا الفضل كذلك الجزر في جنوب الباسفيك وتشير الدلائل كذلك على ان المصريين القدماء قد عرفوا قصب السكر ايضا وان كلمة قاورا (Gaura) الكلمة الهندية القديمة للدلالة على السكر ربما اخذت من اسم (Gur)اسم ملك بنغال القديمة .

اما الكلمة السنسكريتية للسكر فهي (Sakkara)او (Sarkara) ومعناها الرمال او الجبلة الطينية او (البحصية) وواضح انها نفس اللفظة العربية للسكر تقريبا وقد انتقلت عن العربية الى اللاتينية الوسطى (Saccarum) ومنها الى بعض اللغات الاوروبية (١) .

وذكرت الكتابات الهندية المقدسة القديمة قصب السكر قبل المسيحية بألف سنة ومن الهند انتشرت زراعة قصب السكر الى الصين في حوالي ١٨٠٠ – ١٧٠٠ ق . م . وقد جاء ذكر ذلك بالكتابات الصينية القديمة . والتي تتحدث عن سكان وادي قانقيز (Ganges) الذين كانوا يعرفون سائل القصب الحلو المذاق .

وانتقلت معرفة زراعة قصب السكر من الهند كذلك الى بلدان الهند الصينية في الشرق والى ايران والبلدان العربية في الغرب ،

ومن البلدان العربية انتقلت زراعة قصب السكر الى اوروبا وايضا الى البلدان الافريقية .

ان اول ذكر للسكر في المصادر الكلاسيكية يعود الى الفترة الهيلينية بعد ان غزا الاسكندر الكبير الهند ، فقد ذكر احد قواده نيارخوس (Nearchus) في سنة ٣٢٧ ق.م. انه يوجد بأرض الهند قصب يخرج منه العسل دون مساعدة او تدخل من النحل . ثم ان الطبيب جالينوس (Galen) (١٢٩؟ – ٢٠٠م) قد وصف سائل سكارون (Sakcharon) لاضطرابات المعدة وامراض الكلى ، هذا السائل المستخرج من ارض الهند وبلاد العرب .

وامر جدير بالذكر ان المبشرين السوريين النساطرة من اعالي الفرات قد عرفوا تكرير نوع من السكر الابيض وذلك بواسطة استعمال الرماد في العملية حوالي سنة ٧٠٠م . (٢) .

وقد استعمل العرب المسلمون كلا من السكر والعسل في الامور الطبية في حين اقتصر اليونان على استعمال العسل فقط ، وان حنين بن اسحق (٨٠٩ – ٨٧٣م) قد ذكر الطبرزد وفي المعاجم جاء ان الطبرزد هو السكر الممتاز (الفائق) . وورد ايضا في مخطوطكتب زمن الفاطميين حديث عن انواع السكر وعن أهميته في العلاجات الطبية وقد سماه المؤلف اخو العسل ومما جاء في المخطوط ما يلي :

«السكر احد العصارات المستجدة بالتجميد التي يستعان بها على تنفيذ الادوية المشروبة من المسهلات وغير المسهلات وذلك لانه يكسر من مرارة ماكان منها مرا ويلطف مزاج ما كان منها غليظا ويسهل على النفس قبولها وفيه جلاء قوي وتنقية وتقوية للصدر ويحلل السعال ، وهو اخو العسل وشقيقه وعديله ورفيقه ولاجل ذلك رأيت ان اتي بذكره بعد العسل ، حار في الدرجة الاولى رطب يجلو ويلطف ويحلل ويلين البطن موافقا للمعدة وقد يختلف السكر في غذائه وفضله بحسب اختلاف اصنافه :

(١) الطبرزد (٢) السليماني = القارد بالعراق الاموازي بالشام (٣) الفانيد (٤) النبات وهو افضل الجواهر السكرية واحسنه واصلبه وقد يستنبت على قضبان الجرائد من شراب الجلاب والورد والبنفسج فيأتي متعلقا على تلك القضبان مثال الفصوص بياضا ونقاءا.(محمد التميمي المقدسي) كتاب المرشد الى جواهر الاغذية وقوى المفردات في الأدوية «المقاله ١١ من الجزء الأول – المكتبة الوطنية ، باريز) .

وما ان قامت الدولة العربية الاسلامية وتوطدت اركانها حتى نشر العرب زراعة قصب السكر وفن تكريره في معظم بلدان البحر الابيض المتوسط وما جاورها . اذاً فلهم يعود الفضل في تعميم هذا الغذاء الثمين في العصور الوسطى .

لاشك ان القائمة طويلة ومتعددة، قائمة المنتوجات الزراعية التي أخذتها مختلف البلدان خاصة اوروبا الجنوبية عن العرب المسلمين ، وذلك امتداد فترات العصور الوسطى ، فكما يقول آدم متز «كان أمم حادث في الاقتصاد الزراعي الاوروبي في العصور الوسطى هو احلال الحنطة - القمح ، محل الذرة والشعير ، اما في الشرق فكانت الحنطة قد استوطنت واستغرقت منذ زمن طويل» وكانت تزرع في كافة البلاد التي يكون الماء فيها موفرا ... وكان العراق اكثر البلدان التي يزرع فيها الحنطة وكان ارتفاع اسعار القمح يذكر دائما كدليل من دلائل غلاء المعيشة . (٣) وبجانب الحنطة يأتي على رأس القائمة الارز والحمضيات والقطن ثم قصب السكر .

ان صناعة السكر وتكريره كانت من المنتوجات القليلة في العصر الوسيط التي استطاعت ان تحفز قيام مزارع واسعة لزراعته ومصانع لتكريره ذلك لأن تجارته كانت رائجة ورابحة . (٤) .

وقد حمل اهل فينيسيا (البندقية) عن العرب معرفة تكرير السكر ، واصبحت مدينتهم ولمدة طويلة تقرب من خمسة قرون مركزا مهما لصناعة السكر والاتجار به في اوروبا ، ولقد قامت البندقية بدور الوسيط مابين العالم المسيحي والعالم الاسلامي في ذلك ، بل وقد كان لأهل البندقية في اثناء الحروب الصليبية مزارع قصب في مدينة صور وغيرها .

ويذكر فيليب حتى «ان ما اخذه الصليبيون من أرض الشام كان هو السكر . فقد كان الاوروبيون قبلاً يستخدمون العسل لتحلية اطعمتهم . فمن سواحل سوريا عرف الافرنج قصب السكر» .

وقد ذكر وليم الصوري (ت ١١٩٠م) في حديثه عن الحروب الصليبية ، كثيرا عن مزارع قصب السكر في مسقط رأسه . وقد ادخل مع السكر للغرب الاشربة الخفيفة والماء الممزوج بخلاصة الورد والبنفسج ، وكثيرا من انواع الحلويات . وليس للغرب فحسب بل ان منتوجات السكر والاشربة السورية المنعشة عادت للتصدير الى ارض السند في الشرق كذلك ... (٥)

اين كان يزرع قصب السكر في العصور الوسطى وكيف كان يصنع السكر ؟

نظرا لحلاوة السكر ولذة طعمه من جهة وللربح التجاري الناتج عن صناعته وتصديره فقد كان قصبه يزرع في جميع البلدان التي يمكن زراعته فيها .

وهنا اريد ان اذكر على سبيل المثال لا الحصر اهم المواضع التي كانت زراعة قصب السكر فيها منتشرة في العالم الاسلامي الوسيط حسب المصادر العربية ، واحب ان اذكر اولا ان هذه المصادر ، ذكرت انه في بلاد الهند ينتشر قصب السكر ، فكما يقول القلقشندي «قصب السكر كثير للغاية في بلاد الهند ومنه نوع اسود

صلب المعجم وهو اجوده للامتصاص لا الاعتصار ، ولا يوجد في غيرها ويعمل من بقية انواعه السكر الكثير» . (٦)

وفي وصف جزائر بحر الهند يذكر شيخ الربوه– شمس الدين الانصاري الدمشقي يذكر جزائر الديبا وهن جملة جزائر متقاربات واهلها قبائل من العرب ، والكبيرة منهن تسمى جزيرة الديبي والدياب ايضا ... بها الموز وقصب السكر . (٧)

وفي مدينة المنصورة في ارض السند يقول ابن حوقل «ليس بها سوى النخيل وبها قصب السكر» . (٨)

كذلك يكثر قصب السكر في الصين في ديدو وفي الخنساء اعظم فرض الصين . (٩)

والمهم انه بجانب بلاد الهند والصين فان المصادر العربية تؤكد وجود قصب السكر وكثرة زراعته في مختلف البلدان الاسلامية والعربية . وفي طليعتها بلاد عربستان المعروفة اليوم باقليم خوزستان ، التي عاد الفرس مجددا الى تسميتها بخوزستان منذ ايام البهلوى رضا شاه . (١٠)

وجدير بالذكر ان انهار خوزستان صالحة لسير السفن . واكثر تجارتها تنقل بين مدنها في تلك الانهار اما متجمع طرقها ففي الاهواز . (١١) المهم ان في اقليم خوزستان هذا يكثر قصب السكر فيزرع في ارجاء مدينة رامز . القمح والقطن وقصب السكر وفي

مدينة جنبا قرب سوق الاربعاء ، يكثر قصب السكر . وجنوب غرب دزمول تقع اطلال السوس ، وسوسه كانت مدينة آهله في القرون الوسطى يكثر فيها قصب السكر . ثم في مدينة الحويزة والتي وصفها المستوفي (القرن الثامن الهجري) انها من ازهى مدن خوزستان يكثر فيها القمح والقطن وقصب السكر ، وكان يسكن المدينة في ذلك الوقت الصابئة . اما مدينة جنديسابور فقد كانت منذ ايام الساسانيين قاعدة خوزستان ، والتي بقيت – حتى ايام الخليفة المنصور – مشهورة بمدرستها الطبية التي اسسها الطبيب السوري النصراني بختشوع ، ومن بعده ابنائه واحفاده .. وكان يكثر في نواحي جنديسابور قصب السكر ويحمل منها الى خراسان واقاصي الشرق . (١٢) ويبدو لي ان السكر هنا استعمل في هذه المدينة المشهورة في المسائل الطبية والادوية . ولا يستبعد كذلك انه نظرا لانتشار الحضارة الآرامية واللغة الآرامية في هذه المدينة فقد نقل الأطباء الآراميون السكر كدواء من هذه المدينة الى ارض سوريا . وبذلك تم استعماله في الطب عند العرب المسلمين .

القلقشندي يذكر ان «دجلة الاهواز – وهو نهر ينبعث من الاهواز عليه مزارع عظيمة من قصب السكر وغيره » . (١٣)

كذلك على جوانب نهر المسرقان – من بلاد خوزستان النخل والزرع وقصب السكر . (١٤)

ويذكر المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم ان أهم تجارات خوزستان وغلاتها السكر ، فان قصب السكر كان يكثر في كل ناحية منها ، قال المقدسي «كل سكر تراه ببلادالاعاجم والعراق واليمن فمن خوزستان يحمل» . (١٥)

اذن فلا عجب ان تسمع ان في خوزستان يتم اول تكرير للسكر في البلدان الاسلامية وذلك في وقت مبكرا نسبيا اي في القرن الثامن الميلادي . بعد ذلك ولا شك امتدت معرفة تكرير السكر الى غيرها من البلدان مثل العراق ومصر وبلاد الشام ، فنسمع عن مصر في القرن العاشر ان من اكبر المحاصيل دخلا كانت في هذا الوقت صناعة السكر . (١٦)

وامتدادا لخط الاهواز تنتشر زراعة قصب السكر في جنوب العراق ، فيذكر الماوردي ان قصب السكر يزرع حوالي البصرة وفي سنجار ... (١٧)

هذا ويخبرنا الثعالبي ان قصب السكر كان ينتج بوفره في العراق . (١٨) ويؤكد البيهقي ان الاقليم المحيط بالبصرة كان اشهر مكان لصناعة السكر في العراق .(١٩)

اذن فالعراق في هذه الفترة خاصة الاقاليم الجنوبية منه قد اشتهرت بزراعة قصب السكر وتكريره ...

في الوقت الذي فيه كانت بلدان شرقي الخلافة – خوزستان (عربستان) وجنوب العراق – قد بدأت بتكرير السكر منذ القرن

الثامن الميلادي ، فان مصر مع القرن العاشر الميلادي قد اصبحت من اكبر مراكز انتاج السكر . صحيح ان المؤرخين والجغرافيين العرب في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) لم يتحدثوا عن زراعة قصب السكر في مصر ، ولكن الدلائل تشير ان زراعة قصب السكر في هذا القطر كانت قائمة، وكما ذكرت فالمصريون القدماء قد عرفوا قصب السكر وان لم يعرفوا السكر نفسه .

ولكن يظهر ان زراعة قصب السكر قد اصبحت في مصر ذات شأن كبير مع القرن الخامس الهجري ، ربما كان لانفصال مصر السياسي عن الشرق اثر في ذلك . (٢٠)

يقول ناصر خسرو حوالي ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨م «وتنتج مصر عسلا كثيرا وسكرا . (٢١) اما الكتاب المتأخرون نسبيا امثال ياقوت الحموى والنويري والقلقشندي ثم المقريزي (٢٢) فانهم يصفون زراعة قصب السكر وصناعته في ارض مصر بشيءٌ كثير من التركيز والأسهاب واعتقد ان وصف النويري لزراعة قصب السكر ومعاصرة في مصر في القرون الوسطى يعتبر من خيرة ما وصلنا من وصف هذه الصناعة الهامة جدا .

والذي نستنتجه ان زراعة السكر في مصر في العصور الاسلامية الوسيطة ثم صناعته وتصديره كانت من اكثر الاعمال الانتاجية في مصر خاصة في الفترة الايوبية ثم عصر المماليك .

وأثر مصر واضح ايضا في انتقال زراعة قصب السكر ثم صناعته الى المغرب العربي في شمال افريقيا ، ومن شمال افريقيا انتقل الى غرب افريقيا ثم الى البلدان الواقعة في الجنوب من الصحراء . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى تم انتقال زراعة قصب السكر وصناعته الى الاندلس الاسلامية ، اذ ان صناعة السكر وتكريره قد دخل الاندلس الاسلامية ، منذ القرن العاشر الميلادي ان لم يكن ابكر .

لا شك ان الاسبان والبرتغال نقلوا صناعة السكر وزراعته مع اليد العاملة (السوداء) الى بعض نواحي العالم الجديد ... بيد ان العرب المسلمين هم الذين اعطوا البدايات الاولى لهذه الصناعة في الاندلس وغيرها من بلدان جنوب اوروبا . (٢٤)

لقد كان امرا شائعا ان زراعة قصب السكر وصلت الى غرب افريقيا على يد البرتغاليين عن طريق ماديريا (Madeira) ، حيث هناك كان يكرر السكر منذ سنة ١٤٥٢م. وايضا عن طريق جزائر فردي (Islands Verde) حيث هناك كان ينمو قصب السكر بكميات مرموقة منذ سنة ١٤٩٠م. (٢٥)

وينفي نظرية انتقال السكر الى غرب افريقيا عن طريق البرتغاليين ما كتبه المؤرخون العرب المسلمون ، فمثلا الزّهري (حوالي ١١٥٠م) ، وابن سعيد (القرن الثالث عشر الميلادي) ثم

القلقشندي (المتوفي ١٤١٨م) هؤلاء الكتاب قد ذكروا ان قصب السكر كان معروفا في الاجزاء الشرقية من غرب افريقيا ، قبل ان يأتي عن طريق ماديريا وغيرها بمدة طويلة .

ويذهب الاستاذ ليفيستكي الى القول «انني اعتقد ان بعض شعوب افريقيا الغربية عرف قصب السكر والسكر المستحضر منذ العصور الوسطى ، وان الفضل يعود للعرب لا للبرتغاليين في نقله الى هذه البلدان . (٢٦) فيذكر البكرى والزهري وبعدهما بكثير بكثير القلقشندي عن وجود قصب السكر . وصناعته في مراكش خاصة في منطقة السويس الاقصى (٢٧)

ويذكر القلقشندي ان قصب السكر بجزائر بني مزعنان وبسلا كثير ويعصر ثم يعمل منه القند ومن القند السكر على انواع بمراكش ، فانه يقال ان بها اربعين معصرة للسكر ،وان حمل حمار من القصب يساوي درهما من دراهم (اهل مراكش) ، وهو ثلث الدرهم من الدراهم المصرية ، ويعمل منه المكرر الفائق ، ومع ذلك فليس لهم به اهتمام لاكتفائهم عنه بعسل النحل مع كثرته عندهم . وميلهم اليه أكثر من السكر ، حتى يقال انه لا يستعمل السكر عندهم الا الغرباء او المرضى .

حتى الآن قد تحدثنا عن زراعة قصب السكر وصناعته في مختلف انحاء العالم الاسلامي في العصور الوسطى خاصة خوزستان ومصر . ويبدو لنا ان سواحل ارض الشام وخاصة منطقة الاغوار في

ارض الأردن كانت مهمـــة جدا في زراعة قصب السكـــر وفي صناعته وانتاجه وتصديره ، ففي المنطقة الممتدة مـــن نهر اليرموك شمـــالا حتى وادى الصافي جنوبا ، نرى علـــى امتداد هـــذه المنطقة اثارا واضحة لمعاصر السكـــر الكثيرة واسماء مثل تـــل السكر او وادي السكر حتى يومنا هـــذا ولقد قام قســـم التاريخ والآثار ، في الجامعـــة الاردنيـــة بالتعـــاون مع دائرة الآثار العامة والمعهد الامريكي للدراســـات الشرقية في عمـــان ، قامـــوا جميعهم مجتمعين منذ سنتين بمسح اثري لمنطقة الاغوار. ويقوم بهـــذه العمل الكبير كل مـــن الدكاترة خير ياسين ، وجيمس سيوار معـــاوية ابراهيم ، وغيرهم . . . وتشير الدلائل الأولى لهذا المســح الاثري ان هـــذه المنطقة عامرة بالآثار منذ اقـــدم العصور ، اي منذ العصـــور الحديثة او قبل ذلك اي منذ عشرة الاف ســـنة قبل الميـــلاد ، وسلسلة الآثار مستمرة حتى الفترة العثمانية. وقـــد برز اكثر من (٢٢٥) موقعا اثريا نصفها معروف مـــن مسح سابق قامت به دائرة الآثار او بأشراف منهـــا . وبالنســـبة للاثار الاسلامية في هذه البقاع فـــان الفترة الامـــوية ثم الفترة الايوبية وعصر المماليك تعتبر من اغنى الفترات الاســـلامية واكثرهـــا تواجدا في هذه المنطقة امـــا الفترة العبـــاسية (العصر العباســـي الاول) ، والفتـــرة الفاطمية فانها افقـــر بأثارهـــا المكتشفه حتى الان .

ويهمنا هنا الحديث عن الكشف عم اثار معاصر السكر في هذه المنطقة الممتدة من نهر اليرموك شمالا حتى البحر الميت جنوبا فقد وجد في هذه المسافة التي يبلغ طولها ٧٨ كيلوا مترا حتى الآن ٣٢ معصرة للسكر . وان كثيرا من المواقع تعرف بأسمائها المحلية بتل السكر وهناك خمسة مواقع على الاقل تحمل هذا الاسم .

ويرجح ان هذه المعاصر تعود في تاريخها الى الفترة الممتدة ما بين القرنين الثاني عشر – حتى الرابع عشر للميلاد ، وقليل منها تعود الى فترة متأخرة من هذا التاريخ وجدير بالذكر ان واحدة من هذه المعاصر بقيت في الاستعمال حتى سنة ١٩٦٧م ، مع ملاحظة تحويلها من معصرة للسكر الى مطحنة للقمح ، وجميل ان نذكر أن هذه المطحنة تحمل اسم الصحابي ضرار بن مالك الازور الاسدي الذي قاتل في حروب الردة ثم اشترك في فتوح الشام مع خالد بن الوليد . وتقع هذه المطحنة بالقرب من بلدة دير علا .

وهذا وتشير كثير من المصادر العربية الى كثرة زراعة قصب السكر في السواحل السورية وفي ارض الغور خاصة . فمثلا يذكر المقدسي ان اهل الغور وطبريا يمصون قصب السكر من شدة الحر . ثم يذكر مدينة كابل وهي مدينة (بالشام) ساحلية بها مزارع الاقصاب . « ومن صور السكر والخرز » وثم « قصب السكر في كور فلسطين » (٢٩) ويذكر نفس الشئ تقريبا ياقوت الحموى في معجم البلدان ويقول : « ان

السكر اكثر ما يستعملونه اهل الغور ومنها يصدر الى بلاد المشرق ثم يقول «اما الاردن فهو نهر يأخذ من بحيرة طبريا ويمر نحو الجنوب في وسط الغور فيسقي ضياع الغور ... واكثر مستغلهم السكر، ومنهايحمل الى سائر بلاد المشرق ، وعليه قرى كثيرة منها بيسان» . (٣٠) ويصف ياقوت الغور في موضع اخر ويتكلم عن كثرة مزارع السكر فيه ويقول «الغور طوله مسيرة ثلاثة ايام وعرضه نحو يوم فيه نهر الاردن ... وبلاد وقرى كثيرة وعلى طرفه طبريا وبحيرتها ومنها تؤخذ مياهها واشهر بلاده بيسان بعد طبريا ، واكثر ما يزرع فيه قصب السكر ... ومن قراه ايضا اريحا . (٣١) اما القلقشندي فيذكر «ثغور الشام كثيرة فيه قصب السكر ويقارنه بما يزرع في مصرفيقول : وقصب السكر في اغواره (الشام) الا انه لم يبلغ من الكثرة حد مصر . (٣٢) وقد سبقه النويري بشرح طويل عن اقصاب السكر ومعاصرها في ارض الشام فيقول : واما اقصاب الشام فهي تختلف اوضاعها بحسب البقاع والنواحي والاعمال فمنها ما هو بالسواحل الطرابلسية والبيروتية والعكاوية ولهم اصطلاح من نصب الاقصاب واعتصارها : فمنها ما يعتصر بحجارة الماء ، ومنها ما يعتصر بالابقار ومنها ما يعتصر بالسهام (الاعواد من الخشب)'... ويستمر النويري فيقول : وعمدة المباشر في الاعتصار ضبط ما يتحصل وحراسته من السارق والخائن والمفرط ، ويلزم مباشر

الاعتصار ان ينظم في كل يوم وليلة مخزونة (دفتر يوميات) بما اعتصر وبما تحصل» . (٣٢)

مما سبق نستدل على ان السواحل السورية وارض الغور كانت في العصور الاسلامية خاصة في الفترة الايوبية وعصر المماليك من اغنى البلاد الاسلامية في زراعة قصب السكر وتكريره وصناعته وتصديره . اذ كانت تجارة السكر - كما اسلفنا - تجارة رابحة ومفيدة في تلك الفترة . وربما كان للوحدة السياسية بين بلاد الشام ومصر عامل حاسم في تطوير هذه الصناعة وغيرها من الصناعات مما زاد في ازدهار كل من سوريا ومصر في تلك الآونة .

اما كيفية زراعة قصب السكر وتهيئة الأرض لذلك ، ثم كيف عمل المعاصر وتكرير السكر وما شاكل ، فانه زيادة على المعلومات المادية التي تعطينا اياها الحفريات الاثرية فان كتب الجغرافيين والمؤرخين تعكس بعض هذه النواحي ، خاصة ما كتبه المؤرخ الموسوعي النويري شهاب الدين في كتابه نهاية الارب في فنون الأدب ، فقد شرح ذلك بشيء من التفصيل في السفر الثاني من كتابه ، وكذلك نجد نفس الوصف تقريبا عند المقريزي في كتابه الخطط والآثار ، فاما ان المقريزي قد اخذ عن سابقه النويري او ان الطريقة بقيت ذاتها حتى ايام المقريزي فشرحها كما هي . وخلاصة طريقة زرع اقصاب السكر وعمل المعاصر كما جاءت عند النويري كما يلي -

بعد اعداد الأرض جيدا وريّها بما فيه الكفاية ، يرمي بالقصب ويتعاهد بعد ذلك الى ان يعفرز القصبَ ويقوى ، ولا غنية للقصب عن القطران قبل ان يحلو ، فانه يمنع السوس فاذا كان شهر كيهك (من الاشهر القبطية ، كانون الثاني) كسرت الاقصاب وقشرت ونقلت الى المعاصر ، وتوضع في دار القصب حيث هناك تنظف عيدان القصب بالسكاكين ، ويقطع من اعلاه ما ليس فيه حلاوة ويسمونه اللكوك ثم ينقل الى بيت النوب حيث يقطع القصب على وتراث قطعا صغارا ، ثم ينقل في اوعية من خوص تسمى العيارات فيوضع ذلك النصب المقطع تحت الحجر ، ويدور الحجر عليه الابقار الجياد فيعصره ثم يصفى ويغلى ويصب في اكسية من الصوف تحت دنان ، ثم يطبخ في قدور من نحاس ، ويصب المطبوخ — المحلب — في اباليج (جرار) من الفخار ضيقة الاسافل متسعة الاعالي ، ثم تقطر وتحفظ .

واذا كان اوان نصب القصب من السنة الثانية حرقت اثار الاقصاب وزعرقت كما تقدم ... (٣٤)

ملاحظـــــــات

مكان المعصرة عبارة عن بناء واسع مقوس ، والمعصرة الكبرى تقوم في الوسط من تحت الجرن الكبير ، عليه تقوم المعصرة

الدائرية الكبرى التي يحركها الدواب وفيها ثقب قائم لينزل السائل ، واخر يفرز القصب المعصور ، وهناك مجرى خاص لتصريف المياه .



قنطرة في المعصرة حيث أن الدواب تدور في الأسفل لتحريك العمل. رقم (١)

سقاية لنقل المياه في الكريمة . صورة رقم (٢)

ومن فوق هذا لبناء يقوم عجل كبير مشدود مع المعصرة من تحت ، بأعواد خشبية وهذا العجل يتحرك بسبب الماء المتدفق عليه وبشكل عامودي ، ويأتي الماء متدفقا من فتحة مثقوبة من فوق ، لذا فكل معصرة يجب ان تقوم عند مجاري المياه المتدفقة . فاذا تعثر وجود الماء المتدفق في هذه الامكنة عندئذ تحمل المياه على الجسور المعروفة باكفا دوكتي (Aqueduct قناة – سقايات) لكي تخلق الشكل العامودي للماء المتدفق .



حجر معصرة في الغور . رقم (٣)

ولقد لوحظ بجانب المعاصر وجود مكان للحريق مما يدل على وجود مطابخ لطبخ المحلب – القصب المعصور – ثم وجود الفخار

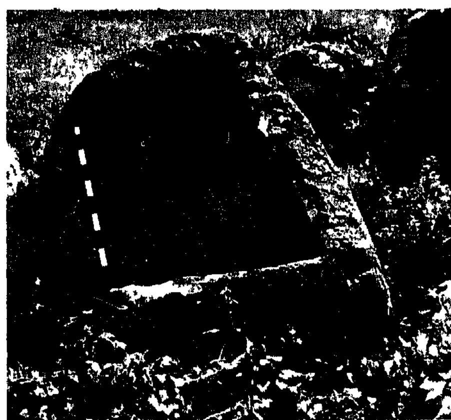
بجانبها الذي كـــان دليلنا على اعطاء تاريخ لهذه المعاصر ، وطبعاً كـــان السكر المستخرج يحفظ بهذه الجرار . (انظر الصورة) رقم ـ٢ـ .



سقاية لنقل المياه في الكريمة . صورة رقم (٢)

حوض معصرة من تل السكر (الغور) صورة صورة رقم (٥)

كما لوحظ وجود معاصر معده للاستعمال لم ينته العمل بها ، كما في صورة (رقم ٥)



معصرة والقناة الموصلة اليها في موقع كريمة الجنوبي - وادي كفرنجة . صورة رقم (٤)



معصرة والقناة الموصلة اليها في موقع كريمة الجنوبي - وادي كفرنجة. صورة رقم (٤)

المراجع

١ ـ

Parker Sondheimer,
Collier's Encyclopedia
Vol . 21 , p . 606 .

Jean Yoyotte ,
ADictionary of Egyptian
Civilization
London (1962) p . 876 .
Encyclopaedia Britannica
p . 679

مصطفى الشهابي : تاريخ الزراعة في العالم العربي .

مجلة المجتمع العربي . دمشق ج ٣ مجلد ٧ ص ٩٨ ، ١٩٢٧ .

٢ ـ

Collier's Encyclopaedia

انظر ايضا

Encyclopaedia Britanica
E . Lane , An Arabic English Lexicon
Tom . v . 8 . 18 23 . Begram th 1978

٣ ـ آدم متز : الحضارة الاسلامية في عصر النهضة .

الترجمة العربية . دار الكتاب العربي مجلد ٢ : ٢٠٣ ،

عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي / القرن الرابع هجري ،

ط ٢ – بيروت (ص ٧٠ – ٧١)

٤ ـ

M.A Cook M.
Economic Developments;
The Legacy of Islam , Second ed .
Ed . Joseph Schacht, with C.E. Bosworth ,
Oxford (1974) . p . 216 .

٥ ـ

Hakim M. Said ,
Cultural Impact of Bilad AL – Sham on Sind . Amman (1974) . p .
6 .

فيليب حتي : تاريخ العرب – مطول

الترجمة العربي . دار الكشاف بيروت ١٩٦١ ، ط٣ . — ج : ص ٧٨٩

فالح صالح : الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الاموي
١٢٠ وما بعدها .
٦ـ القلقشندي — ابو العباس احمد .
كتاب صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، المطبعة الامريكية — القاهرة .
١٩١٤ جزء ٥ ص ٨٣ .
٧ـ شيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر .
ليبزغ ١٩٢٣ ، ص ٦١٠ .
٨ـ ابن حوقل : المسالك والممالك .
الطبعة الاوروبية ص ٢٢٨ .
٩ـ القلقشندي : صبح الاعشى .
ج ٤ ، ص ٢٨٠ — ٢٨١ .
١٠— كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية .
الترجمة العربية ، بغداد ١٩٥٤ ص ٢٦٧ . ن . م . ص ٢٨٠
١١ـ م . م ص ٢٨٠ .
١٢ـ كي لسترنج : بلدان الخلافة ص ٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٦ ، ٢٧٣ .
١٣ـ القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ، ٤٠٠
١٤ـ القلقشندي : ن . م . ٤ ، ٤٠١
١٥ـ المقدسي — ابو عبدالله .
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . الطبعة الاوروبية — دي غوية ص
٤١٦ .
١٦ـ
M . Cook , Economic Developments p . 616 .

١٧ـ الماوردي : الاحكام السلطانية .
ابو الحسن علي . القاهرة ص ١٦٨ .
١٨ـ الثعالبي — ابو منصور : لطائف المعارف .

١٩ ـ البيهقي : المحاسن والمساوئ .
باعتناء فاكيس ١٩٠٢ م ص ٦٢٣ .
٢٠ ـ آدم متز : الحضارة الاسلامية .
ج ٢ : ٣١١ .
٢١ ـ ناصر خسرو : رحلة ص ٧٤ .
من النص الفارسى .
٢٢ ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان . طبعة لاليبرغ سنة ١٨٦٨ .
النويري : شهاب الدين احمد ، نهاية الارب في فنون الادب .
وزارة المعرف — القاهرة ، السفر الثالث ص ٢٦٤ — ٢٧٢ .
القلقشندي : صبح الاعشى ، الاجزاء ٤ ، ٥
المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار .
تقي الدين احمد ، طبعة بولاق ١ ، ص ١٠٢
٢٣ ـ

M. cook
Economic developments p . 212 .

آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣١١ — ٣١٢ .

٢٤ ـ

M. cook
Economic developments p . 215

٢٥ ـ

R . Mauny ,
Notes Historiques autour des Principales cultires
d'Afrique Occidentale
BIFAN , XV (1953) p . 694 – 5

٢٦ ـ

T . Lewicki
West African Food in the Middle Ages , Cambridge ,
(1974) p . 114 – 115 .

٢٧ ـ

El – Bekri ,
Description de l' Afique , Arabic text .
ed . M . Slane 2nd
Algiers (1913) p . 162 .

جزء ٥ ص ١٦ .
٢٩ ـ المقدسي : احسن التقاسيم ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٠ ، ١٨٦ .
٣٠ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان .
جزء ١ . ٢٠١ .
٣١ ـ ياقوت الحموى : ن . م .
جزء ١١١ ص ٨٣٢ .
٣٢ ـ القلقشندي : صبح الاعشى .
جزء ٤ : ٨٧ .
٣٣ ـ النويري : نهاية الارب .
السفر الثامن ص ٢٧١ — ٢٧٢ .
٣٤ ـ النويري : ن . م . ص ٢٦٤ — ٢٧١ .

* تنويه : لم ترد كلمة (صلى الله عليه وسلم) بعد ذكر اسم النبي محمد سهوا . الرجاء قراءتها مقترنة باسم النبي محمد اينما وردت

الفهـــــرس

منشورات دار الينابيع للنشر والتوزيع

المؤلف	العنوان
١ - الشيخ ابراهيم سربل	دليل المجاهد/ بحث
٢ -	الجهاد الاسلامي والانتفاضة/ بحث
٣ -	حركة الجهاد الاسلامي / كتائب الاقصى / بحث
٤ - د . جميل علوش	صوت الشعر/ ديوان شعر
٥ - د . ابراهيم خليل	احاديث في الشعر الاردني والفلسطيني الحديث /بحث
٦ - هند ابو الشعر	الحصان / مجموعة قصصية
٧ - عبد الستار قاسم	ليالي تشارلي الصهيوني/ مذكرات
٨ - د . عادل الظاهر	المجلة الفلسفية العربية/مجلة
٩ - فوزي الخطبا	ابن جبير/ تحقيق
١٠ - د . يوسف محمود ابو حامدة	الامثل في الرياضيات
١١ - د . خالد الساكت	المخاض / ديوان شعر